إبداع ١٠

عدي مدانات

الأعمال الكاملة



الرواية





منشورات البنك الأهلي الأردني


خمسون عاماً
١٩٥٥
١٩٥٥ - ٢٠٠٥

- **الأعمال الكاملة - الرواية**
- **عدي مدانات**
- الطبعة الأولى 2006



- **سلسلة إبداع 9**
- رئيس مجلس الإدارة: **د. رجائي المعشّر**
- رئيس التحرير: **ناهض حتر**

حقوق النشر والتوزيع محفوظة:



المراسلات:

البنك الأهلي الأردني

المستشار لشؤون الثقافة والإعلام

ص. ب 3103 عمان 11181 الأردن

E-mail: nhattar@jnb.com.jo

- التدقيق اللغوي: **حكمت النوايسة**
- تصميم الغلاف: **غسّان أبولبن**
- الصف والإخراج الفني: النسبة الذهبية للتصميم/5521177 / بشار قرمش، محمد المجالي
- رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر 830 / 4 / 2006
- رقم الايداع لدى دائرة المكتبات الوطنية 320 / 4 / 2006

مقدمة

هاشم غرايبة

وبعد

هاتان روايتان للأديب الكبير الأستاذ عدي مدانات ......

بين أيديكم؛ ثمة سرد يبعث على التساؤل والحيرة، بقدر ما يهبنا متعة القراءة والتأمل، ونحن أمام كاتب شغفنا بقصص تشيخوفية رائعة. ولكنه في عالم الرواية يشتق نسقاً مختلفاً عمّا ألفناه في قصصه القصيرة، رواية الدخيل ورواية ليلة عاصفة، روايتان جديدتان – بمعنى مختلفتان - يذهب فيهما عدي مدانات إلى المناطق الجوّانية في أغوار شخوصه، ويطلقهم في شوارع عمان ليوائم بين عالمهم الداخلي وعالم المدينة الخارجي.

الحسّ الإنساني العميق ورهافة الروح الإنسانيّة في حالة اصطدامهما مع العالم الخارجي القاسي، المتمثل بشوارع منتصف الليل ودوائر الشرطة، والحوانيت المغلقة،

والأفق المسدود، أو تلك الحالة المتمثلة بعالم داخلي وضطرب للعائلة، يمتد اضطرابها إلى العالم الخارجي العاصف، هاتان الحالتان تلتقيان عند ثيمة أساسية تشكل مفصلاً هامّاً في عملي عدي مدانات المجتمعين في هذا الكتاب، وهي "الروح"، ولكن ليس بالمعنى اللاهوتي لهذه الكلمة، بل بمعنى نبض الأشياء والناس والأماكن التي تنظم الحياة بحلوها ومرّها.

ثمة سرد يضفي شفافيّة وحناناً على السرد، من جهة، ومن جهة ثانية ثمة قسوة وريبة تكمن في التفاصيل ذات الدلالات العميقة، فيقيم السارد من المتضادّات والمتناقضات بين العوالم الداخلية للأشخاص والتفاصيل الدقيقة للأماكن في العالم الخارجي معماراً يؤكد انحياز الكاتب أولاً وأخيراً لإنسانية الإنسان.

إننا أمام روايتين تفتحان نوافذهما للأرواح المعذبة لتبحث عن أفق فسيح يساعدها على صياغة أحلامها الخاصّة ولتوازن بها قسوة الواقع.

عدي مدانات سارد متميّز في القصة والرواية، وفي روايتيه هاتين يخوض تجربة جديدة في الرواية العربية يغاير بها المألوف، ويذهب بنا إلى الهامش ليجعله متناً وللزوايا المعتمة فيضيئها، ويجعل القريب بعيداً والمختلف مألوفاً، فتعالوا نقرأ ....

الدخيل

١٩٩١

الثلاثاء

طلع صباح رتيب آخر أثار جلبة طفيفة في كل مكان، باستثناء منزل الأستاذ حسان، فقد ساده هدوء شديد.

إنه منزل بسيط لا يختلف كثيراً عن غيره من المنازل المجاورة من حيث انتماؤه إلى النمط السائد والمتقشف، بواجهة حجرية واحدة وثلاثة جوانب من الاسمنت، تحيط به باحة مسورة تضيق قليلاً من الخلف وتتسع من الإمام لتبلغ ستين متراً مربعاً، ويشتمل على أربع غرف يتوسطها موزع، تتقابل اثنتان من الغرف في الواجهة الأمامية يفصل بينهما المعبر والاثنتان الأخريان في المؤخرة.

ولا يشغل الغرفتين الخلفيتين أحد على الإطلاق، أما الغرفتان الأماميتان فقد استعملت أحداهما للنوم والأخرى للجلوس. ويمكن القول ببساطة إنَّ غرفة الجلوس تحظى باهتمام صاحب المنزل، إنها المكان الأكثر استعمالاً، فالكتب والمجلات الموزعة في كل مكان ورقعة الشطرنج والتلفاز، ومنفضتان تمتلئان بأعقاب السجائر وحقيبة العمل توحي جميعها بذلك، أما غرفة النوم فتثير الانتباه بأثاثها ذي البذخ البائد المصنوع بإتقان شديد من خشب الزان الثقيل مع زخرفة منمقة لحوافه، كما أن ستارتها المخملية المهترئة في أكثر من موقع تثير شيئاً من الأسى.

كان الأستاذ حسان يرقد على سريره مفتَّح العينين، فارداً كلا ذراعيه على السرير العريض، متنقلاً بين فكرة مهمومة وأخرى، دون أن يتخلف عن إحداها أثر في نفسه، لقد درج على هذه الحال من الانشداه والتهويم بين الأفكار منذ وفاة زوجته جليلة قبل ثلاث سنوات،حيث وجد نفسه على حين غرة وحيداً على ذات السرير الذي ضمه إليها سنوات زواجه كلها، بلا أدنى فكرة عما ستصير إليه حاله أو كيف سيتدبر أمره.

فقد ابنه زياد، الأصغر والأحب إلى قلبه، قبل سبع سنوات في واحدة من أكثر الحوادث غرابة وأكثرها إيلاماً، فقد قضى نحبه وكتابه المدرسي بين يديه حين اندفعت سيارة مسرعة وسقطت من ارتفاع الشارع على باحة منزلهم القديم المنخفض وقتلته، ثم تزوج لطفي بعد سنتين من هذا التاريخ واستقل بالسكن، وحذت سعاد حذوه فتزوجت وانتقلت إلى منزل زوجها، ولم يبق إلا هو وجليلة، التي ذوت شيئاً فشيئاً إلى أن شهقت شهقتها الأخيرة في ليلة عاصفة باردة، لم تمكنه من فعل الكثير ليسرِّي عنها في ليلة احتضارها وإن ظل يلوب حول جثمانها مشتت الخاطر، فاتر العزيمة.

كان عزاؤه الوحيد أنه لبى رغبتها ببناء هذا المنزل بحمامه الحديث ومطبخه الواسع، وإن كانت لم تعش كثيراً لترعى النبتات التي زرعتها.

نهض من رقدته ودس قدميه في فردتي خفه، واقترب من النافذة، أزاح ستارتها المتربة، ووقف يتأمل غبش الصباح الشفيف، تاركاً نفسه على سجيتها تتلطف وتصفوا بانبثاق النهار على هذا النحو البديع والغامض في آن واحد، صرَّح في دخيلته أن بداية هينه كهذه، تكفيه مؤونة مدى النهار. ومع أنه شعر مرات عديدة من قبل بمثل ما شعر به هذا الصباح إلا أنه لم يحظ دائماً بنهار كلي السلام، فكثيراً ما انهدم ورزح تحت وطأة هم ثقيل، لا تسعفه في وحدته كتب التاريخ المبعثرة في أرجاء صالة الضيوف ولا رقعة الشطرنج، التي يستغرقه تأملها وقتاً طويلاً، ولاحقيبته التي ينقلها معه من المدرسة إلى المنزل وبالعكس، ويكفي أن يفتحها ويلقي نظرة إلى داخلها كي يستعيد حضور المدرسة.

انتقل بعدئذ إلى المطبخ مروراً بالصالة الصغيرة، التي تنفتح على كافة الغرف، حيث كانت جليلة تقضي معظم وقتها. فتح نافذة المطبخ والباب وأطل على عريشة العنب التي تظلل الواجهة الشرقية بأكملها، ونظر إلى قطوف العنب التي أينعت وتأخر قطافها، ثم إلى المقعدين اللذين انتزعهما من الصالة، كان قد ترك كتاباً على أحدهما ومذياعاً صغير الحجم على الأخر. فاتجه ألى المذياع، أدار مفتاحه وعاد. ملأ إبريق القهوة بالماء وأضاف بناً وسكراً، ووضع الإبريق على شعلة الغاز ثم نظف الأواني التي استعملها في الليلة السابقة، وجففها وجلس إلى المائدة التي تتوسط المطبخ، وهي مائدة صغيرة تكفي لشخصين، ويمكن دون عناء ملاحظة غياب فعل المرأة في المطبخ من البقع ومسح الغبار التي تعلوها.

عبقت رائحة القهوة وسمع صوت غليانها، ذلك الصوت الخافت الآسر الذي يأتي به من أي مكان آخر في المنزل. أمسك بيد الإبريق ورفعه قليلاً وترك القهوة تغلي على مهل إلى أن اختفت رغوتها وساد اللون الأسود الصافي.

حمل القهوة إلى العريشة وترك نفسه لمشاعر وموسيقى وألون تتناهبه وتبعث فيه خدراً ممتعاً.

أنهى فنجانه الأول مع لفافتي تبغ وأسرع إلى الحمام، فعل ما هو ضروري واستراح، ثم

اغتسل وحلق لحيته وتأمل غضون وجهه وشعره الذي خالطه الشيب، مسلماً بشيء من الأسى بحقيقة أنه بلغ الرابعة والخمسين من عمره، وأنه أضاع في غمره انشغالاته رونق حياته.

خرج من الحمام أكثر حضوراً واستعداداً للتعامل مع وقائع يومه دون أوهام وبما يليق بمدير مدرسة قدير.

أعد فطوراً بسيطاً وجلس يتناوله على مهل. تذكر سعاد وهو يلوك طعامه فقد الحَّت عليه غير مرة كي يعدل عن قراره بالسكن وحده وأن ينتقل إلى منزل لطفي أو الزواج إذا أصر على البقاء في المنزل.

عذرها في سره لأنها تنطلق من حرصها عليه وهي تجهل تماماً أية لذائذ تكمن في خصوصية حياته الآن، في ممارساته الحرة الصغيرة، حيث يتحول كل فعل إلى لذة مستطابة، ألم يخطر ببالها أنه قادر على العناية بنفسه وقد مضى سنتين وهو يعنى بنفسه وبجليلة، يقف على خدمتها ويقوم بمعظم ما يستلزمه عمل المنزل.

بلغت الساعة السابعة. استمع إلى موجز نشرة الأخبار واكتفى، ثم نهض وارتدى ملابسه وهم بالخروج، دخل إلى الصالة، أخذ حقيبته وأغلق الباب خلفه وخطا نحو مدخل المنزل. فتح الباب وخطا خطوته الأولى نحو الخارج. انجذب نظرة بقوة إلى زاوية الباحة جهة الشرق وهاله أن يرى كتلة سوداء، جسماً غريباً مكوماً هناك.

أُخذ بما رأى ودقق النظر واتضح له على نحو مفاجئ أن الكومة تلك فتاة زرية الهيئة وكثة الشعر، مسربلة بثوب أسود وقذر، تسمر في مكانه محيراً وتساءل بوجل عن الوسيلة التي استخدمتها لدخول المنزل، سيما وأن باب الباحة مغلق على الدوام وما كان ليغفل عن إغلاقه. تقدم باتجاهها فزكمت أنفه رائحة مقززة ورأى عينين حمراوين مغروستين بوجه قذر مدميّ أخذتا تحدقان فيه بذعر. رفعت يدها إذ رأته يقترب منها، كأنما تحمي نفسها من هجوم متوقع وأصدرت أصواتاً تشبه الحشرجة. تأذى من الصوت فوقف في مكانه ونظر إليها مستفزاً.تركها واتجه نحو باب الباحة، فتحه وألقى نظرة إلى الخارج بحثاً عن عون. لم يكن أحد في الجوار فمنزله يبعد عن منازل الحيّ مقدار أربعماية متر. عاد إليها فأصدرت الأصوات ذاتها ودفعت جسدها لصق الجدار لتمنع أي محاولة لانتزاعها بالقوة. نظر إليها. رأى كم هي هزيلة بحيث يمكنه دون عناء قذفها إلى الخارج. طلب إليها أن، تخرج في الحال،

لم تستجب لطلبه ولم تبد أقل استعداد لذلك بل على عكس ما توقع قامت بفعل معاند يدعو إلى أقصى حالات الغيظ، إذ ضربت الهواء بيديها لتمنعه من الاقتراب منها. هالته حالة العصيان وأربكته، فتركها وعاد إلى الداخل. جلس في الصالة وأرخى جذعه محاولاً تهدئة غضبه والتغلب على خوفه واضطراب نفسه والتفكير بوسيلة لإخراجها من المنزل، إلا أنه لم ينجح، فقد بقي على توتره.

انغلق ذهنه تماماً، فليس من المألوف أن يفيق الواحد ليجد أن متسولة بغيضة تحتل منزله وتمتنع عن مغادرته ولم يسبق له أن جوبه بعدوان متعنّت كهذا. إن ما أغاظه أكثر ليس فقط تلك الهيئة الزرية والرائحة الكريهة بل النظرة الفزعة والعناد الذي لا سبيل للتغلب عليه،إلا باستخدام القوة.

إنه لحدث بالغ الفظاظة والسوء، ولا بد له من استخدام القوة معها لإرغامها على الخروج من منزله.غير أن تنفيذ عزم كهذا يتطلب جهداً استثنائياً واستعداداً نفسياً لإيقاع الأذى بها إذا لزم الأمر، وهو أمر لا يروق له،ولا تسمح به طبيعته اللينة اللدنة ولا خموله الذهني، ولهذا لم ينهض في الحال رغم رغبته في الانتهاء من هذا الموضوع الكريه والذهاب إلى المدرسة.

جال ببصره في الصالة الأليفة والأثيرة إلى نفسه، وشعر بهاجس مقلق وخطر خفي يتوعده ويتهدد هذا الانسجام والتآلف القائم بينه وبين أشيائه. فهنا يمارس وحدته على أفضل وجه، حيث يقضي أوقاتاً حميمة وهادئة. يشاهد التلفاز أو يقرأ أو يتأمل فيما يحيط به أو يستعيد لعبة الشطرنج. وفي هذه الصالة علق إطارات لصور عائلية وشخصية بحيث تعينه على استعادة فترات من تاريخه وبذلك يتخفف من قسوة وحدته.

أغمض عينيه إذ ذاك، وبلحظة واحدة مفعمة بالخوف والأسى أدرك ما رمت إليه ابنته بتحذيرها إياه من مغبة العيش وحيداً،إذ قالت له:" مازلت قادراً على العناية بنفسك، ولكنك لن تعرف ما قد يحدث لك مستقبلاً"، فعزم على أن لا يضعف أبداً مهما أشكل الأمر عليه وأن لا يجعل من هذا الحدث التافه أمراً مقلقاً. فتح عينيه مزوداً بعزيمة إضافية وقبل أن يتخذ قراره الحازم بإخراجها من المنزل ولو أفضى به الأمر آخر المطاف إلى استعمال الشدة، شمل الغرفة بنظرة سريعة متصلة، فمر بخزانة الأواني إلى يمينه قرب الباب حيث احتل التلفاز ركناً بارزاً فيها،ثم إلى الحائط المقابل للباب وقد أخذت في صدره مكاناً بارزاً صورة لرسم طبيعي ضمن

إطار مزخرف الحواف، ثم إلى المنضدة أمامه وتوقف عندها. كانت البيادق تحتل مكانها على رقعة الشطرنج وكتاب ثم منفضة السجائر الممتلئة بالأعقاب وإبريق القهوة وفنجان ومقصّ ولاصق، وفي الطرف الآخر المقابل للكتاب الغليون وعلبة التبغ، ما بين المنضدة العامرة وخزانة الأواني فراغ إذ إنَّه أخرج من الصالة مقعدين كانا يعيقان النظرة إلى التلفاز.

نهض بعدها متيقناً من إرادته وعزمه وخطا نحوها بثبات. اقترب أكثر من ذي قبل وانحنى فوقها ليمسك بذراعها. شاهد وجهها بوضوح كاف ورأى دماً كثيفاً يغطي رأسها وعنقها فتراخى عزمه ولم يقو على استعمال الشدة. رق صوته وقال مواسياً.

- لن ألحق بك أذى. قولي من فعل هذا بك؟

لم تجب.أدخلت رأسها بشق ثوبها. تابع:

- لا بد أن أحداً اعتدى عليك. هل تشعرين بألم؟

تابعت صمتها، مد يده ليتلمس جرحها. لم تمكنه، دافعت عن نفسها بضراوة وضربت الهواء بيديها. وتأتأت بصعوبة.

نفر من فعلتها وانتصب مبتعداً بجسده عنها قال:

- اللعنة عليك، أردت فقط أن أرى ما بك وأن أطمئن عليك.

انهضي واخرجي في الحال.

انتظر منها أن تنهض وتنصرف. ولكنها لم تبد أدنى استجابة لطلبه. هدأت جلبتها واعتصمت بالصمت. قال بصوت أكثر حدة:

- ألا تسمعين. قلت لك اخرجي في الحال، ودفعها دفعة مترفقة. واصلت تأتأتها. لم يجرؤ على استعمال الشدة معها. وقف عاجزاً أمام ضعفها وعجزها. أمسك به شعور غامض وانتزع منه صلابة القرار،فليس من السهل عليه أن يضاعف الاعتداء عليها حتى لو كان له الحق بذلك.

تركها وعاد إلى الصالة. ألقى بنفسه على مقعد، واستعاد بشيء من الإشفاق والخوف صورة وجهها المدمي. تساءل عما إذا كان أحد اعتدى عليها أم أنها تسببت بذلك حين ألقت بنفسها من على السور. إن الأمر في نهاية المطاف وبال عليه، فأية مفاجأة خبيثة هذه. نظر إلى الساعة.كانت تقترب من النصف بعد السابعة وما زال عالقاً هنا، أسيراً في منزله، محاصراً بالجروح والقذارة والعناد فماذا بإمكانه أن يفعل؟

انبثقت في ذهنه فكرة إبلاغ الشرطة، قال لنفسه:" لا قدرة لك يا أبا لطفي على معالجة أمر كهذا. اترك الخبز للخباز". راقته الفكرة واستغرب كيف لم يفطن لها من قبل مع أنها الفكرة الصائبة الوحيدة. ليترك لرجال الشرطة معالجة الأمر وينطلق هو إلى مدرسته. ذهب إلى المطبخ وأتى لها بطعام تتزود به، قطعة خبز وجبن وحبة بندورة وكوب ماء." إنها بحاجة إلى الطعام" قال لنفسه، لن يضيره شيئاً أن يسعف جوعها إذا لم يكن باستطاعته فعل شيء آخر. وضع الطعام قريباً منها وخرج مرتاح البال، راضياً عن قراره باستدعاء الشرطة وتقديم الطعام لها.

لم يدم رضاه طويلاً فقد عاوده الكدر بعد أن قاد سيارته مسافة صغيرة. فكّر بانزعاج شديد بالوقت الذي ستستغرقه إجراءات الشرطة. فليس الأمر بالسهولة التي ظن ولن يقتصر الإجراء على تلقي البلاغ وأخذ العنوان ثم يتركونه يتابع طريقه إلى المدرسة. سوف يخضعونه من دون شك لتحقيق من نوع ما ويطرحون عليه الكثير من الأسئلة وربما يرتابون بإجاباته أو يدّعون الريبة، وربما يأخذونه معهم إلى المنزل وقد يحتجزونه ريثما يتأكدون من سلامتها ويأخذون أقوالها. لن يعرف ماذا ستقول لهم. ربما تزعم أنه هو الذي اعتدى عليها. ارتاع لهذا الخاطر، ودَّ لو يعفي نفسه من هذا الهمّ، ولكنه عاد وشكك في أنها ستدّعي شيئاً من هذا، فماذا ستقول لهم؟. سطوت على بيته فضربني،لا لن تكذب كذبة مثل هذه. لا يمكنها أن تفعل ذلك وليس لديها سبب. ماذا لو أهمل لأمر برمته وتابع قيادة السيارة إلى المدرسة، ربما يعود ويكتشف أنها خرجت من تلقاء نفسها دون أن يضطر إلى زج نفسه في حادث لا صلة له به. لقد نأى بنفسه وتناسى.. أمرها، ولكنه لم يطمئن لهذا الخاطر إطلاقاً ورأى أن الواجب يملي عليه إبلاغ الشرطة فيدفع عن نفسه الشبهات. تابع طريقه نحو مركز الشرطة.

توقف في الطريق لشراء علبة تبغ. لاحظ البقال حيرته وعثرة لسانه. سأله عما به. روى للبقال قصته.

فاجأه البقال بإطلاق ضحكة استخفاف بقصته، وبعد أن انتهى من ضحكته قال:

- لا تخف. إنها المجنونة.

ردد بلهجة مشوبة بالحذر والتشكك ما تزال:

- المجنونة.

ضحك البقال مجدداً وقال:

- نعم المجنونة، يبدو أنك لا تعرفها يا أستاذ.
اطمأن قلبه قليلاً وعقب:
- بالتأكيد أنا لا أعرف أية مجنونة.

قال البقال معاتباً:
من أين لك أن تعرفها؟ أنت لا تعرف أحداً في الحيّ يا أستاذ، إنك تمر بسيارتك ولا تلقي التحية على أحد.
امتقع وجه الأستاذ حسان وحار في ما يتوجب عليه قوله إزاء هذه الملاحظة غير المتوقعة، لكنّ البقال أردف مخففاً عنه عناء الجواب:
- لو كنت تعرف أنها المجنونة لما هالك الأمر.
زاغت عينا الأستاذ حسان ببله، وهو يتنقل بفكرة بين ملاحظة البقال عن سلوكه وبن معرفة أهل الحيّ لما يدور فيه، بحيث لا يتعذر عليهم أمر ثم سأل ليحصل على مزيد من اليقين.
- أمتأكد أنت أنها المجنونة؟ وهل هي ذاتها بالضرورة لا غيرها؟ أكد البقال أنها المجنونة بعينها وأن أمرها لا يستدعي الاهتمام والقلق اللذين أظهرهما وأردف:
- ستخرج من بيتك مثلما دخلت وقد لا تعود مرة ثانية فهي لا تعرف سوى الأزقة ملاذاً لها. قد تكون التجأت إلى بيتك هرباً من الأولاد الذين يلاحقونها.
أجاب:
- ولكنها مصابة برأسها وعنقها وربما بأماكن أخرى من جسدها.
ابتسم البقال باستخفاف وقال:
- لا شيء جديد في ذلك - ليست هذه المرة الأولى التي تضرب بها.ولا يقتصر الضرب على الصغار بل إن الكبار يضربونها أيضاً ليكرهوها على الرحيل عن الحيّ، إنها لعنة على الجميع.
أغاظه تبسيط الأمر إلى هذا الحد والاستخفاف بمصير كائن بشري بحاجة للمساعدة حتى لو كان هذا الكائن مجنونة. أنعم النظر في البقال وامتعض من هيئته الزرية، وجهه غير الحليق شعره الأشعث وقميصه القذر وعينيه المطفأتين. قال جازما:
- يجب أن أخبر الشرطة في هذه الحال.
أبتسم البقال وقال:
- لا تزعج نفسك. لن يفعل رجال الشرطة شيئاً، إنهم يعرفونها ويعرفون أن الأولاد يعتدون

عليها.

– بدا كأنه يأخذ موقعاً، مخالفاً لإجماع أهل الحي وبخاصة أنه سبق له وأن قدم لها قبل قليل الطعام

تغيرت ملامحه من الاندهاش إلى الصرامة، سأل محتجاً.

– لماذا؟

ضم البقال شفتيه وقال مستخدماً لهجة صارمة تقابل صرامة ملامح الأستاذ حسان.

– لأنها مجنونة ولا أحد يحبّ وجودها في الحيّ. إنها تلاحق الأولاد فيضربونها ويعتقد الكبار إنها مصدر شؤم، ولا أحد يحب رؤيتها بأسمالها القذرة وشعرها الشعث. إنها آفة يا جار وقد بلينا جميعاً بوجودها.

رغم أنه أنكر في دخيلته منطق البقال الفظ إلا أنه استحسن فكرة إهمال الشرطة ومتابعة طريقه إلى المدرسة، فهو لا يحب أن يتأخر عن المدرسة، فتدب الفوضى في أرجائها ولا يعرف من ذا سيستغل الموقف وعلى أي نحو.

قال:

– معك حق – لن أخبر الشرطة.

كاد أن ينصرف بعد جملته هذه ولكنه تلكأ ووجد نفسه يسأل:

– ولكن كيف لك أن تتأكد أنها هي بالذات.

سخر البقال من سذاجة رجل يفترض فيه أنه مرب لأجيال وصاحب حنكة ودراية قال له:

– يا رجل اتكل على الله، هي بعينها من وصفك لها. دعك منها وانصرف إلى عملك.

– أليس لها أهل؟

ضاق البقال بكثرة الأسئلة وقال بتبرم واضح:

– لا أحد يعرف من أين جاءت أو أين تذهب. لا أحد يطرح مثل هذه الأسئلة.

ودّع البقال، شدّ على يديه وهو يصافحه وابتعد قليلاً. ولكنه ما لبث أن عاد وسأل:

– أمتأكد أنت؟

لم يكثرت البقال بسؤاله. تركه وتشاغل عنه داخل البقالة.

قال أبو لطفي:

– أنت تعرف أنني أب وجد ومدير مدرسة ولا يليق بي أن أتعرض لأذى بسبب ما حصل.

اقترب البقال ووضع يده على كتفه ودفعة دفعة خفيفة. وقال:

– اذهب إلى عملك ولا تخشى شيئاً. أنت تهول الأمر.

ودّع البقال مرة أخرى مكرهاً واستقل سيارته.

لا يختلف الأستاذ حسان عن غيره من الناس سوى بتفاصيل صغيرة مما تفرق بين الواحد والآخر، فهو كأي إنسان يخاف مما يجهله، يخاف الموت والسلطة والإدانة مهما كان مصدرها والعقاب ويخاف المرض وفقدان الوظيفة والعجز عن تدبير شؤون حياته، ويخاف من أهوائه وأخطائه ومن كل ما قد يفسد عليه حياته. وهو وإن ابتعد منذ زمن بعيد عن كل ما من شأنه أن يعرض أمنه للخطر، إلا أنه بعد وفاة زوجته واختياره للعيش بمفرده صار أكثر حذراً وتجنباً لكل ما قد يزعجه أو يسلبه بعضاً من وقته أو يلزمه على فعل ما لا يرغب فيه.

لقد تصالح مع نفسه أخيراً واستطاب العيش، فلا أحد يراقبه أو يزجره أو يعترض على طرائقه في العيش أو يفرض عليه ما لا يرغب فيه.إنه قانع بحياته ولا يرغب في أي تغيير، وجل ما يخشاه أن يحال إلى التقاعد بعدما بلغت خدمته ثلاثين عاماً، ماذا سيتبقى له ليسلو به لو تحققت مخاوفه وأحيل إلى التقاعد، سترتبك حياته وتضعف همته. ولعل هذا ما يفسر بلبلته الذهنية ومخاوفه.

إنه أول من يأتي إلى المدرسة وآخر من يغادرها ويتابع كل صغيرة وكبيرة فيها ليعطي أفضل نتيجة.ومهما كان شأن اختلافه مع البقال في النظر إلى الأمور فإن مما لا شك فيه أنه قدم مساعدة طيبة ساعدته على صرف أمر الفتاة عن ذهنه والذهاب إلى المدرسة.وكيف كان له أن يتابع خطط نهاره لولا تلك المساعدة. شكر البقال في سره عن حسن صنيعه وتوجه إلى المدرسة.

سيذهب بعد انتهاء الدوام إلى منزل ابنته لتناول الطعام وتبادل حديث قصير ودود مع زوجها ثم يتركهما ليستريحا ويذهب هو إلى منزله حيث بإمكانه أن يأخذ قسطاً من الراحة ثم يخرج للعب الشطرنج في المقهى. بدت له خططه هذه على بساطتها حافلة بكل ما هو عزيز عليه وفكر كيف أنها كانت قبل قليل عرضة للخطر.

بلغ المدرسة بعد مرور وقت ليس بالقصير على ابتداء الدوام. بلغت مسامعه ضجة التلاميذ. ساءه أن يتسبب غيابه بكل هذه الضجة. عبر رحاب المدرسة محتداً سريع الخطى. وإذ كان

يجتاز الرواق الفاصل بين غرف الدراسة إلى مكتبه هدأت الجلبة في الصفوف التي مر حذاءها واستقر الطلاب في مقاعد الدراسة. غير أنه لم يرض بهذه النتيجة. دخل الصفوف صفاً صفاً وعنّف الطلاب على سوء سلوكهم ثم عاد إلى مكتبه. تلقى التعليمات الخطية وأجاب على مهاتفات من مسؤولين في الوزارة وقابل طلاباً في هذه الأثناء واستفسر منهم عن طلباتهم، ورد منهم من كان طلبه لا يستند إلى سبب صحيح، ولبى لبعضهم طلباتهم. وهكذا انقضت ساعات الدوام بين انشغال وانشغال، غير أن صورتها ظلت تفاجئه كلما خلا إلى نفسه، فيرى وجهاً مُدمًّىً وعينين حمراوين مذعورتين. ودّع آخر المدرسين وجلس ليستريح من عناء العمل. فاجأه قدر هائل من الكدر. انقبضت نفسه تحت وطأته وتحير في أمر سطوته المباغتة. حاول أن يستقصي أسبابه ويخفف من حدته ففشل. ظل همه مبهماً ثقيل الوطأة كأنما تسرب ألى مسامه من تواريخ مهجورة ووقائع عفا عليها الزمن وليس بسبب احتمال بقاء الفتاة في منزله فقط، فهي ستخرج على أية حال طالما أنها متشردة، ستخرج لا محالة.

أدار قرص الهاتف واتصل بسعاد ولم يكن متيقناً مما سيقوله لها، أيشكو لها أمره أم يتكتم عليه، غير أنه كان موقناً من عدم رغبته في زيارتها وتناول طعام الغداء فما بارحه الهم أو تبرأ من التشوش والانشغال بأمرها. اعتذر لها وتعلل بانشغاله المفاجئ بموضوع يخص المدرسة، فاسترابت بصحة عذره وسألته إن كان يشكو من شيء. كادت لهجته المتأسية أن تفضح ما يخفيه ولكنه تماسك وهو يستمع إلى صوتها الحنون المتشكك وقال بلهجة أكثر قوة:

– لا يوجد سبب يدعو لقلقك. أنا بخير. كل ما في الأمر أنني اليوم فقط لا أستطيع القدوم. أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها وابتسم بأسى وهو يتذكر ما قاله من أن كل شيء يسير على ما يرام ولا يوجد ما يدعو لقلقها.

شمل مكتبه بنظرة مشوبة بالخوف، تعّين عليه أن يخترق وسط عمان في طريقه من جبل القلعة إلى شرقيها، كان أمامه رهط كبير من السيارات وعلى جانبي الشارع أفواج من الناس. اضطر للسير ببطء شديد. انصرف إلى ملاحظة الناس سواء الذين يسيرون على أقدامهم أو يستقلون السيارات. تساءل إن كان لدى هؤلاء الناس هموم. أوَ يُعقل أن تخلو حيواتهم من الهموم. هؤلاء الناس الذين ينوءون تحت أعباء جسام يجُرّون أقدامهم منذ الصباح وحتى المساء لتأمين لقمة خبز تحمل الحياة ليوم آخر متشقق ومغبر، دون زهو أو رجاء.

هؤلاء الذين هم مثله أو أدنى درجة في المرتقى الاجتماعي ومع ذلك يتابعون العيش دون

توقف وبقليل أو كثير من التجهم، لا يهم ما داموا يعيشون. أترى لو كانوا يهولون المسائل مثلما يفعل أكانوا يرغبون في أن تدب الحياة في أوصالهم يوماً أخر. فكر بالبقال الذي يبدو متماسكاً، على أي نحو تجري حياته؟ وهل هي مفعمة بالسعادة والرضى؟ أم أن البؤس أخذ طريقه إليه فيتظاهر بغير ما هو عليه؟ أم أنه يقبل بشظف الحياة وسوئها فيمر بصعابها ساخراً من كل شيء. كيف سمح لنفسه أن يقف أمامه ضعيفاً مرتبكاً مغلق الفهم؟

كيف نظر البقال إلى الحادثة بالحجم الذي تستحقه دون مبالغة وكيف وضعها في إطارها الصحيح، قال لنفسه:

– إنك تضخم الأمور كعادتك يا أبا لطفي. ستكتشف أنك تكدرت وأشغلت نفسك دون داع. لم تحسن وزن الأمور في يوم من الأيام. كنت تراها إما أصغر أو أكبر من حجمها الحقيقي. أما آن لك أن تحتكم إلى المنطق وترى الأشياء كما هي بعيداً عما تحب أو تكره؟ لقد التجأت الفتاة إلى منزلك هرباً من الذين اعتدوا عليها وستترك المنزل في وضح النهار حتى تطمئن إلى أن أحداً لم يعد يلاحقها.

استسلم لإغواء وخدر هذا اليقين، فلا أحب لديه من أن يلقي بجسده المنهك على السرير بعيداً عن الضجيج وحر الشمس. فكر بالوجبة التي سيعدها لنفسه. إن لديه خضاراً مختلفة ولا ينقصه إلا اللحم. سيشتري كيلو لحماً ثم يطبخ اللحم مع الكوسا والبندورة والبصل وسيرتاح بعد الطعام قليلاً، ثم يغسل ملابسه الداخلية.

ليس عليه أن يخجل من غسل ملابسه الداخلية، فليس بوسع زوجة ابنه أن تعثر عليها، وتهمس في أذن لطفي أن والده يوسخ ملابسه الداخلية مثل مراهق، إنه ليحصل على قدر كبير من المتعة وهو يقوم بخدمة نفسه.

أخذته الوقائع المقبلة، وغفل عن اتخاذ قرار فيما لو حدث العكس ووجد الفتاة ما تزال في المنزل. فطن لهذا الأمر حين أوقف سيارته أمام المنزل. بقي في السيارة يقلب الأمور على وجوهها المختلفة ولم يهتد إلى القرار المناسب. ترك المعضلة معلقة ودخل. لم يفاجأ كثيراً حين وجدها هناك. كان الاحتمال في الحقيقة كامناً داخل نفسه طيلة الوقت وهذا ما يفسر غمه. امتعض من نفسه حين أدرك إنما كان يعمل على خداع نفسه، وأن الحقيقة أصلب من الأحلام، فها هي في منزله بكيانها القذر البذيء، فماذا سيفعل لها الآن؟ كانت قد غيرت من ضجعتها،

رفعت جذعها وأسندته إلى الجدار كما لو كانت تعد نفسها لبقاء طويل. زاد امتعاضه ودنا منها. لم ترتعب ولم تأت بحركة احتجاج واحدة. حملقت فيه وتركته يقترب. اشتم رائحة برازها فتأفف والتفت إلى مصدر الرائحة.رأى برازها في الزاوية. حدق فيها وأشار إلى البراز. لم تبد أسفاً حيال فعلتها كأن الأمر لا يعنيها أو أنه خارج عن إرادتها. قال منفعلاً:

- اللعنة عليك أيتها المجنونة القذرة، ألا تجدين مكاناً آخر لقذارتك، اخرجي من منزلي في الحال.

أشار إليها كي تنهض. نهضت بتثاقل. أشار إلى البوابة المفتوحة وكرر الطلب إليها في الخروج. لم تذعن لطلبه. هبطت مرة ثانية على الأرض وكأنها لا تقوى على الوقوف. أمسك بطرف ثوبها وجرها بقوة نحو الباب. تمزق الثوب وانفصلت عنه المزقة التي يمسك بها بيده. وأصدرت هي اصواتاً حلقية متقطعة مزعجة. تركها ودخل إلى المنزل. عاد بعد قليل بمجرفة صغيرة، أزال بها برزاها وأخذه إلى الداخل. ألقى به في المرحاض ثم نزع ملابسه واغتسل. جفف جسده ولف المنشفة على وسطه وانتقل إلى الصالة.

لا بد أنه بعد خيبته وفشله في تنفيذ ما عزم عليه تساءل وهو في الحمام عن سر فعلته هذه. وكان لا بد له أن يدرك أنه عاش حياته كلها كارهاً للعنف.وحين جلس في الصالة تذكر تلك الحادثة التي طبعته على النفور من العنف الجسدي. كان وقتها تلميذاً في الصف السادس الابتدائي حين شاهد في الحيّ الشعبي الذي يسكنه رجلاً يمسك بقدمي صبي يعرفه ويجره على الأرض غير الممهدة ثم يتوقف ليركله بقدمه قيل له حين سأل رهط المتفرجين، أ الصبي سرق ذهب زوجة الرجل؟ وكان يعرف أن الصبي قد اعتاد على زيارة منزل الرجل بناء على طلب زوجته التي تسخره لخدمتها.

حقد على الصبي السارق وجافاه ولكنه علم بعد فترة وجيزة أنه لم يسرق ذهباً ولا خلافه، وإنما الذي سرق الذهب هو شقيق الزوجة. صحيح أن ساق الصبي قد شفيت، ولكنه هو لم يشف من الإحساس بالذنب، خاصة وأن عائلته انتقلت من الحيّ قبل أن يتسنى له الاعتذار عما بدر منه. وعقب ذلك بربع قرن عرف بموت الأستاذ عبد الفتاح تولستان الذي قضى نحبه بسبب التعذيب المتواصل لمدة أربع وعشرين ساعة. اعتبر نفسه منذئذ مناهضاً للعنف وقد تمكن خلال ثلاثين سنه من التدريس أن يفرض احترامه على غيره من المدرسين وعلى

الطلاب سواء بسواء دون أن يلجأ مرة واحدة إلى العنف.

رفع قدميه على المنضدة كما يفعل عادة، غير أنَّ نهياً داخلياً دفعه إلى إنزال قدميه وضم ركبتيه حرجاً من عري جسده. أخرج لفافة ولكنه لم يشعلها. ذهب إلى غرفته وارتدى منامته وعاد. كان وجودها في باحة المنزل على غير استضافة منه، ينقص من شعوره بأنه حر التصرف في منزله.

حسب أنها يمكن أن تزحف نحو الباب أو تنهض لتمسك بقضبان النافذة فتقتنص نظرة إليه. لأول مرة منذ هجر منزل لطفي يعاود الشعور بأنه مراقب بفضول يلجمه عن الحركة العفوية، ويلزمه بهامش ضيق من الحرية.

عدل عن الجلوس في الصالة ودخل إلى غرفة النوم وألقى بجسده على السرير.وضع كفيه أسفل رأسه وفكر بمنطق الحياة الغريب، ففي حين رفض فكرة ابنته عن ضرورة الزواج انطلاقاً من كونه اعتاد وحدته واستعذب خلوته وفضلها على منافع الزواج، تقتحم هذه المجنونة القذرة حصنه الآمن وتعيث فيه فساداً.

ضم يديه إلى صدره وحدق في سقف الغرفة. أمل أن يأتيه عون ما فيخرجه من محنته هذه. استعاد فكرة الالتجاء إلى الشرطة أو الاستعانة بالبقال، ولم يعد أمامه سوى لطفي، إنه ما زال شاباً صلباً قوي الشكيمة وأنانياً بطبعه، وسيتعامل – لا بد – مع هذه المعضلة بطريقة مختلفة. نظر إلى ساعته، وجد أن الوقت غير مناسب للذهاب إلى لطفي الآن. أغمض عينيه وحاول أن يفكر بشيء مختلف يعينه على النوم. تقلب في فراشه ثم نام ساعة أو أكثر وعندما أفاق كان قد قرر الاستعانة بلطفي.

قرصه الجوع، فقام إلى المطبخ وأعد طعاماً لنفسه، فتح علبة تونة وقسّم حبات بندورة قطعاً صغيرة، وقلى بيضة. وعندما وضع أطباقه على المائدة وشرع في تناول الطعام توقف عن الأكل. فتح علبة تونة ثانية، أخذها إليها مع قطعة خبز وحبة بندورة. اصطنع تكشيرة وقال لها:

–خذي، تسممي، ولكن لا تعتقدي أنني أقبل بوجودك، ستخرجين برضاك أو بالقوة إذا لزم الأمر.

تناولت الطعام منه بلهفة وأصدرت أصواتاً صغيرة متقطعة لم يفهم منها شيئاً. تركها ودخل ليتناول طعامه.

أكل باستمتاع وأنقلب مزاجه من الكدر إلى الاعتدال ثم الاغتباط الشفيف. صحيح أن

أسباب كدره ما زالت قائمة وأنها هناك بأسمالها القذرة ورائحتها الكريهة وعنادها الذي يثير السخط ويتحدى الأنفة، إلا أنه وجد نفسه رغم ذلك يهنأ بالطعام وانفراج نفسه، ألا يبعث هذا التحول على التساؤل؟ لم يغفل عن طرح مثل هذا السؤال على نفسه ولا عن السبب في أنه قد قدم الطعام لها في حين أن وجودها القذر يبعث القشعريرة في نفسه ويود لو يُكرهها على الخروج من منزله، قال لنفسه: لم لا؟ إنهم يقدمون المساعدة للكلب الجريح، واللص الذي يخونه قدمه فيسقط في فناء الدار، والأسير الذي يقع في يد الأعداء، ويقدمون الطعام وقليلاً من العزاء للرجل الذي ينتظر تنفيذ حكم الإعدام، ولكنه فكر أيضاً أن من يجهزون على الكلب الجريح، ويضيفون إلى اللقمة التي يتناولها المحكوم عليه جرعة ألم عوضاً عن العزاء، فإلى أي صنف ينتمي هو؟ فكر أنه نسيج خاص، جبل على الرأفة والعاطفة ونكران الذات. أدرك إذ ذاك أنه غير راض عن نفسه وأنه لم يتناقض مع نفسه حتى فيما يمسه ويؤذيه وإن رضاه هذا يحرره من أي إثم.

أنهى طعامه وغسل الأطباق وأشعل لفافة.دخنها وذهب إلى الصالة ليستطلع أمر الفتاة. رآها تدفع بجسدها باتجاه حنفية الماء، فكر أن إصابتها لا بد أن تكون بليغة بحيث لا تستطيع الوقوف على قدميها ولا بد أن هذا السبب في بقائها في منزله. لا بد أن البقال محق فيما قال. ستخف آلامها غدا وتذهب من تلقاء نفسها، فلا داعي لإزعاج لطفي في هذه القضية.

شاعت في نفسه طمأنينة لم يكن لها ما يبررها سوى خشية داخلية مبهمة من إشراك آخرين في مسألة لم تتأكد خطورتها بعد. وبخاصة لطفي الذي لم يرث من خصاله ما هو محبب إلى نفسه. سيسخر منه ويقول أعجزت عن ركلها؟ ركلة واحدة وتصبح خارج المنزل." ما العيب في عجز الرجل عن ركل فتاة ضعيفة" . لقد فعل الصواب، هكذا أكد لنفسه، فعل ما يتوجب على رجل فعله تجاه المعذبين الذين لا حيلة لهم فيما صاروا إليه، وإنها بعد أن تغادر المكان ستكون راضية عنه. فليعتبر وجودها عارضاً وليتابع حياته كأن شيئاً لم يكن.

لم تكن قد اقتربت من حنفية الماء حين ألقى نظرة أخرى إليها. أدرك حاجتها الماسة إلى الماء.

ذهب إلى المطبخ وأتى لها بكوب ماء ولم يستطع رؤية وجهها الدميم المدمى. ترك لها الكوب وأشاح عنها ثم ابتعد.

على المنضدة كتاب لم يقرأه بعد. وجد لديه متسعاً من الوقت قبل ذهابه إلى المقهى للعب الشطرنج.

أمسك بالكتاب ورفع قدميه على حافة المنضدة. لم يجد الرغبة الكافية في القراءة، هبط بقدميه ورفع جذعه. قرب رقعة الشطرنج منه وأشغل نفسه بتجارب على افتتاحيات مختلفة. جرب أكثر من افتتاحية معروفة، والرد عليها.ربما فعل هذا من قبل عشرات المرات ولكنه في كل مرة يقف إزاء أية افتتاحية فيها وكأنه يتعرف إليها للمرة الأولى. تابع دراسة الافتتاحيات والرد عليها إلى أن بلغت الساعة السادسة وحان موعد ذهابه إلى المقهى.خرج ومر بالفتاة دون أن ينظر إليها وقال بلهجة آمرة" يجب أن تخرجي من منزلي بأسرع وقت وإلا أذقتك عذاباً أشد". بعث الكلام في نفسه الضحك وبعد أن استرسل فيه قليلاً اغتم.

يعرف جميع رواد مقهى الهلال في شارع الأمير محمد زاوية الشطرنج فهي بقعة هادئة في مكان ذي ضجة، فلا يقترب منها سوى خمسة أو ستة أشخاص جعلوا من المقهى نادياً لمزاولة هوايتهم المفضلة ولا أحد يعرف كيف تجمّع هؤلاء إلى بعض، فهم متفاوتون في السن وقد يكون الأستاذ حسان أكبرهم ثم أنهم لا يمتهنون نفس المهن،فمنهم المدرس، والموظف، ومن يمتهن السياسة وطبيب الأسنان. يقال إن الأستاذ حسان أول من ارتاد المقهى وكان يجلس وحيداً، يطلب رقعة شطرنج ويتأملها وحده، لا يلتفت إلى بقية الجلوس الذين يتحلقون حول الموائد ويلهون بورق اللعب والنرد ثم إنه لفت الانتباه، فجالسه مدرس آخر يتقن لعبة الشطرنج وكان قد دخل المقهى مصادفة، ثم انضم الآخرون إليهم على فترات. صاروا يجتمعون يومياً كل مساء، ولا يتناولون من الحديث إلا أقله. قد يتخلف أحدهم بسبب قاهر أو يأتي غيره بضيف جديد ممن تستهويهم لعبة الشطرنج. لم يكن يلعب أكثر من اثنين في آن واحد، بينما يجلس الآخرين بهدوء يراقبون اللعب في حياد تام. كانوا يتناوبون الفوز والخسارة ولهذا تبقى المنافسة مستمرة بينهم.

كان الجميع بمن فيهم صاحب المقهى والنوادل، ينظرون إليهم على أنهم صنف مختلف من الناس وربما إلى التأكيد على أن حياتهم رضية خالية من أي تكدير.

وصل متأخراً، كان هدوء عميق يسود الركن رغم أن الحلقة اتسعت وزاد أفرادها. ألقى التحية وأخذ مقعداً وجلس. انصرف مباشرة إلى مراقبة اللعب، نهض الخاسر وقال:

- تفضل أستاذ حسان:

التفت إلى البقية يستأذنهم.لفت انتباهه شاب في مقتبل العمر بدا متحفزاً للعب. أخذ مكان الخاسر معتقداً انه لن يجد صعوبة في الفوز، غير أن ذهنه اعتم فجأة ولم يحسن التدبير، خسر بيدقاً دون مبرر ثم تتالت خسارته، مما حدا بالآخرين للتعليق، الأمر الذي كدّر مزاجه، ودفعه لأن يطلب جولة جديدة،أجيب طلبه غير المألوف. أبدى تقدماً ملموساً في الجولة الثانية ثم وجد وزيره بعد عدة نقلات في وضع صعب. سلم بالهزيمة وانتحى جانباً مثلوم الوجدان. انصرف عن اللعب مأخوذاً بالخسارة التي لحقت به وكاد أن يغادر لولا أن السياسي لكزه من خاصرته وأشار إلى ما يجري على رقعة الشطرنج. عدّل من جلسته وراقب اللعب بدون اهتمام ثم أخذته الدهشة من حركات الشاب الواثقة الجريئة. هرش رأسه أكثر من مرة وهو يراقب وينتظر بلهفة الخطوة التالية. لم ينبس ببنت شفه وهو يراقب بانبهار النقلات الفذة لشاب يافع يعرف كيف يقدم إبداعه. وحين قال الشاب "كش ملك " ابتسم وانطلق بكليته لتأمل الشاب الذي انشغل بترتيب البيادق وانتظار منافس آخر.رأى ألقا بعينيه وعزما أنبأت عنه تقطيبة جبينه. سأل السياسي عنه.أجابه،إن الشاب طالب جامعي ولكن دراسته انقطعت بسبب اعتقاله مدة عامين وهو لاعب متمرس وجرئ.

مط الأستاذ حسان شفتيه وعلق مندهشاً:

- سنتان؟

ضحك السياسي وكان نادراً ما يقابل آراء الناس بالضحك. ولكن قضاء سنتين في السجن لا يدعو إلى الدهشة التي أظهرها الأستاذ حسان، فلقد قضى هو السياسي ثماني سنوات في السجن وخسر بسبب طول المدة الفتاة التي أحب ولم يتزوج غيرها. قال:

- بالتمام.

نظر اللاعبون بعضهم إلى بعض لاختيار من سيخلف الخاسر في مقابلة الشاب ثم اتجهوا جميعاً بأبصارهم إلى الأستاذ حسان. أعتذر عن اللعب، ليس بسبب خسارتيه بل لأنه فتن بالشاب وأراد أن يشاهد المزيد من إبداعه.

نهض المدرس الأخر وكان كالأستاذ حسان عفيف اللسان، جم الأدب، ويمكن - إذا أهملنا فارق السن بين الاثنين - أن نعدد أكثر من عشر خصال حميدة مشتركة بينهما. كان في حوالي الرابعة والأربعين من العمر ولكنه يسلك سلوك من عمّر اكثر من ذلك وهو الذي جاء بالسياسي إلى المقهى لصلة قرابة تجمعهما.

وكان ايضاً لاعباً صعب المراس لا يستهان بقدراته، تناوب الفوز والخسارة مع الأستاذ حسان أكثر من مرة.

أخد المدرس جانب الحيطة منذ بداية الجولة وكشف دفاعاً بينما هيأ الشاب الطريق لقطعه كي تنتشر حين يطلبها ثم انقض على تحصينات المدرّس فأفسدها.
لم يحصر الأستاذ حسان اهتمامه باللعب بل تعداه إلى الشاب نفسه، ملامحه، ياقة قميصه، شعره الذي لم يبذل عناية في ترتيبه، تناثر بجمال أخاذ على جبين عريض، معلناً نباهته.
انتهت الجولة بفوز الشاب كما توقع، نهض وصافحه وغادر المقهى.

قاد سيارته نشوان حتى بلوغ الخدر. حاول أن يجلو سر نشوته فاستعصى الأمر عليه. ثمة ما هو أبعد من النصر، أبعد من النقلات الجريئة الذكية. شيء حبيس خبئ لا يعلن عن نفسه بسهولة. ظل مأخوذاً بنشوته إلى أن تفتح شيء بداخله فجأة ووجد نفسه يصهل كمهر جامح فر من أسره. نقر على مقود السيارة وشهق شهقة استلت معها كل قهر مترسب في أعماقه. قال لنفسه "يا لروعة الشباب"، وتعجب كيف قالها دون حسد أو ضغينة ودون رثاء للعمر الذي انقضى أجمله ولم يؤت أُكله.

كانت هناك حين عبر بوابة المنزل، التفت صوبها لحظة أن دخل. كانت هناك في ذات الزاوية وبدأت الهيئة الزرية، مكومة على نفسها كما في الصباح. انقبض داخله. وكمن أفاق عنوة من حلم جميل، ليكتشف أن البؤس لم يبارحه، فانهدم مرة واحدة وأحسَّ بالهرم والاستباحة. نكس رأسه وخطا نحو الداخل. لم يشعل الضوء في الصالة، لم يشأ. ألقى بنفسه على المقعد الطويل وأغمض عينيه. إن هذا الوقت هو الأصعب - عادة - بين أوقات النهار كلها، حيث يغدو وحيداً ليجابه كل نشاطات روحه على تباينها وحيث تجتمع هفواته وإخفاقاته على نحو مضخم، ثم وبفعل قسري يلزم نفسه بعمل من أعماله المنزلية فيعتاد وحدته تدريجياً ويأنس إلى أشيائه، فيجلس بعد الانتهاء من عمله ليقرأ أو ليشاهد التلفاز أو ليتأمل بيادق الشطرنج.

فماذا يفعل الليلة وقد أضيف إلى همومه هم جديد؟ وكيف يتشاطر المكان معها؟إذا كان قد رفض من قبل دعوة ابنته إلى مشاركة امرأة عاقلة مدبرة حياته، فكيف يتقبل وجود هذه المخلوقة المشوهة المقرفة.

ستعود من طوع نفسها إن عاجلاً أو آجلاً إلى ما كانت عليه، تلاحق الأولاد ويلاحقونها، تفزع منهم فيضربونها. تهجم عليهم فيتصدى لها الكبار. فلماذا يمهلها يوماً آخر، لن يغير في أمرها شيئاً، وهو ليس بالمسؤول عن مأساتها، والله وحده الذي يثيب ويحاسب. أفاض عليه ذكر الله بعضاً من الطمأنينة فنهض وأشعل الضوء.

فتح التلفاز وشاهد جزءاً من عمل مصري لم يرضه، أعرض عن التلفاز وبسط رقعة الشطرنج ورتب البيادق.

وجد أن ذهنه صاف لدرجة تمكنه من معرفة مكامن الخطأ في اللعبة التي خسرها. أعاد ترتيب البيادق وفق مواقعها في اللعب. توقف عن النقلة التي دفع بها وزيره إلى الشرك. أستغرب كيف ارتكب خطأ كهذا. انتقل بعد ذلك إلى اللعبة التي خسر فيها المدرّس أمام الشاب. وجد أن ما فعله المدرِّس كان صائباً. ولو أنه لم يكترث بفعل خصمه وتابع خطوته لما انهار دفاعه ولا انقلب من الدفاع إلى الهجوم، قال لنفسه:

- يمكن للجرأة أن تبهر مرة ولكنها بدون الحكمة عديمة الجدوى وكمن عثر على فكرة ذكية لم تخطر ببال أحد من قبل. انفرجت أساريره واعتز بحكمته التي لم تأت من فراغ. رغب في النوم بعد نهار مضن، فأخذ الكتاب معه، قرأ صفحات قليلة ونام.

الأربعاء

طلع على الأستاذ حسان صباح مختلف، فلسنوات مضت منذ أن شفي من الآلام التي سببها له فراق زوجته، تشابهت صباحاته في يسرها وفي خفوت إيقاها في اكتنافها أخيلة قوس قزحّية ممتعة. كان يفتح عينيه ببطء محتفظاً بنصف إغماضة، ثم يأخذ نفسه من النوم شيئاً فشيئاً إلى أن يكتمل صحوة، فيفتح النافذة ويتأمل دكنة الصباح الشفيف، ثم يغادر السرير لإعداد القهوة واحتسائها، ويصغي آنذاك بانسجام شديد إلى ما يبثه المذياع من أغان وموسيقى ثم يدخل إلى الحمام، وبعد وجبة الإفطار ينظف الأواني التي اتسخت، ثم يجلس تحت العريشة أو في الصالة، يرفع قدميه على حافة المنضدة ويراقب اكتمال الصباح والوعد الذي يولد من انسجام الأشياء، مفكراً بأن النهار كله سيمضي على هذا النحو الطيب والمستساغ.

غير أن صباحه هذا اختلف كثيراً، فلم يجد لديه الرغبة في تأمل دكنة الفجر والاسترسال العذب مع خيالاته، فكر بها أول ما أفاق، إنها نشاز كريه يعيق انسياب مشاعره وتدفقها، ويحول بينه وبين اكتمال خلوته وبلوغها ذراها. إنها ندبة سوداء في نهار ساطع، تسفيه للصورة الإنسانية وتشويه لها، تمرد على قدرة الخالق على تحقيق الانسجام بين بنية الإنسان الجسدية وعقله.

إن همًا كهذا كفيل بإفساد نهاره بأكمله. فماذا يفعل بها؟ أينهضها من نومها ويدفع بها إلى الخارج أم يتركها بقذارتها لتعيث فساداً بحياته؟

لم يرغب في فنجان القهوة، كذلك ولا يتأمل قطوف العنب، ولا بأي شيء مما كان يمتعه. خرج إليها. وجدها قد استيقظت وجلست القرفصاء. سره التحسن الذي طرأ عليها. سيتمكن من إخراجها دون عنف. ولكنه لم يتجه إليها. لم يعد متعجلاً. ابتعد قبل أن تراه وذهب إلى المطبخ، وضع القهوة على النار ووقف يراقب غليانها ويستمع لبقبقتها. أخذ القهوة إلى العريشة وجلس مطمئناً إلى أن العثرة في طريقها إلى الزوال. أنهى قهوته ونهض إلى الحمام. اغتسل وجفف جسده وخرج. اقترب من نافذة الصالة وتلصص عليها. كانت تهرش رأسها ثم تدخل يدها من فتحة ثوبها عند الصدر وتهرش جسدها أيضاً.

تقزز من المنظر، فأبتعد وقرر أن يطردها في الحال. انتبه إلى انه لا يقدر على استعمال الشدة وهو يأتزر بالمنشفة. ذهب إلى غرفته وارتدى قميصاً وبنطالاً وخرج إليها. رفعت رأسها

ونظرت إليه بأنفة كما لو أن صلة ما تربطها به. قال غاضباً:

- اخرجي الآن.

وأشار إلى البوابة.

نكست رأسها ولم تفعل ما طلب منها.

- لا تختبئي خلف جنونك. اخرجي فوراً.

أمسك بزندها وجرها بقوة. أطلقت أصواتاً حلقية كما الحشرجة، وضربت الأرض بقدميها. أفلت يدها من يده وابتعد عنها. دخل إلى الحمام، أخذ وقتاً طويلاً في تنظيف يده من القذارة التي علقت بها.

عاد إليها.

قال:

- إن لم تخرجي برضاك فسوف أقسو عليك أكثر مما فعل الآخرون.

دخل وصفق الباب خلفه بقوة. أكمل ارتداء ملابسه وحمل حقيبته وخرج إلى الباحة. أغلق الباب بالمفتاح وقال لها:

- أسمعت ما قلت، يجب أن تخرجي من منزلي. إذا عدت ووجدتك في مكانك فسوف ألقي بك من فوق السور. وذهب إلى المدرسة عازفاً عن الطعام وغير مكثرت بأمر إطعامها أيضاً.

حق له أن يشعر بخيبة مريرة بعد هذا العراك الخاسر. أيصدق أنه أوقع الرعب في نفسها وأنها ستخرج بعد هذا التهديد والوعيد؟ بماذا عاد عليه غضبه، وأي نتيجة حصل عليها؟ كيف انتهى الأمر به فابتعد عنها مخذولاً مدحوراً، تاركاً إياها في النهاية حيث هي، معتمداً على تغليظ صوته في إرعابها؟

ما زال كما كان منذ بدء شبابه، طريّ الإرادة، تغلب عاطفته عليه، فيحجم عن اتخاذ الموقف الصعب الذي من شأنه تجنيبه الآثار السلبية لأية علاقة لا تنصفه ولا تضع مصلحته في المقام الأول. لقد انتهكت حياته على مر سنوات عمره وفقد القدرة على توجيه دفة حياته، لأنه ببساطة لم يكن صاحب القرار. أما آن له الآن وبعد أن مضى العمر إلا ذبالته أن يتعظ ويكف عن أخطائه؟ لم لا يغيب عن عاطفته لمرة واحدة ويمضي في سلوكه الفظ إذا لم يكن منه مفر؟ وأية فظاظة هذه حين يرد العدوان عن نفسه، أيعقل أن يفسح لها المجال لتتخذ من منزله وكراً لها؟

جاوز البقال وهو منشغل بحواره مع نفسه وبهمه الذي تشعب وكاد أن يتصل بعشرات حياته كلها. توقف على يمين الطريق حين تبيّن له أنه ابتعد عن الحّي. فكر أن يعود إلى البقال ويتعلل بشراء علبة تبغ ويخبره في معرض الحديث أنها تأبى الخروج من المنزل رغم استعماله الشدة، ثم تبيّن سذاجة الفكرة وتساءل لائماً نفسه بشدة، أهذا ما انتهى إليه حواره؟ ألا يجدر به أن يعود إلى المنزل - فما زال لديه وقت - ويأخذها بالعنف إلى خارجه؟

تابع السير بانتظار أن يستقر على رأي، ولاحظ أنه في وسط عمان حيث العودة ستكلفه من الوقت أكثر مما يحتمل، فأعلن لنفسه أنه سيقوم بهذا العمل وبكل حزم حين يعود من المدرسة.

وصل إلى المدرسة أبكر من المعتاد. خلا المكتب له فأغلق الباب وانفرد بنفسه. ها هي مملكته التي لا يسمح لأحد أو لشيء أن يضعفه فيها. إنه يديرها أفضل مما أدار حياته، فليحافظ عليها بمعزل عما يشوب حياته من قلق. أشعل لفافة وأطفأها، لم يرق له طعمها إذ لم يعتد التدخين قبل تناول قهوته وطعام الإفطار.

خرج لتفقد باحة المدرسة واصطحب معه الآذن، التقط بنفسه من الأرض بعض ما خلفه الطلاب من اليوم السابق وتابع الآذن التقاط البقية. تفقد بعد ذلك المرافق الصحية، تأفف من الروائح واعترض على قلة العناية، طلب من الآذن العناية بتنظيف المرافق الصحية وغسلها بالمطهرات،انتقل بعد ذلك إلى غرف الدراسة وتفقد مقاعد الطلاب.

توافد المدرسون والطلاب فانتقل إلى مكتبه واتخذ هيئة المدير الذي لا يشغله عن واجبات المدرسة أمر آخر.انتظمت الدراسة فانهمك بالعمل وتشاغل عنها وعن جوعه، الوقت كله.

فض البريد الرسمي وقرأه. جمع المدرسين وبحث معهم تعليمات الوزارة وسأل كل مدرس عن نشاطات صفه وأخذ ملاحظات باللوازم الناقصة وسلم لبعض المدرسين ما بحوزته. قضى ما تبقى من الوقت بين الاتصال بالمديرية أو استقبال مدرس لديه ما يبحثه أو طالب يلتمس الإذن بمراجعة الطبيب، اتصلت سعاد أيضاً لتطمئن عليه ولتجدد الدعوة إلى طعام الغذاء ولكنه راوغها رغم حاجته لوجبة شهية ثم اعتذر لها مجدداً.

استقل سيارته بعد انتهاء الدوام وعاد إلى المنزل مدفوعاً بغضب تصعب السيطرة عليه.

لم ترضه هزيمة الصباح وما ساقت إليه من آلام طواها النسيان ولا اضطرابه في المدرسة ولا اعتذاره مرتين عن تلبية دعوة ابنته.

أوقف سيارته قبالة الباب. رأى دفته مفتوحة على وسعها. قال لنفسه بفرح طفولي"لقد خرجت – لقد خرجت". غادر السيارة على عجل. تأكد ظنه حين وطأ عتبة الباب ولم يجدها في مكانها، تنهد براحة وعبر. غير أنها لم تبرح منزله. رآها تسير بمحاذاة الواجهة المقابلة من السور معافاة مما أقعدها. استشاط غضبه. إنها تستخف به وتتحايل عليه وتتشبث بمنزله على كره منه. اندفع نحوها وقال مهتاجاً:

– اخرجي، اخرجي.

هبطت إلى الأرض بدلاً من الاستجابة لطلبه. تقدم نحوها. أمسك بيدها وجرها نحو الباب. قاومت بشدة وأطلقت أصواتاً متأتئة: وصل بها إلى الباب ولكنه لم يفلح في إخراجها منه. قاومت بيديها وقدميها وبكل ما تستطيع من قوة. تركها ليستريح قليلاً وليستعد لجولة أخرى.رآها تحبو مبتعدة إلى الداخل. عاد إليها مرة أخرى، أمسك بيديها فأنشبت أسنانها بيده وضغطت عليها. صرخ من الألم وأفلت يدها. ضربها على وجهها مرتين وتركها وفتح باب المنزل ودخل.

كانت عضتها قد تركت أثراً ظاهراً في يده رغم أنها لم تخدش الجلد. نظر محنقاً إلى ساعده ثم جلس دون أن يتخذ وضعاً مريحاً، متحفزاً للوثوب والقيام بغارة ثالثة لا يرتد بعدها خاسراً، فقد بلغ السيل الزبى. وفيما كان يشحذ همته، ألقى نظرة عابرة إلى المائدة، وصادف أن رأى مقصاً كان قد أتى به في وقت سابق ليقتطع قصاصات من الصحف. امتدت يده إلى المقص دون قصد وأشهره في الهواء. أمتلكته إذ ذاك روح شيطانية ورأى في المقص وسيلته لإخراجها من المنزل ثم أحس برجفة شديدة وخوف لم يعرف مثله من قبل، فليس من السهل على رجل اعتاد على كراهية العنف ورفضه أن يستعمل أداة قاتلة قد تفضي إلى قتل إنسان أو جرحه على أقل تقدير.ترك المقص وأبعده عن متناول يده، ولكنه عاد وألقى نظرة إلى المقص، فقد يساعده في إخافتها بمجرد الخروج به دون أن يقترب منها. ومع ذلك ومع أن فعلاً كهذا سهل وممكن التطبيق لم يخرج إليها، أشعل لفافة رغم أنه لم يتذوق طعاماً أو قهوة حتى الان ودخنها بنهم ثم أشعل أخرى وفيما راح يمتص دخانها، أمسك بالمقص وأطفأ اللفافة وخرج إليها. وقف على مبعدة منها وانتظر أن تراه وهو يشهر المقص. رأته ولم تبال. اقترب منها بثبات دون أن يكوّن أدنى فكرة عما سيفعل فيما إذا تمترست في مكانها وأبت الرحيل.

رأته يقترب فلم تنهض. كورث نفسها وحمت رأسها بذراعيها. أمسك بشعرها بيده الطليقة ورفعه إلى أعلى. أخذ خصلة من شعرها بالمقص. لم تبد مقاومة. استرسل وتابع قص شعرها حتى بقي منه بطول عدة أصابع فقط. بدت إذ ذاك كطائر نتف ريشه. رفع رأسها ونظر إليها بإشفاق شديد. اتضحت له ملامح وجهها الطفولي المعذب. رأى دمعاً يترقرق على وجنتيها القذرتين ويصل إلى شفتها العليا. لاحظ أن شفتها العليا منقسمة إلى فلقتين اثنتين. وأنفها قصير وأفطس، وعنقها هزيل بحيث يمكن قصمه بسهولة وفصل رأسها عن جسدها.

إنها لا تبدو تلك المتوحشة التي تتأبى على الامتثال له وتتعصّى على المعالجة. شاهد جراح رأسها. واحداً كبيراً بقدر ثلاثة سنتيمترات وعدة جروح صغيرة. أمسك بها من ذراعها ودفعها نحو صنبور الماء وفتح الصنبور. دعك شعرها دعكاً خفيفاً ونظفه من الدم. كانت جراحها سطحية وقد دُملت الآن. رفع جذعه وأنهضها معه.ذهب إلى الداخل وأتى بوعاء تنكي وضع شعرها فيه وأشعل النار. أنحنى ليراقب النار ويشعلها كلما أنطفأت إلى أن أتت على شعرها. التفت إليها. كانت قد رفعت جذعها وأسندته إلى الجدار. تبادل الاثنان النظرات وهما يلهثان، كأنهما خصمان انتهيا للتو من معركة عادلة أصاب فيها كل منهما خصمه. ابتسم من سهولة المجابهة التي ظنها صعبة ومهولة. ابتسمت بدورها وبدت ممتنة لأنه أنهى الصراع بهذا الشكل. اقترب منها. كانت أنحل وأقصر من أن تكون نداً له. ربت على كتفها وابتعد ثم اتجه إلى باب الباحة وخرج.

استقل سيارته بلا هدف محدد. رغب فقط في الابتعاد عن المكان واستعادة ما جرى والتفكير به. لم يعد يحس بخوف أو ضغينة أو قلق. تأكد له أن ارتعابه كان وهماً ليس إلا.

"هذه الطفلة لا تخيف أحداً. إنها بحاجة إلى رعاية فحسب. لماذا أثيرت كل هذه الضجة حولها؟لماذا يضربونها؟ إنها مجرد طفلة ضعيفة. مجنونة؟ ما ذنبها بذلك؟ أليس لها أسرة، أب أو أم، أو كليهما معاً؟ ألا يعنيهما أمرها، ألا يكنان لها قليلاً من العطف؟"

مر بصيدلية فانجذب إلى واجهتها ولمع خاطر في ذهنه. توقف عندها. شرح للصيدلاني مخاوفه من انتشار القمل في منزله. احضر له مبيداً للقمل وأرشده لطريقه استعماله. أخذ الدواء ومع ذلك لم يعد مباشرة للمنزل.

جال في شوارع الحيّ. توقف عند البقال لشراء معلبات ولكن هاتفاً داخلياً أوعز إليه بالابتعاد عن البقال ومتابعة الطريق. غير أن البقال رآه وحياه، فلم يجد مناصاً من التوقف والتحدث

إليه. قال:

- مرحبا

قال البقال:

- اهلاً بالجار العزيز، أمر؟

قال:

- الأمر للّه وحده. اعطني علبتي لحم بقر وعلبتي تونة من فضلك.

ناوله البقال ما طلب وسأله:

- هل غادرت المجنونة منزلك؟

كان يخشى أن يواجهه بهذا السؤال ولعل هذه الخشية هي التي دفعته لمحاولة الابتعاد عن البقال، تحيّر فيما يقول. لاحظ البقال حيرته. قال:

-أما زالت مكانها؟

لم يعلق، تلهى بإخراج النقود. قال البقال متخابثاً وهو يمد يده لاستلام النقود:

- ربما أعجبها منزلك. فلا أحد يزعجها هناك.

قال الأستاذ حسان:

- هذا ما أخشاه.

قال البقال:

- احضر لها الأولاد إذا لم تخرج. ستهرب منهم ولن ترى وجهها ثانية.

قال وهو يبتعد:

- سأعمل حسب رأيك.

عاد إلى المنزل. رآها تسير على أصابع قدميها. اتجه صوب صنبور الماء وأشار إليها كي تقترب. قال:

- هنا، تعالي هنا.

استجابت لطلبه. فتح صنبور الماء وقال:

- احن رأسك.

لم تفعل. اندهش من تمنعها. قال بلهجة آمرة:

- قلت احن رأسك.

وحرك يده من أعلى إلى أسف باتجاه الماء. أدركت ما يطلب منها. ثنت ركبتيها وانحنت.

سكب الدواء على رأسها ودعك شعرها بأصابع يده محذراً ألا يمس جروحها. صار للدواء رغوة. أستعمل أصابع يديه الاثنتين في دعك شعرها ثم غسله ونظفه من المبيد ثم سكب المزيد وتابع الدعك والتنظيف. دعك وجهها وعنقها كذلك،ثم سكب المزيد من الدواء للمرة الأخيرة على رأسها وجففه ثم حصن وجهها براحتيه ورفعه ليراه. سره أن يلحظ أن عينيها صفتا قليلاً وخفت حمرتهما وأن وجهها صار أقل تنفيراً مما كان عليه، أمسك بالمقص وأخذ يشذب شعرها مترفقاً به باذلاً عناية كافية لكي تتسق أطواله. أدركت أن شيئاً اختلف فيها، وأن رأسها الصغير لم يعد ينوء تحت ثقل شعرها الكث المتسخ، قبلت ساعده، ارتعش وأبعد يده. نظرت إليه بتحبب فأبعد وجهه عنها وقال:

– أرأيت ما أحسن النظافة. كان يمكن أن تبقي في منزلك وتغتسلي فلا يكون لك هذا المنظر الذي حولك من طفلة إلى غولة.

صمت قليلاً ثم سأل:

– لك بيت، أليس كذلك؟ أين هو؟

لم تجب على سؤاله. امتقع وجهه فلم يتوقع منها أن تتحصن بصمتها بعدما أظهر لها كل هذا العطف. التفت إليها بعدما أظهر لها كل هذا العطف. التفت إليها وسأل بحدة:

– أأنت خرساء؟ لماذا لم تجيبي؟

تأتأت وحركت يديها بإشارات لم يفهم منها شيئاً، فطن إلى أنها لا تحسن الكلام. قال:

– أنت خرساء إذن؟

أخذها إلى الداخل واتجه بها إلى الحمام. نزع ثوبها الفضفاض المتسخ. لم تكن ترتدي أية قطعة داخلية تحته. رأى جسدها ناحلاً هزيلاً، ولولا بروز نهديها الصغيرين لظهرت تفاصيل قفصها الصدري. لبثت في مكانها غير آبهة بعريها في حضرة رجل، تنتظر خطوته التالية. وضع الثوب في (سطل) وسكب قليلاً من الكاز على الثوب ثم أخرج السطل وأشعل بالثوب وعاد.أدخلها حوض الاستحمام. فتح صنبور الماء وزجاجة مبيد القمل.تذكر شيئا، تلفت وتناول ماكنة الحلاقة، رغى صابوناً وأزال الشعر النابت. ثم سكب قليلاً من مبيد القمل على راحة يده وشرع في ملامسة جسدها وتنظيفه. مرة بمبيد القمل ومرة بالصابون. انهمك في عمله وفتن بالجسد الغض كلما تقدم في النظافة. دفعها لكي تستدير. وقف يتأملها بإفتتان كمن يتأمل نحتاً أبدع في صنعه. دفعها لكي تستدير. تأملها من الامام ومن الخلف. من استدارة كتفها

حتى اخمصها. انتبه على استغراقه في تأمل جسدها فاضطرب. أبعد نظره عنها ثم أمسك بأول ستر رآه وهو المنشفة. لفها حول وسطها وأخرجها من الحمام. ذهب إلى الصالة فتبعته. جلس على مقعد وجلست على الأرض قريباً منه. أشار اليها كي تبقى وعاد إلى الحمام. جاء دوره في الاغتسال. نزع ملابسه ووجد نفسه يتأمل عريه هو الآخر. استعمل ايضاً مبيد القمل واغتسل ودعك جسده بماء الكولونيا ثم جفف جسده وارتدى منامته وعاد إلى الصالة.

كانت المنشفة قد سقطت عنها ورأى جسدها منتعشاً بالنظافة طازجاً. وكأنما اكتشف للتو عريها فأشاح ببصره ثم تراجع وأحضر لها منامة قديمة.لم تأخذ المنامة ولم تدرك أنه يطلب منها أن ترتديها. ظلت على جلستها ذاهلة عما يدور في رأسه، تحملق فيه وهو يغض من بصره أو يشيح عنها. نهض فجأة وطلب إليها بإشارة، الوقوف. وقفت. ألبسها المنامة وتركها تجلس من جديد.

جلس وصار بإمكانه مواجهتها دونما حذر ودون هم. أكان سيصدق لو أن شخصاً آخر وصف له ما حدث، أن هذه التي تجلس قربه وادعة أليفة هي ذات الكومة القذرة المنتنة التي يبعث منظرها القشعريرة في النفس. شتان ما بين الصورتين. من يقبل أن يحكم على نفسه بالجهل ويزعم أن هذه الفتاة المطيعة مجنونة. رثي لحالها، ولم يدر بخلده أن خروجها من المنزل أو بقاءها فيه بعض الوقت سيكون إحدى المعضلات التي سيتعين عليه مجابهتها. قال مخاطباً إياها رغم اقتناعه بأنها لا تسمعه: أيتها المسكينة ولكنك ستخرجين. لا أستطيع التكهن بما سيحدث لك. كانت تتأمله بشغف كبير راضية عن كل ما فعله لأجلها أو ما قد يفعل.

قال:

- لا بد انك جائعة. فلنحضر معاً طعاماً لكلينا.

نهض وأشار إليها كي تنهض وتلحق به. نهضت ووجدت صعوبة في الحركة، فقد كان بنطال منامته واسعاً وطويلاً بحيث أنه سقط فور وقوفها وتعثرت به. تخلصت من البنطال ولحقت به. ابتسم للمشهد. أجلسها على مقعد في المطبخ، وفيما كان يحضر الطعام تحدث بصوت مسموع موجهاً الكلام إليها. إن للصوت المسموع سحراً لا تغني عنه الأفكار وكان لا بد أن يتدفق صوته أخيراً ناقلاً كل ما يفكر ويشعر به.

لقد آلمه من قبل أن يكتشف أن صوته يشق الطريق إلى الخارج رغماً عنه وأنه لم يكن هناك

من يسمعه سواه.

قال:

– ربما تعتقدين أنني لا أجيد الطبخ؟ سترين الآن كيف أنني أستغل أبسط المواد لتحضير طعام شهي. إن الضرورة تفعل المعجزات. لا وقت الآن لوجبة دسمة فأنا وانت جائعان. ولكنني أعدك بوجبة دسمة.إنك تحتاجين إلى الطعام أيتها الصغيرة لتستردي عافيتك.ماذا كنت تأكلين في تشردك؟ أين كنت تجدين الطعام؟ إن حياتك عسيرة – لا بد – لا تختلف عن حياة الكلاب الضالة.

كان قد أفرغ علبة اللحمة من محتوياتها أثناء حديثه وقطع حبتي بصل إلى قطع صغيرة. كما قطع حبات بندورة. أضاف إلى اللحمة البصل وبعض قطع البندورة ووضعها في إناء على النار. ثم فتح علبة التونة وأفرغها في صحن وأضاف إليها قطع البصل وعصر عليها ليمون، ثم خلط ثلاث بيضات ووضع الخليط في مقلاة ووضع المقلاة على النار.

وبينما كان يتحدث ويحضر الطعام في آن واحد، راحت تراقبه متنقلة من حركة شفتيه إلى ما يفعل بيديه. قال:

– هذا كل ما عندي الآن. ربما أرغب فيما بعد أن أفضي إليك ما بنفسي. أما الآن فإلى الطعام.

أنزل الإناء والمقلاة عن النار وسكب محتوياتهما في صحنين وكان قد حضر السلطة والتونة وسخن الخبز. جلس قبالتها وأشار اليها كي تأكل. أكل الاثنان بنهم شديد وأتيا على ما في الصحون. نهض ليغسل ألإطباق فنهضت ووقفت قربه. غسل طبقاً وطلب إليها أن تحذو حذوه. غسلت الطبق فلم يرض عن غسلها له. أخذه وغسله مرة ثانية. جفف الأطباق وألقى بالقمامة في السلة ثم اتجه إلى الصالة. لحقت به إلى الصالة. أشعل لفافة ودخنها. راقبته وهو يمتص الدخان وينفثه.

لقد درج على الاستلقاء بعد وجبة الغداء وأخذ غفوة قصيرة. فماذا يفعل الآن وهي تلاحقه من مكان إلى مكان وتبحلق به؟ نهض قاصداً غرفة النوم. أشار إليها أن تبقى حيث هي حين خطت لتتبعه. خرج وأغلق الباب خلفه.

سأل نفسه حين استلقى على السرير: وماذا الآن؟. بحلق في السقف ولم يجد لديه جواباً.

عاد وسأل وماذا الآن؟. ماذا فعلت وكيف أتصرف؟ هل أقول لها آويتك حين كنت تتوجعين، غسلتك وأطعمتك، فأنصرفي عني بسلام؟ هل ستقبّل يدي مرة أخرى وتقول لي أشكرك على ما فعلته لي ثم تودعني بكياسة وتنصرف، أم سيطيب لها المقام، فتبقى لترمقني بهاتين العينين الفضوليتين وتواجهني بهذا الوجه القبيح؟. كيف سأحافظ على هدوئي وكيف سأمارس حريتي وطقوسي الخاصة بوجودها الشاذ؟. لقد انتظمت حياتي إلى الآن بشكل سائغ هنيء ووفق اختياراتي أنا لا وفق اختيارات الآخرين. أغضبت لطفي وأنكرت رجاء سعاد لأصون وحدتي وحريتي. فماذا أفعل الآن وأيَّ سلوك أختار؟. إذا كنت أرفض فكرة الزواج من امرأة عاقلة حسنة التدبير فكيف أقبل بوجود تلك الفتاة العاجزة المشوهة؟. على من سأضع اللوم الآن إذا ما تخلخلت أيامي وتقطع انسيابها وفقدت الهدوء الذي نعمت به؟

استعصى النوم عليه. ظل يطرح الأسئلة على نفسه فيزداد تيهاً وغيظاً وكان أكثر ما أغاظه أنه رفض تلبية دعوة سعاد لتناول طعام الغذاء زاعماً أنه سيعود إلى المنزل ويطرد الفتاة من منزله إذا لم تكن قد غادرت بعد. فماذا فعل؟ لقد استضافها وزين لها البقاء.

نهض وارتدى ملابسه وقرر أن يخرج من المنزل في الحال. لم تكن الساعة قد تجاوزت الثالثة إلا بدقائق، والحر شديد فأين يذهب الآن وإلى أي مكان يلتجئ؟ فكر بسعاد، سيكون زوجها قد أفاق من إغفاءة الظهيرة وجلس ليحتسي قهوته قبل الذهاب إلى عيادته، فقرر أن يزورهما ويشاركهما القهوة. أهذا كل شيء؟ سأل نفسه وهو يتجه نحو منزلهما. لم يكن متأكداً.

كانت سعاد تحضر القهوة فعلاً. انشرحت حين فتحت الباب ورأته. رحبت به وقالت:

- حماتك بتحبك.

احتضنها وقبلها. ودّ لو يحتفظ بها بين ذراعيه مدة طويلة ولكنه اضطر لإفلاتها ومصافحة الدكتور فتحي الذي هرع إليه. صافحه بحرارة وجلس الثلاثة لاحتساء القهوة. سألته فيما إذا تناول طعام الغداء وقبل أن تتلقى إجابته، التفتت إلى فتحي وقالت:

- والدي يعيش على أكل النواشف ولا يستمتع بوجبة واحدة شهية وعندما أدعوه لتناول طعامي يعتذر:

شعر فتحي بالحرج إذ اعتقد أن الدعوة يجب أن تصدر عنه قال:

- والله يا عمي أنا أعتبر أن بيتي هو بيتك ولذلك أشاطرها العتب عليك.

رد الأستاذ حسان بلهجة مفعمة بالرضى والأسى معاً.

– اللقمة التي أتناولها من يد سعاد أفضل من كل طعام الدنيا. ولكن ماذا أفعل حين لا أجد الوقت خصوصاً أن بيتكم في آخر عمان.

قالت سعاد:

– لا تغيب الموضوع. تناولت طعامك أم لا؟.

قال:

– لقد تناولت طعامي مع...

لم يكمل جملته، امتقع وجهه على الفور لزلة لسانه، سألته سعاد بفضول شديد:

– مع من تناولت طعامك؟.

قال:

– مع مجموعة من المدرسين. دعانا مدرس من هيئة المدرسة إلى منزله واطعمنا منسفاً.

قالت:

– إذن تأكل فاكهة. اترك فنجان القهوة.

أخذت أيضاً قهوتها وقهوة فتحي وقالت:

– نشرب القهوة بعد الفاكهة.

تركتهما وذهبت لإحضار الفاكهة. ران صمت قصير على الرجلين اللذين لم ينجحا إلى الآن في معرفة المواضيع المناسبة لأحاديث مشتركة ثم سأل فتحي الأستاذ حسان:

– كيف تسير أمور المدرسة.

سمع الأستاذ حسان وانتظر لحظات ليجيبه، إذ كان ينظر عبر النافذة إلى الهضاب والأودية ويفكر بالفتاة. ابتسم وهو يعيد بصره إلى الداخل إلى حيث يجلس زوج ابنته على بعد خطوتين:

كان في كل زيارة سابقة يجلس على المقعد ذاته وينظر عبر النافذة إلى المدى الرحب ويحسّ بانفراج مماثل وينصرف في الحديث مستغرقاً في تأمل رهيف. كان فتحي يصمت أيضاً إما لفطنة منه أو لعجزه عن إدارة حوار يمكن له أن يتسلسل ويتشعب بمشاركة الاثنين معاً. أما هذه المرة فقد رحب الأستاذ حسان بأي حديث يساعد على إخراجه من ضيقه وانشغاله بأمر الفتاة. ابتسم وقال:

– المدرسة جيدة كالعادة.

جاءت سعاد بالفاكهة المبردة. وقالت:

- اليوم تناولت منسفاً وأمس؟.

قال:

- أمس.

وبدا كمن سها عما تناوله.

- أمس.

تلكأ قليلاً وقال:

- أمس، نعم تذكرت، تناولت طعامي في المدرسة. كان لدي عمل كثير.

قالت:

- صحن حمص أكيد.

اضطرب وحاول أن يداري اضطرابه. قضم تفاحة وبعد أن لاكها قال:

- ولكنني طبخت مقلوبة في الليل.

ثم التفت إلى الدكتور فتحي ليعطي انطباعاً بصدق ما يقول:

- أتعرف أنني أجيد الطبخ؟ والله طبخت مقلوبة مع الباذنجان تأكل يدك معها. أكلت بشهية شديدة.

قالت سعاد:

- تعال غدا. أطبخ لك ملوخية. وعندي بامية من وجبة اليوم.

تثير متعة الطعام الرغبة لدى الدكتور فتحي في الحديث عنه والاسترسال في قصص الوجبات الشهية. لم ينتظر الحصول على موافقة الأستاذ حسان على الدعوة وتحدث متغنياً بلذة طعام سعاد وراح يعدد الوجبات المفضلة لديها تاركاً الصمت للأستاذ حسان. وإذا كان مثل هذا الاسترسال في الحديث لا يسر الأستاذ حسان دائماً إلا أنه استفاد منه هذه المرة في تجنب الخطر الذي تدفع إليه أسئلة سعاد.

تناولوا الفاكهة المبردة، وأطنب فتحي في امتداح الفاكهة التي يشتريها بنفسه إذ إنَّه - كما قال - يعرف كيف يخرجها من مخابئ البقالين. جاء دور القهوة بعد الفاكهة، اكتشف فتحي أنه تأخر عن موعد عيادته فترك القهوة، ونهض معتذراً.

فاجأه الأستاذ حسان بسؤال كان مفاجأة له هو أيضاً.

- أنت تعرف - ولا بد - شيئاً عن الإمراض العقلية؟.

لم يول الدكتور فتحي السؤال أدنى اهتمام. قال:

- ليس أكثر منك.

ابتسم الأستاذ حسان ابتسامة باهتة وقال:

- شكرا على ثقتك.

رد عليه بشكر مماثل مصاحباً كلماته بضحكة مفتعلة ليضفي انطباعاً بالدعابة على الحوار القصير الذي أقفله من جهته.

كاد الأستاذ حسان بعد خروج الدكتور فتحي أن يخضع لامتحان نظرات سعاد الدهشة المتسائلة فزاغ بصره عنها. علّق رغم أنها لم تطرح سؤالاً عليه:

- كان مجرد سؤال.

ولأنها ظلت على دهشتها اضطر لإضافة المزيد من التفسير:

- أنا أهتم بمثل هذه الأمور كما تعرفين... ولكنني اليوم مررت بفتاة مضطربة عقلياً وجدت أنها تحسن التصرف فخطر لي أن أسال.

قالت بعد أن أرضاها هذا التوضيح:

- أنت تعرف أن فتحي أخصائي أمراض نسائية.

رفع رأسه المثقل بالهموم والأسئلة، نظر إليها مستقصياً ما وراء حدة لهجتها مستغرباً منها اتخاذ موقف المدافع عن زوجها في حين أنه لم يرم إلى إزعاجه أو إثارة استيائه. قال بحدة مماثلة:

- ولكنه درس الطب بشكل عام - يفترض فيه أن يلم بشيء من هذا الجانب على الأقل.

قالت برغبة خالصة لتنهي الحديث في هذا الموضوع وقد رأت أن في توضيحها لموقف زوجها إزعاجاً لأبيها:

- أنا لا اعرف شيئاً عن الطب. لا أسمع منه إلا الحديث عن مشاكل النساء، إنه مخلص في عمله كما تعرف.

قال بلهجة مصالحة: >يكثر أمثاله"، ويبقى وتبقين له.

استنفد كل منهما ما بجعبته من كلام حول مسألة ثانوية وعديمة الأهمية ووجدا نفسيهما في مواجهة بعضهما البعض دون ثالث. تلهى بتقليب الولاعة التي وجدها أمامه وتلهت هي بتأمل

أظافرها وكان كل منهما يبحث في ذهنه عن الشيء الأهم الذي يرغب بقوله للآخر. لاحظت أنه ضم شفتيه واتخذ مظهراً جاداً، كمن يهم بالإفصاح عن أمر بالغ الأهمية. أمسكت يدها بقبضة اليد الأخرى وتأهبت لسماع ما سيقوله. قال:

- اسمعي. إنني لم أكذب عليك من قبل ولم أخف عليك أمراً.

اتسع جفناها وارتعشا وضغطت على يدها. تابع:

- أمس تسلقت سور منزلي فتاة، يقال عنها إنّها مجنونة، وألقت بنفسها إلى الداخل هرباً من اعتداء الأولاد عليها ولم أستطع إخراجها من المنزل لا بالمعاملة اللينة ولا بالعنف.

قالت:

- أبي.

أشار إليها كي تصمت وتابع:

- أعرف ماذا ستقولين، أخبرني بقال في الحيّ، أن رجال الشرطة لن يهتموا لأمرها، فكثيراً ما يعتدى عليها أمامهم. ثم إنَّ من شأن إخبار الشرطة زجي في تحقيق وربما أدى إلى الارتياب فأخذت بنصيحة البقال. على أية حال الفتاة بخير.

قالت:

- ولكنك تقول إنّك لم تستطع إخراجها من المنزل.

صمت وأطلق زفرة طويلة وقال:

- هذا صحيح.

قالت:

- ولكنك لا تستطيع أن تتركها في المنزل. إنها مجنونة وقذرة لا بد. ستقلب لك البيت رأساً على عقب وتنتقل إليك قذارتها.

نظر إلى وجه ابنته المرتعب. إنها - ولا شك - ستتناول المشكلة من زاوية مختلفة وستهتم فقط في إبعاد الأذى عنه بطردها من المنزل والتخلص من شر وجودها وسيعصى على فهمها ما قام به.

أشعل لفافة وخفض رأسه وحين نظر إليها مجدداً. قال:

- لا اظنها ستفعل شيئاً من ذلك.إنها ليست مجنونة على ما أعتقد، إنها بكماء وصماء وهذا كل ما في الأمر. ثم إنني قصصت شعرها وغسلته بداء مبيد للقمل وغسلت جسدها وألبستها منامة قديمة.

قالت غاضبة:

- أحقاً فعلت ذلك؟

اومأ بالإيجاب.

- ولكن لماذا؟ أنت لست مسؤولاً عنها، اطردها، سآتي معك فوراً وأنا سأطردها.

وقفت وقالت:

- انتظرني، سأرتدي ملابسي وآتي معك.

تركته ودخلت إلى غرفتها. اتضح له لحظة انصرافها عنه أي خطأ اقترف، فما من شيء أبغض إلى نفسه من هذا الانفعال الصارم الذي لا يأخذ في الحسبان عاطفته الإنسانية ولا يترك مجالاً للروية والمعالجة الأكثر رحمة. سأل نفسه على وجه التحديد إن كان يرغب في بقاء الفتاة وإلى أي وقت. قال لتخرج ولكن ليس بهذه الطريقة، ثم تساءل إلى أين ولم يعثر على جواب. أغمض عليه كل ما يحيط بها وما يريده لها ومنها، ولم يتسن له أن يفكر بطريقة لردع ابنته، فقد جاءت وقالت:

- هيا بنا.

لم ينهض. نظر إليها بعينين مذَلَّتين.

قالت بلهجة زاجرة:

- أبي.

وتابعت نحو الباب.

قال برجاء:

- سعاد، انتظري قليلاً، ليس لدي وقت الآن. أنا معك في كل ما قلت واعتقد أني قادر على طردها هذه الليلة من منزلي، وإذا لزم الأمر سآتي بالبقال وآخرين من الحيّ لمساعدتي في إخراجها دون أن يلحق بي أي أذى فيما لو اضطررت لاستعمال القوة.

لم يقنع الجواب ابنته. ازدادت حنقاً وعنتاً وقالت:

- لا، أبي. أنا أعرفك ستأخذك الشفقة عليها وسوف تؤجل طردها إلى يوم آخر. كيف تتحمل وجودها الكريه. أنا لا أرضى لك الأمر. لنذهب الآن.

قال بحزم:

– سعاد. قلت لك إنني مشغول الآن، سأطردها قطعاً، ابقي في بيتك وسأقوم أنا بواجبي.

جلست متبرمة متجهمة. اعترته أيضاً كآبة جهمة أثقلت عليه فلم يتحرك من مكانه ولم ينطق بكلمة. رفع رأسه بعد طول صمت وقال مستغفراً:

– أعدك بأنها لن تبيت الليلة في منزلي ولكنني مضطر الآن لإنجاز عمل.

نهض واقترب منها مودعاً، قبّل جبينها وهم بالخروج. نهضت وعانقته وقالت:

– أرجو أن لا ترتبط بموعد يوم الجمعة. سنأتي لقضاء اليوم عندك. سأغسل ملابسك وأنظف المنزل ونتناول طعام الغداء.

قال:

– لا تزعجي نفسك. استغلي يوم الجمعة لراحة زوجك.

غمزت بعينها معاتبة ثم دفعتها موجة من العاطفة لاحتضانه. انتابته هو الآخر دفقة عاطفية، فتعانقا مجدداً، قالت:

– يصعب عليّ أن أفكر بك وحيداً.

تمالك نفسه وأجاب بهدوء:

– أعرف أنه يعز عليك أن تتركيني أعيش وحدي. أعرف ذلك تماماً ولكن ما باليد حيلة، جربت السكن مع لطفي ورغم حبي الشديد له شعرت بالضيف، ولا تنسي أن للطفي زوجة لها الحق في الراحة في منزلها.

قالت:

– تزوج إذن، نبحث لك عن امرأة ناضجة. أرملة أو فتاة لم تتزوج بعد.

قال بلهجة متأسفة:

– يصعب عليّ العيش مع امرأة أخرى. فثمة تفاصيل في الحياة اليومية للشخص الواحد تتعارض بالضرورة مع تفاصيل شخص آخر. ربما في غمرة الحياة العائلية لم أكن أهتم، ولكني الآن وحدي وكل تفصيل مهما صغر يبدو في غاية الأهمية بالنسبة لي، فأرجو أ، تسمحي لي بالعيش ما تبقى لي من العمر على طريقتي الخاصة.

تركته يخرج وانهمر دمعها بعد احتباس طويل.

ذهب مباشرة إلى المقهى. أوقف سيارته في شارع سينما الأردن وتابع طريقه سيراً.

وصل قبل الآخرين. طلب نرجيلة واكتفى بتدخينها. كان في قرارة نفسه شديد الغبطة، منتشياً بما أنجز، فقد حرر آدمية مما كان يغلّها ويجعل منها حيوانة شرسة قذرة، كان يحس بنبل وشرف فعلته، تأتيه الصور والأفكار هنية لذيذة فيستسلم لمتعتها. كان يراها ساهمة أو متفحصة للصور المعلقة على الجدران أو راقدة بسلام. كان يرى جسدها الغض النحيل وهي تخطو أو ترقد أو تتكدر.

وعندما حضر ألأصدقاء رفض المشاركة باللعب وأنصرف إلى أفكاره مرة وإلى متابعة اللعب مرة أخرى، لم يسأل أي منهم عن سبب امتناعه، فرقعة الشطرنج تستحوذ على اهتمامهم.

ولما لم يجد بنفسه ميلاً للّعب نهض مودعاً، وحين سار إلى سيارته شعر بإغواء يجذبه إلى المنزل. ثمة علاقة آسرة بانتظاره، لن يتعب نفسه في نقاش عقيم عما ستسفر عنه هذه العلاقة، فحسبه أن يعنى بالفتاة ويراقب التقدم المدهش الخارق الذي يحصل عليه.

كانت الصالة وحدها مضاءة من بين غرف المنزل، ومع ذلك كانت إضاءتها كافية وضرورية بهذا القدر الذي يجعل من المنزل كله مكاناً أنيساً وأليفاً ومحتملاً. لم يكن متأكداً ممّا إذا كان قد أضاءها قبل خروجه من المنزل أم أنها هي التي أضاءتها، أذا تمكنت من فعل ذلك حقاً فهي ليست بريّة تماماً، ولا بد أنها عرفت الماء والكهرباء والمأوى يوماً وتعاملت معها. دخل بفضول زائد. وجدها تغط بنوم عميق وقد رقدت في زاوية من الصالة.

جلس بهدوء خشية إيقاظها. انجذب نظره إليها، ليس في ملامحها رقة الفتيات الصغيرات، فأنفها أفطس وشفتها العليا تكشف عن سنين كبيرين ونابين، وجبهتها ضيقة وجسدها ناحل سيء التغذية.

تساءل عما يجذبه إليها؟ ما الذي تحركه فيه؟ أكان يدرك منذ البداية، حين قادها إلى الحمام ونظفها مما علق بها من أوساخ، أنها ستأخذ منه هذا الاهتمام أم أن الطفولة المعذبة والوداعة اللتين تكشفتا له هما اللتان تثيران اهتمامه، أم أن العاطفة المهملة الحبيسة داخله أم شيء أكثر خفاء وأدق؟ لا يعرف على وجه اليقين ولكنه يشعر بفيض يشبه الضوء ينبجس بداخله ويملؤه غبطة. لقد عرف من قبل آلام تقبل العيش على نسق واحد بعيداً عما يبعث العاطفة ويؤججها. لقد عرف من قبل القنوط والارتهان لمشيئة الآخرين. وها أن عاطفته التي

شارفت على الجفاف تنفتح الآن وتتهيأ أفكار نبيلة وناصعة للانبثاق منها.
تساءل بكثير من الاستغراب كيف أخذت هذه العواطف والمشاعر والأفكار طريقها إليه، وكيف يمكن لفتاة قبيحة هزيلة متخلفة أن تحرك فيه كل هذا.

أراد أن يتحرك ليشغل التلفاز ويعد عشاءه فوجد نفسه حبيس مكانه، يخشى أن يحدث جلبة فيوقظها، لبث في مكانه دون حراك فضجر لقلة الحركة، نهض وذهب إلى المطبخ ثم جلس تحت العريشة. كانت العريشة تغلق عليه منافذ الرؤية وتشده إلى المكان الذي يجلس فيه. رقعة محدودة وسقف واطئ.

أغمض عينيه على أمل أن تمده مخيلته بأفكار ومشاعر لذيذة ولكنه فشل. حلت بلادة ثقيلة في مخيلته فتبرم بجلسته وضاق بالحصار الذي فرضه عليه وجود الفتاة. فكر أنه اخطأ في كل ما فعل وأنه أوقع نفسه في وهم سيكشف عن كارثة تقلق حياته. إنه طيش محض. كيف يصدّق أن متشردة معاقة ستعطي لحياته رونقاً. أما كان أجدر به أن يطردها قبل أن يستفحل خطرها، ولماذا يعاقب نفسه من أجلها. قرر أن يعود إلى الصالة ويفعل ما كان يفعله كل مساء. نظر إليها بإزدراء وكراهية. لماذا يتركها تنام هنا فتعيق حركته. لماذا لا يحملها إلى الخارج. لن يصيبها أذى في ليلة أيلولية قائظة ثم أنها تنام دائما في العراء. حملها إلى الباحة وعاد. وإذ خلت الصالة منها أدرك أنه استعاد شيئاً عزيزاً عليه بعد أن خسره أو كاد. قال لنفسه:"إنك لن تتغير أبداً يا حسان، تظن نفسك عثرت على ما هو ثمين ثم حين تفتح قبضة يدك تجد أنك تقبض على جمر". شغّل التلفاز، واستلقى على الأريكة الطويلة ولكنه ما لبث أن نهض. أنزل من على سقيفة المطبخ بساطاً ودثاراً. أخذه اليها ثم وضعها فوق البساط ودثرها وعاد إلى الداخل برضى أكثر عن نفسه.

الخميس

جاء الصباح على هيئة جديدة، واعداً منذ مطلعه بمباهج غير معتادة، فحين فتح الأستاذ حسان عينيه، تبين له أنه ليس بمفرده وأن الفتاة، انسلت إلى غرفته واقتعدت الأرض في الزاوية، تترقب صحوة من النوم.

كانت عيناها وحدهما تلتمعان في دكنة الغرفة وتنتزعانه من حالة الشرود التي تصاحب صحوه عادة. لم يفرح أو يغضب لوجودها داخل غرفته، استغربه فقط. وبعد أن زالت دهشته رفع جذعه وأسنده إلى السرير ونظر إليها مستلطفاً زيارتها واستباحتها لغرفته، فقد كفته عناء السؤال عنها، طفح وجهها بالسرور حين رفع جدعه.

كانت دكنة الغرفة والكلام المعطل بينهما يتيحان للمشاعر حرية الحركة. وقد أحب لطف وجودها. أشار إليها كي تقترب.جاءته حبواً على ركبتيها واتكأت بمرفقيها على السرير حتى صار بإمكانه أن يشتم أنفاسها. مد يده ولامس وجنتيها ثم أراحها على كتفها وقال:

– لم تغضبي مني. أليس كذلك؟ هذا لأنك فتاة طيبة.

استكانت لملامسة يده. ترك يده على كتفها والتفت إلى النافذة. كانت الستارة المتربة الغامقة تحجب الضوء بقوة وتمنع النهار من الإعلان عن نفسه. التفت إليها وقال:

– كيف أوضح لك أنني أريد منك فتح النافذة.

ابتسمت ببله.قال:

– حسن. الكلام لا يفيد. فلنجرب وسيلة أخرى.

أمسك بها من ذراعها وأنهضها بلطف. أشار إلى النافذة ودفعها من كتفها.

سارت خفيفة الخطو إلى النافذة ووقفت هناك بانتظار مزيد من التعليمات.مد يديه ألى الأمام باستقامة واحدة ثم باعدهما بسرعة. أمسكت بقطعتي الستارة ونظرت إليه متسائلة إن كان هذا هو المقصود. أشار إليها بالإيجاب. أبعدت قطعتي الستارة فتدفق في الحال ضوء خافت على وجهها وعنقها.أولت ظهرها له واتكأت على حافة النافذة. صار بإمكانه الآن أن يتأمل غبش الصباح ولكنه لم يفعل، فقد استحوذت على اهتمامه باستجابتها الطيّعة التلقائية ووجودها العذب. تأمل عنقها واستدارة الكتفين والردفين واستطالة الفخذين. كانت في ذات الوقت لاهية عن الطريقة التي ينظر إليها وربما أيضاً لاهية عن قسوة حياتها ومعاناتها وعن

كل ما ينتظرها هناك حين تخرج إلى الشارع.

قرر أن يوفر لها ثوباً لائقاً تستتر به. ترك الفراش واتجه إلى غرفة ابنته. فتح الخزانة ووجد بعض الفساتين القديمة.

أخذ واحداً منها وذهب به إليها. التفتت حين سمعت خطوه. اقترب منها وأعطاها الفستان، ابتهجت به ووضعته على حافة النافذة ونزعت المنامة. فوجيء بعفوية تعريها. غض بصره واستدار ثم خرج من الغرفة مبتسماً.

ذهب إلى المطبخ، مزج القهوة مع السكر والماء وأشعل الغاز. وضع الإبريق على الغاز واقترب من نافذة المطبخ. فتحها وفتح الباب. وقف ينظر إلى قطوف العنب المكتملة النضج. شهور قليلة مضت منذ برعمت الدوالي. نبتت فروع صغيرة واستطالت ثم اكتست بالأوراق الخضراء ثم تدلت قطوف العنب حبيبات صغيرة ما لبثت أن كبرت وامتلأت وها هي ناضجة مهيأة للقطاف. وبعد شهر ستجف الأوراق وتتساقط وتتعرى الدالية من جديد بانتظار دورة جديدة.

اشتم رائحة القهوة وأدرك أنها أوشكت على الغليان. استدار وفوجئ بها تقف وسط المطبخ، بانتظار أن يراها بفستانها الجديد. بدت هزيلة جداً داخل الفستان الذي تزيد مقاساته عن حجمها. ندت عنها تأتأة متقطعة وأشارت إلى الفستان. قال:

– حسن، هذا افضل ما لدي.

رفع إبريق القهوة عن شعلة النار فتباطأ غليانها واقتربت بذات الوقت لترى القهوة وهي تغلي. أحسَّ برجفة حين لامس جسدها جسده.

أطفأ شعلة الغاز وأخذ إبريق القهوة إلى المائدة. جلس وسكب القهوة في الفنجان. جلست هي أيضاً. قال:

– إنك على الأرجح لا تعرفين متعة القهوة. أما أنا فشغفي بها كبير، كنت أمارس هذه الطقوس وحدي قبل مجيئك. وأعترف الآن أنه لم يكن لها ذات النكهة.

كانت تحدق به وهو يتحدث فتضيقُ حدقتا عيناها وتتسعان.

– إنَّك تنظرين إليّ ولا تسمعين شيئاً مما أقول ومع ذلك تبدين راضية. ما يهمك أن تكوني قربي وحسب، تراقبين ما أفعل وتسرين به وأنا أقول إنك إنما تتملقينني بهذا ولا أريده. يمكن أن تذهبي إلى الحمام قبل أن تقترب حاجتي له، يمكن لك أن تخرجي إلى الباحة أو تفعلي أي شيء آخر. فقط ابتعدي واتركي لي هذا الهامش الصغير من الحرية، فأنا اضيق برقابتك.

نظر حواليه كيفما اتفق بحثاً عما ينفعها لتسلو به وهو يعرف سلفاً أن لا شيء من هذا القبيل لديه. نهض وأخذها من يدها وقادها إلى العريشة. أشار إلى قطوف العنب. مد يده وقطف عنقوداً وأعطاها إياه. تناولت العنقود، قربته من فمها وقضمت عدة حبات معاً. استعاد العنقود منها. وقال:

- يجب غسل العنب قبل أكله.

ذهب إلى المغسلة. غسله وأعاده إليها. ثم تركها تحت العريشة وجلس ليحتسي قهوته.

حان موعد الحمام. نهض وذهب إلى الحمام. أمضى نحو نصف ساعة وخرج لافاً المنشفة على وسطه. وجد أنها قطفت المزيد من العنب وعرف أنها غسلته لأن الماء ظل عالقاً بحباته.

قال:

- إنك تتعلمين بسرعة.

ربت على كتفها وأشار إلى الباب.

الآن دورك لدخول الحمام.

رفعت رأسها مبتسمة والتفتت إليه. صار وجهها قريباً منه. لم يرقه إمعان النظر في فلقتي شفتيها وسنيها الكبيرين البارزين واللذين برزا أكثر مع الابتسامة. خفض رأسه وأخذها من يدها إلى الحمام. دفعها إلى الداخل وأغلق الباب خلفها. تذكر أنه لم يأت لها بمنشفة. ذهب إلى غرفة نومه وأتى بواحدة. كانت تقف عارية ولا تفعل شيئاً. أخذها إلى حوض الاستحمام وغسل شعرها وجسدها. كانت راحة يده تلامس جسدها وتنزلق ببطء مع انحناءاته دون أن تبعث فيه الرعشة التي رهب حدوثها. قال:

- إنك بحاجة إلى غذاء.

لف جسدها بالمنشفة وصار للاثنين نفس الهيئة فضحكا معاً.

خرجا من الحمام إلى المطبخ. وقال:

- الآن نحضر طعام الإفطار.

لم يطلب مساعدتها. أجلسها وقام هو بتحضير الطعام. لاحظ أنها تراقب الطعام بنهم. قال وهو يتابع وضع الأطباق على المائدة:

- أعرف أنك جائعة، سأجعلك تأكلين كثيراً.

جلس ثم تذكر عنقود العنب. أشار إلى العنقود. نهضت لتحضره.

تأمل ردفيها وهما يتحركان داخل المنشفة ثم غض بصره. جاءت بعنقود العنب وجلست.

تناول قليلاً من الطعام واكتفى. راقبها وهي تزدرد الطعام بنهم. كان نظره يفر من وجهها كلما التقى به وينزلق إلى كتفيها ويديها. كانت تأكل وتنظر إليه، متبسمة مرة، وحذرة مرة أخرى، فيشجعها بحركة من يده كي تتابع الأكل. ود لو يقول لها شيئاً تفهمه ويسمع منها ما تفكر به ولكن لا حيلة له بذلك. أرجأ رغبته في الحديث غير مرة، ثم رمى بصره من فوق كتفيها إلى العريشة حيث يرتاح من عناء النظر إليها. وجد نفسه يقول:

– ما فائدة أن يجتمع أثنان إذا تعطل الكلام بينهما. كان يمكن أن تحدثيني الآن عما تشعرين به أو عن الطعام وتنظيف المنزل. وكان يمكن أن أحدثك أنا عن الضياء الذي انبثق بداخلي الآن والذي جهلته مدة طويلة حتى أدمنت البلادة الذهنية والحسية والبله الذي لا نظير له. ترين أذن. كل شيء يمكن أن يصبح مادة صالحة للكلام. أما هذا الصمت الإجباري فهو كارثة. أهذا ما أحصل عليه بعد صمت مختار مزمن. لو لم تكوني موجودة لما شعرت بحاجة إلى الكلام أو ربما لحدثت نفسي بدون نطق وحتى لو نطقت فلن أفكر بأن النطق سيبدو مضحكاً آنذاك.

سقطت المنشفة عن صدرها. فتحرر نهداها وارتجا مع حركة يديها. أشاح عنها ثم اغتم فجأة وارتج. ساده اضطراب شديد. فكر بهذا الذي يجري في منزله ويتستر عليه. ماذا سيقال عنه لو سرى خبره بين الناس. ماذا سيقول البقال لو اقتحم منزله ورأى هذا المشهد؟ ستذهب به الظنون كل مذهب. ماذا ستقول سعاد أو لطفي؟ ثم ماذا سيقول المدرسون والتلاميذ؟ سيغمزون من قناته بلا ريب. كره وجودها، ودَّ لو يصفعها بقوة ويلقي بها خارج المنزل ويستريح من الهم الذي تسببه له. تقلصت عضلات وجهه وقال:

– أرى أن تتعلمي أولا كيف تستتري. ألم يحدثك أحد من قبل كيف ينظر الرجال إلى جسد الأنثى. ألم يحذرك أحد من تعرية جسدك في حضرة رجل. أنهضي ارتدي فستانك على الفور. انهضي. تكدرت إذ لم تعرف سبب غضبه، طأطأت رأسها وتوقفت عن الأكل.

نهض وأتى لها بالفستان من الحمام، ألقاه عليها وابتعد. أدرك بقسوة لا مثيل لها أن عليه كي يتقبل وجود الفتاة في منزله ولو لبضعة أيام، أن يحاذر في سلوكه وأن يضع قواعد وضوابط

جديدة تحد من الحرية التي اعتادها. يتوجب عليه أن يبدأ بنفسه أولاً. فليس من المعقول أن يتحرك وهو شبه عار ثم يطلب منها أن تستتر. دخل إلى غرفة نومه. أغلق الباب خلفه واستلقى على السرير، حانقاً على وجودها وعلى نفسه، عازفاً عن العالم الذي لم يعرف كيف يتعامل معه والذي أوقعه أكثر من مرة في مأزق مربك. غير أن الوقت أدركه وتحتم عليه أن يتوجه إلى المدرسة. أرتدى ملابسه وذهب إليها حيث تركها في المطبخ أخذ الصحون الفارغة إلى المجلى. نهضت ووقفت إلى جانبه تراقب ما يفعل. نظف صحناً وأعطاها آخر. نظفته، لاحظ أنها أجادت في عملها. ترك لها بقية الصحون وخرج.

انفرجت أساريره بعد أن أغلق الباب الخارجي بالمفتاح ولاحظ الهدوء المحيط بمنزله. شعر وهو يقود سيارته إلى المدرسة أنه لم يكن في يوم من الأيام أفضل مما هو عليه الآن وأنه لم يكن ثمة سبب جدي للضيق الذي أحس به، فما زال هو سيد الموقف وبقليل من حسن التدبير يمكن له أن يذلل أي صعوبة وأن يحيل ذلك الشيء الكريه والصعب والنافر على وجه العموم إلى ما هو محبب إلى النفس.

كانت عمان كلها تنهض مترونقة وقد رأى بنظرة شمولية أن جميع من مر بهم صغيرهم وكبيرهم يختلطون في دورة نشاط متكاملة.
وفي المدرسة سلك أيضاً سلوكاً مغايراً، فقد تبسط مع الجميع وتلطف، داعب الصغار الذين وقفوا مرتعبين حين مرّ بمحاذاتهم وسأل واحداً كيف شعر هذا الصباح وآخر فيما إذا تناول طعام إفطاره وغيره عن سلوكه مع ذويه في المنزل. وفي مكتبه تبادل الدعابات مع المدرسين وبحث في أوجه النشاطات التي يمكن أن توفر للتلاميذ فرص الاستمتاع واكتساب مهارات مختلفة.

وحين انصرف الجميع إلى منازلهم استرخى في مقعده مغتبطاً. ثم خرج وتأمل برضى كبير أرجاء المدرسة وغادر هو الآخر.

لم يتوقف لحظة ليتساءل أين سيذهب، فما من شك في أن رغبة تمور بداخله وتدفعه للإسراع في العودة إلى المنزل. وقف ليتسوَّق في طريق عودته كل ما يحتاجه وقد عني هذه المرة بتفقد كل ما ينقصه. كان متيقناً من أنها بانتظاره وقد منحه هذا اليقين سلاماً كاملاً ودفعه

لبذل مزيد من العناية بمنزله.

لم يكن الوحيد الذي تنبه لضرورة العناية بالمنزل، فقد لاحظ بدهشة أن المنزل أنظف مما كان عليه وأنها بذلت جهداً واضحاً في تنظيفه. لقد أزالت من الباحة علب السجائر الفارغة وأكوام الغبار المتجمع في الزوايا. اندفعت نحوه لتساعده في حمل الأغراض. سرّ للعون الذي قدمته له. دخل معها إلى المطبخ ووضعا الإغراض فوق المائدة. ربت على كتفها وهي تقف إلى جانبه مزهوة بما أنجزت. قال مازحاً:

- لست بهذا السوء.

وزع الإغراض على خزائن المطبخ ووضع الخضار وقطع اللحم داخل الثلاجة وجلس. سره أنها ابقت لنفسها حبة تفاح وذهبت لغسلها. قال:

- لابد أنك جائعة. ستأكلين لحماً الآن وسيعجبك طعامي.

نهض وشرع في إعداد الطعام. تحدث إليها وهو يقوم بإعداده عن كل خطوة يقوم بها كما لو كانت تدرك ما يقول. ثم سألها بشكل عارض عما كانت تقتات عليه. وردد لنفسه أظن أن طعامك كان ما توفره القمامة. توقف عما يفعل والتفت إليها بادي التأثر وقال:

- أخشى أنك ستعودين إلى أكل القمامة.

أفزعه هذا الخاطر واقتحم هناءة لحظته.

خشي أن تكون قد ارتعبت مما قال. قال مطمئناً:

- ولكني أعدك أنك لن تعودي إلى هذه الحال.

نظر إليها بحنان. كانت تحملق به ولا تفقه شيئاً مما يقول. تابع:

- هذه واحدة من فوائد الصمم.

وضع إناء الطبخ على النار ودعاها للذهاب معه إلى الصالة. جلس على المقعد وجلست هي على الأرض. أشعل لفافة وأرخى جذعه ووجه بصره إلى السقف فيما ظلت هي تشخص إليه طيلة الوقت. خفض بصره وواجهها. قال:

- لماذا لا تكفين عن البحلقة. أليس لديك شيء أفضل من ذلك؟

أشفق عليها لأنها بذلت جهداً واضحاً لتستوعب ما يقول. أشار إليها كي تقترب منه. نهضت واقتربت. أجلسها إلى جانبه واحتضنها بساعده. وقال:

- في الحقيقة لا يهمني أن يجري الحديث من طرف واحد. فألامر سيان لدي طالما أنني

أرغب في الكلام. قد أقول كلاماً غامضاً لا تفهمينه وقد لا يرضيك سماعه لو كنت تسمعين فكثيرا ما التفت عني اشخاص وأنا أحدثهم بما أشكو منه وانصرفوا إلى شأن آخر. إنه عالم قاس كما ترين. ينبجس الكلام دون إرادة من الواحد أحياناً ويتدفق دون أن يتمكن من لجمه. وهنا تأتي الفائدة من وجودك، فأنت لن تقومي بالاحتجاب عني أثناء الكلام أو العزوف عنه وبذلك أقول كل ما لدي إلى أن تخلو جعبتي من الكلام.

ضاقت بالجلوس قربه. وقفت وخطت داخل الصالة ثم خرجت إلى الباحة وراحت تتقافز على قدم واحدة. أبتسم بأسى إذ إنّه لم يكد يشرع في التحدّث إليها. تمتم" حتى أنت يا بروتس" وراح يراقبها وهي تلهو سالياً عن أفكاره بمراقبتها ثم ذهب إلى المطبخ ليتفقد الطعام.

اندفعت نحوه فزعة حيث كان يسكب الطعام وأحاطته بساعديها. استغرب منها هذا الاندفاع البالغ الإثارة. أحس بارتجاف جسدها. نظر إليها دهشاً. كانت تشير باتجاه الصالة. أجلسها على كرسي وذهب مستثار الفضول ليرى ما الذي أرعبها. كانت الصالة بذات الهدوء والترتيب الذي كانت عليه ولكنه سمع جلبة شديدة في الخارج وكانت من الشدة بحيث اندفع إلى باب الباحة الذي كان مفتوحاً، فبوغت برؤية حشد من الأولاد يحملون حجاراً وعصياً وكأنما يتأهبون لمعركة. قال غاضبا:

- ماذا تفعلون؟

نظروا إليه وقد أخذتهم المفاجأة وقال أحدهم " ها هو، أهربوا".

لاذوا بالفرار باتجاهات مختلفة. تعثر واحد منهم بحجر وسقط على الأرض. اغتاظ من قحتهم وجرأتهم على العدوان وتربصهم بالفتاة وهي آمنة في بيته. لم تفعل ما يسؤوهم ويبرر هذا العدوان. لحق بالصبي الذي سقط أرضاً ليمسك به ويجري معه حواراً، إلا أن الصبي نهض من عثرته قبل وصوله وولى هارباً هو الآخر. عاد مستفزاً مضطرباً مشوش الذهن.

جلس بتخاذل وأشاح عنها وعن الطعام. فكر أنه أصبح هدفاً من أهداف صبية الحارة، طالما أنها تقيم عنده، وسواء طال الزمن أو قصر فسوف يتعرض للأذية.

كانت تنظر إليه متلهفة، تنتظر الإذن لها بتناوله، غير أنه بالكاد عني بجوعه، فقد بعثت فيه الحادثة مخاوف يصعب كبحها. ضربت براحة يدها على كتفه فتنبه. التفت إليها ورأى أن وجهها دميم أكثر من أي وقت مضى. وكأنما اكتشف قبحه فجأة. زوى ناظريه ثم تناول لقمة

وضعها في فمه ولاكها على مهل.

اندفعت إلى الطعام بنهم. نظر إليها بكره شديد، فهذا كل ما تصبو إليه ولا يعنيها ما تسببه له من مخاطر وآلام. قال بإزدراء:

- كلي جيداً. يبدو أن هذه فرصتك الأخيرة لتناول وجبة جيدة.

أكل قليلاً ثم أشعل لفافة ونهض. أتجه إلى غرفة نومه، تناول قرصاً منوماً، واستلقى على السرير ثم غلبه النعاس فنام. نام لوقت زاد عن الساعتين، وحين أفاق لم يبرح سريره. استهل صحوة بتدخين لفافة ورأى من خلال الاكتئاب الكثيف الذي اكتنفه أن حياته انقضى جلّها دون رونق وأنها تمضي إلى نهايتها الوشيكة برثاثة.

وجنح إلى التفكير بالموت سيد الخلاص من الأزمات والحصان الأسود الجامح الذي سيعبر به مملكة الظلام الأبدية.

حانت منه التفاتة صوب النافذة، رآها في الباحة، تتقافز على قدم واحدة وتتوقف لتلقي نظرة إلى الغرفة لتكتشف ما يفعل. نهض متقد الغضب. أسرع نحوها وأمسك ساعدها وشده بقوة. قال:

- أيتها الكريهة تتلصصين عليّ، حتى في غرفة نومي.

رأى أي ذعر أصابها. أفلت ساعدها وابتعد عنها ثم عاد وأخذها إلى الصالة. جلس على مقعد وجلست قبالته حيث أشار وبينهما منضدة الوسط وحيرة وبلبلة وكثير من الكلام المعطل والأسئلة التي لا يعرف الواحد منهما كيف يطرحها على الآخر.

حاول أن يوضح لها بإشارات من يديه ما يفكر به وما يريدها أن تعرفه، نظرت إلى حركاته ببله شديد. قال:

- اللعنة، لا سبيل لإفهامك.

كان يريد أن يفهمها أنه مجبر على إجلائها عن المنزل وأن وجودها لم يعد آمناً ولما عيل صبره، أشار إليها ثم إلى الخارج ورفع يده في الهواء بدت وكأنما أدركت ما يريد. طامنت رأسها ولم تأت بحركة.

وقف بعد أن أعلن قراره. ذهب إلى غرفته، ارتدى ملابسه وعاد. أخذها من يدها إلى الباحة واغلق باب الباحة بالمفتاح أيضاً. نظرت إليه بانكسار فأشاح عنها ثم ابتعد عنها

واستقل سيارته. تنفس الصعداء وهو يبتعد عن المنزل. استغرب سهولة استجابتها وطاعتها له. فكر بضعفها في مواجهة عالم شرس غوغائي.

قال لنفسه إنها مجرد فتاة ضعيفة وجاهلة بما يدبر لها وكانت كذلك منذ البداية.

اغتم وهو يفكر بمصيرها المحتم وما ستلاقيه من عقاب، لأنها تجرَّأت وأفلتت من قبضتهم لأيام ولأنها تنحت عن ساحة الحرب.

كانت الشمس قد فقدت شيئاً من سطوتها وانتشر الناس في الشوارع. فكر أن الصبية سيجدونها عما قريب وسيلحقون بها أذى مضاعفاً. ازداد غمه وأفسد عليه الراحة التي أحس بها. رغب في العودة ومعرفة ما يحدث لها. ولكنه خاطب نفسه قائلاً:

– لقد انتهيت من أمرها، تابع طريقك، ألحت الرغبة عليه من جديد." تابع طريقك" قال لنفسه." ستفسد كل شيء. لقد أنجز الأمر".

خالها تحدر الجبال من خلف المنزل قاطعة كل صلة بحيهم، خالها تختبئ خلف الجدار بانتظار حلول الظلام. وجد الصبية على حال بعث فيه الطمأنينة، فقد تجمعوا في باحة خالية أول الحيّ وكانوا فريقي لعب ومتفرجين. أما هي فقد جلست على عتبة المنزل منكسة الرأس. أوقف سيارته وترجل منها ثم فتح باب منزله وأدخلها. وعاد.

صعد درجات المقهى خفيف الخطو، نشط الحركة. حيا الجميع ببشاشة زائدة وجلس. لعب جولتين مع لاعبين مختلفين، فاز في كل منهما فوزاً سهلاً ثم أخلى مكانه لغيره. وجد نفسه تفيض بالكلام. تلفت إلى الآخرين بحثاً عمن يمكن أن يبثه بعضاً مما تزخر به نفسه. لم يجد أحداً، فقد تحلقوا جميعاً حول رقعة الشطرنج. رفع الرجل الذي اتصف بامتهان السياسة رأسه وتوقف ليشعل لفافة.

بادره ليقول:

– حتى أنت تأتي إلى هنا لتصمت.

رد السياسي بالإيجاب ثم قال:

– لكل واحد منا محطة للراحة.

قال له:

– معك حق.

وتابع هو نفسه اللعب.

غير أن تفكيره سرعان ما انشغل بأمرها. تساءل عما تفعل في هذا الوقت رغب في مغادرة المقهى والعودة إلى المنزل، نهض وألقى تحية الوداع ولكن الشاب لم يأخذ دوره بعد، أفصح عن رغبته في منازلته وأنعم في الرجاء ورأى فضولاً في أعين الآخرين وتحبيذاً للفكرة. أكد رغبته في العودة مبكراً إلى المنزل. إلا أنَّ اللاعبين تخليا عن مكانيهما له وللشاب. فأذعن وأخذ مكانه قبالة الشاب.

كان البدء من نصيبه هو. ابتدأ اللعب بحذر، حصّن مواقعه الأمامية ثم أفرغ ما بين الملك والرقعة وبدل موقعيهما وصار يترقب من حصنه المنيع خطوات الشاب ويعدّ العدة لكل نقلة. أصاب الشاب شيء من النزق لأنه لم ينجح في اختراق دفاعات الأستاذ حسان وقاده إلى تقديم بيادق الوسط لتشتبك مع بيادق الأستاذ حسان اشتباكاً خسر بنتيجته ثلاثة من بيادقه مقابل اثنين. انقلب اللعب بعدها إلى معركة سهلة حقق فيها الأستاذ فوزاً هيّناً. صافح الشاب بعدها وقال:

- أرجو ألا تستهين بمقدرة كبار السن.

قال الشاب:

- العفو، إنني آتي هنا لاكتساب الخبرة منكم.

غادر المقهى وأنس للهدوء الذي ساد المدينة. كانت الشوارع قد خلت من المارة. سار منتصب القامة بهياً بلا شكوك أو هواجس أو ارتعاب. كان يسمع وقع خطاه على أسفلت الشارع فيتعزز إحساسه بالكمال وبأنه سيد هذه اللحظات. تجنب جمعاً من الناس تدفق من إحدى دور السينما ثم انتقل إلى الرصيف الآخر ولكن الجمع توزع وانتشر بعضه على ذات الرصيف. حث خطاه مبتعداً إلى حيث تقف سيارته. دلف إلى السيارة وحين استقر على مقعدها رفع جذعه ونظر إلى امتداد الشارع والبنايات المطفأة الأضواء.

ظن أنها ستكون قد آوت إلى منامها ولام نفسه لأنه لم يعد مبكراً، وجدها يقظة تعاند النوم. وقفت وقبّلت يده، فجأة وبدون استئذان ووسط دهشته البالغة أخذت طريقها إلى الخارج ورقدت في الباحة. عز عليه أن يتركها دون طعام أو دثار. خرج إليها ودعاها للنهوض ثم ذهب بها إلى المطبخ وحضَّر طعاماً. سرد عليها أثناء تحضير الطعام قصة انتصاره وقال في نهاية الحديث" لو رأيت وجه الشاب حين خسر البيدق الأول". وكرر الجملة عدة مرات.

راقبته بانشراح كما لو أنها استوعبت ما قال. تناولا الطعام واحتسيا الشاي. طامنت رأسها بعد أن أنهت كوب الشاي ثم نهضت في طريقها إلى الخارج. لحق بها وأمسكها من كتفها ثم قادها إلى الصالة. أشار إليها كي تجلس ريثما يرتب لها مناماً.

رتب منامها في الفسحة ما بين مقاعد الجلوس والخزانة وبّين لها بحركة يده وانحناءة رأسه أنه يريد منها أن تنام هناك.

استجابت وانسلت إلى منامها ورقدت تحت الدثار مولية ظهرها له، أما هو فقد جلس في مواجهة خزانة الأواني ورفع قدميه على المنضدة متحرراً من همومه المسائية. ولكن الحال لم يطل به على هذا النحو، فبعد أن بقى صامتاً ساكناً يوزع نظره دون قصد معين بين التلفاز المطفأ والفتاة التي رقدت على الأرض،تكونت لديه رغبة ملحة في مشاهدة التلفاز وأسف لأنه لم يفطن لإدارة التلفاز أول دخوله الصالة. إذاً لكان أعفى نفسه من عناء النهوض ثم أنه خشي أن يحدث جلبة، فيوقظها.

واصل النظر إلى التلفاز والفتاة التي ترقد ببلادة هناك جاهلة بالضيق الذي لحق به.لم يتأكد من أنه لم ينهض لإدارة التلفاز بسبب حالة الاسترخاء أو لأنه يتخوف من إزعاجها في نومها، لكنه مال إلى اعتبارها العائق أمام تدفق وانسياب رغباته، وأنه لولا وجودها الناشز لما تحرّج من شيء ما، كان يمكن أن يترك التلفاز مطفأ ويلتفت عنه إلى كتاب أو يتجاهل التلفاز والكتاب ويمعن الفكر في رقعة الشطرنج أو يؤجل ذلك كله ويقوم بعمل من أعمال المنزل. أما الآن فقد ألحت عليه رغبة شديدة في مشاهدة التلفاز ولا شيء آخر.

نظر إليها بحنق شديد ورأى في رقدتها هنا في الصالة نشازاً محضاً. شككه في جدوى الاستمرار معها في حياة مشتركة ولو لبضعة أيام.

نهض معتكر المزاج وأخذ طريقه إلى غرفة نومه. وجد نفسه وهو يجتاز الرواق يستعيد مشهداً يكاد لا يتغيّر من حياته العائلية. كان يجلس هنا في الصالة بعيداً عن الأسرة التي تتجمع في الموزع حول التلفاز وما أن يمضي وقتاً في تخيلات عذبة حتى يتوافد عليه الأولاد واحداً بعد الآخر وكلهم يرجوه بإصرار أن يشاركهم مشاهدة التلفاز.

فيرجوهم أن يتركوه وشأنه ولكنه لم ينجح أبداً في الإفلات منهم ومن ضجيجهم، فجليلة أيضاً تلح في طلبه ولا تتقبل فكرة جلوسه وحيداً. كانت تأتي بنفسها لتطمئن عليه وتسأله إن كان يشكو من شيء حتى إذا نفى دعته للجلوس معها ومع الأولاد، تقول: يحب الأولاد أن يروك، أنت تغيب عنهم طوال النهار، فيقهر رغبته في الانفراد والتمتع بقليل من الهدوء ويذهب معها. وها أن الأولاد كبروا، تزوج لطفي وتزوجت سعاد واستقلوا عنه وارتحل زياد إلى السماء وصار في الأرض منزلاً.

كان قد أهمل في غمرة انشغالاته الصغيرة المبعثرة، في غمرة اهتماماته الجديدة واستساغته تفاصيل العيش وحيداً كل ما اتصل بحياته الأسرية السابقة حلوها ومرها. وحين صار داخل غرفته انتابته أفكار محبطة وبائسة عن أسوأ ما اتصل بحياته الأسرية. فترك الضوء مطفأ واستلقى على السرير. ستأتي سعاد مع زوجها في الصباح ولا يعرف كيف سيهيء سلوكه أمامها ليبدو متماسكاً وقوياً وسعيداً وهذا الجيش من الأفكار القاتمة يقتحمه ويعيث فيه فساداً. أمتد بصره عبر النافذة فلم ير إلا الظلمة ثم انحسر إلى الغرفة، بعثت ذاكرته فيه كل ما يؤلمه ويحبطه.

لم يحب هذا المنزل قط. لقد اعتبره على الدوام ثمرة محرّمة وآثمة لحياة زياد. كان يقبض على التعويض الذي يحصل عليه من أهل الجاني ومن شركة التأمين كمن يقبض على جمر. لقد رفض بعناد الإفراج عن المبلغ وتسليمه للطفي الطامح به. لقد شاركته جليلة في الحرص على المال وانتظرت إلى أن تخرج لطفي من الجامعة واشتغل لتعلن عن رغبتها في هجر المنزل القديم الذي قتل زياد داخله.

تلفت في أرجاء الغرفة المعتمة متلمساً النهوض في كبوته والخلاص من ضيقه وسوداويته، ثم نهض وسار إلى النافذة فلم ير إلا الظلمة أيضاً.

أما كان أجدر به أن يصغي لنصيحة لطفي حين قال له" أبي لم يعد هذا المنزل مناسباً لسكنك، بعه وانتفع بثمنه وتعال لتشاطرني السكن". أما كان أجدر به أن يستمر بالسكن لدى لطفي والعيش تحت مظلته يغض النظر عن مضايقات زوجته، تلك المضايقات الخفية التي تلمّسها وحده وتأبت كرامته السكوت عليها.

ستأتي سعاد غداً فبأي مظهر سيقابلها. اتكأ على حافة النافذة وأخرج جذعه خارج النافذة وأحس ببعض برودة الهواء. مكث هكذا لبعض الوقت ثم رفع جذعه وتراجع قليلاً وأضاء الغرفة. ازداد ضيقه بالغرفة وكأنها لا تصلح سوى للنوم أو الابتئاس. قرر أن يعود إلى الصالة مكانه الأليف والحافل بكل ما يحب.

اتجه إلى الصالة ووقف ببابها. كانت قد أبعدت الدثار عن جسدها بالكامل وفردت ذراعيها وساقيها ثم انقلبت في اللحظة ذاتها إلى الجانب وأولته ظهرها،عملت هذه الحركة على كشف جسدها. تأمل الجسد المبذول أمامه بعفوية وطيش صبياني وأمعن في تأمله ثم ارتد إلى الخلف مرتعباً من تلذذه بمشاهدتها في هذا الوضع. كان خوفه جمع تاريخ من الملاحظات التربوية والكوابح الأخلاقية ورفض الدنس الجسدي. تركها وشأنها وعاد إلى غرفة نومه.

إنها مجرد فتاة صغيرة معاقة قال لنفسه معاقباً نفسه على ما بدر منه. أخذ قرصاً منوماً وأرغم نفسه على دخول الفراش ثم نام.

الجمعة

لم يسبق للأستاذ حسان في الألف صباح الماضية، أن نهض من نومه رائق البال متحفزاً للحركة والعمل مثلما حدث هذا الصباح. كان أمامه الكثير ليفعله قبل مجيء ضيوفه. عزم على إظهار المنزل بصورة لائقة، ليحرم ابنته فرصة إبداء ملاحظتها المشفقة والتي من شأنها، سواء وعت أو لم تع ذلك، بعث الأسى في نفسه. فليس من السهل عليه تقبّل فكرة أنه يعيش حياة متدنية تدعو إلى الرثاء، لقد عمل ما في وسعه لأن يكفي نفسه بنفسه وأن يتقبل برضى كاف ظروف حياته، ورأى في وجود فتاة ما يحفّز همته إلى العمل.

غادر السرير ولبس خفه وفتح نوافذ المنزل، فتدفق ضياء الصباح من كل منفذ. بحث عن الفتاة فوجدها تلعب الحجلة في الباحة، لاهية عما يشغل فكره. دعاها للدخول فاستجابت على الفور، رفع أطراف بنطال المنامة ونزع السترة وأحضر سطل ماء وممسحة. أخذ على عاتقه غسل أرضية المنزل وطلب إليها مسح الأرض وتجفيفها. كانت حرارة الجو مرتفعة ولكن الماء الذي سحّ بكثرة على أرضية المنزل خفف من حدّتها. عملا معاً بانسجام وتوافق كاملين وتفصد عرق غزير من جسديهما. مسحت العرق المتصفد بظاهر كف يدها أما هو فقد رشق الماء على وجهه وصدره ليتبرد. جلسا لبعض الراحة بعد الانتهاء من غسل الأرضية وتجفيفها ثم دعاها مرة أخرى لمساعدته في ترتيب أثاث المنزل وإزالة الغبار. أنهيا العمل بوقت قياسي وكأنهما في سباق مع الزمن. وقف يتأمل بإعجاب حالة المنزل وانتقل من مكان إلى آخر وهي تسير إلى جانبه سعيدة لسعادته تقف إذا وقف وتتحرك إذا تحرك وتتلمس من بعده ظهر مقعد أو حافة منضدة.

لقد وحّدهما هذا الإنجاز المشترك حتى أنه فكر حين وقف ليغلي القهوة إنها تلائمه وتؤنسه كثيراً وأنها مفيدة على نحو غير متوقع. التفت إليها باسماً وطفح وجهها بالسرور حين رأته يبتسم. رفع إبهامه عالياً لإشعارها بأهمية النجاح الذي أحرزاه. أراد أن يقول لها أنه ينتظر ضيوفاً. فابتدع حركات للتعبير عن ذلك. بذلت جهداً في متابعة حركاته، اتسعت حدقتا عينيها وضاقتا، تقلّصت عضلات وجهها وارتاحتا وحين توقف قامت بدورها بحركات وإشارات لم يستوعب منها الكثير ولكنها دللت على إن الحوار ممكن بهذه الطريقة.

أشار إليها كي تدخل إلى الحمام وتغتسل فاستجابت.

جلس وحده لتناول القهوة منتظراً خروجها من الحمام. مضى الوقت بطيئاً فنهض وقام بعدد من الأعمال. نظف إبريق القهوة والكوب وقطف عنباً وغسله وأتى بكتاب وقرأ عدة صفحات.

سمع صوت انفتاح الباب فتنبه والتفت. تقدمت نحوه وهي تجاهد بيديها لإبقاء المنشفة الصغيرة على وسطها. قال:

– اللعنة إنها تستعمل منشفة الوجه.

ذهب إلى الحمام بدوره وخرج ليعيد لها ثوبها ثم دخل وأغلق الباب. تركت الثوب ملقى على الأرض وخطت داخل المطبخ وهي تتمسك بالمنشفة ثم تركتها هي الأخرى تسقط على الأرض. رفعت يدها وتلمست بروزات وانحناءات جسدها والمواطن الحساسة منه.

اغتسل وحلق لحيته وخرج، فؤجيء بما تفعل. تسمر في مكانه وراقب حركة كفها ثم اندفع نحوها، ابعد يدها بقوة ودفعا. فسقطت على الأرض. أخذ الفستان وألقى به عليها واستدار وهو يستعيذ من الشيطان الرجيم.

لقد غفل في سياق صراعه الداخلي ومحاولته الدؤوبة المثمرة لأنسنتها وإبعاد هواجس العدوان عنها، عن أنها أيضاً أنثى ولو كان أدرك ذلك من البداية لما قام بتعريتها وهدم الجدار المفترض قيامه بين رجل وامرأة، بحيث يحجب الواحد جسده ومشاعره الجنسية عن الآخر، نفياً لأي مكاشفة واتصال من هذا القبيل.

فطن إلى أنه هو الآخر شبه عار فلا يستره إلا منشفة تلتف حول وسطه فقط.

أسرع إلى غرفته وارتدى ملابسه وعاد ليرى فيما إذا كانت ارتدت فستانها أم لا. كانت قد وقفت خافضة الرأس وقد ارتدت الفستان. تغافل عما جرى إطفاء لجذوة الغضب وبخاصة أنه ينتظر قدوم أبنته.

عاد إلى الصالة فلحقت به وجلست في الزاوية، غير أنها لم ترفع رأسها ولم تحدق به. قال بصوت مسموع وكأن الخطاب موجه له نفسه:

– لك أن تحزني ولي أن أتوجع وهذا أمر لا نملك إزاءه الكثير.

إنك تتنبهين الآن على ميولك الجنسية وتتحسسين جسدك دون إدراك لعواقب فعلك. لا تدركين ما معنى أن يقول جسدك إنني ناضج ومهيأ للقطاف في حضرة رجل محروم من التلذذ الجنسي لأنه بلغ سناً، يفترض معه أن يتوقف عن مثل هذه الشهوات.

صمت وعادت به الذاكرة سنوات طويلة إلى الوراء حين اضطر لإعطاء دروس خصوصية لفتاة في الرابعة عشر من عمرها. كان وقتها قد رزق بمولوده الثاني سعاد وتكاثرت الهموم عليه فقد أتعبت الولادة زوجته مما اضطرها إلى ملازمة الفراش واضطر هو إلى إنفاق راتبه على الأدوية وحليب سعاد ثم العناية بالبيت. كانت الفتاة جميلة جداً وقد نضجت قبل أوانها فاستقام عودها وامتلأ صدرها وكانت تعرف كم هي جميلة، أخذت تطرح الكثير من الأسئلة وتترك أزرة قميصها مفتوحة وحين يلتفت إليها ليلقنها الدرس تأخذه فتحة قميصها إلى النهدين الحرين البارعين فيأخذه شبه دوار ويحمر وجهه. لقد عذبته كثيراً فأنتقم من نفسه ومنها بأن طلب إليها أن تتلقى الدرس في غرفة نوم زوجته بحجة أنه لا يستطيع تركها وحيدة. ولكنه كثيراً ما يستعيد الآن مشهدها وهي تنحني قاصدة إعطائه فرصة لمشاهدة نهديها ولتسعد نفسها بملاحظة احتراقه آنئذ.

سمع قرعاً على الباب. فامتعض لأنه لم يتهيأ بعد لاستقبال ابنته ولم يبرأ من سطوة المشهد الجنسي الذي أثاره.

خرج ليستقبلها واستغرب أن الذي يقف خلف الباب هو البقال الذي لم يسبق له أن زاره من قبل، ثم أن العلاقات بينهما لم تتعد الأحاديث العابرة. نظر إليه متسائلاً عن سر زيارته.

قال البقال:

- صباح الخير، يا جاري العزيز.

قال وهو يسد الباب بجسده معبراً عن عدم رغبته في استقباله داخل المنزل:

- صباح الخير.

ابتسم البقال بخبث وهو يواجه بعد الترحيب وقال:

- جئت للاطمئنان عليك.

لم يفهم أو لم يرد أن يفهم إن الواجب يفرض عليه أن يرحب به في هذه الحال ويشكره على اهتمامه. قال باقتضاب:

- أنا بخير. شكراً.

وجه البقال من فوق كتف الأستاذ حسان نظرة إلى الداخل وقال:

- ما أخبار المجنونة؟

ارتبك الأستاذ حسان وتلعثم بالكلام. قال متجاهلاً القصد من السؤال:

- لم تصب بأذى.

قال البقال وهو يبحث بعينيه عنها.

- ولكن أين هي يا ترى، لم تعد في الشارع، أما زالت تتحصن في منزلك؟

لم يعد بوسع الأستاذ حسان المراوغة قال:

- إنها تتخذ من الباحة مستقراً لها ولكنها تذهب وتعود.

قال البقال مشككاً:

- غريب. لم يعد أحد يراها في الشوارع.

أظهر الأستاذ حسان حزماً تجاه هذا التشكيك غير المستحب وقال بلهجة تخلو من الكياسة أو اللعثمة.

- إن هذه مشكلتك. أنا أغيب عن المنزل طيلة النهار. ولا أعرف أين تذهب وهي ليست هنا الآن.

لم يعد ما يبرر استمرار الحديث بين الاثنين. ادعى البقال أنه راض عن تبادل الحديث وأنه لم يرم إلى أكثر من ذلك. أعتذر عن الإزعاج غير المقصود وتعلل بضرورة الذهاب إلى بقالته.

شكره الأستاذ حسان بدوره على الزيارة اللطيفة وعلى اهتمامه.

استدار البقال وابتعد.تريّث الأستاذ حسان قليلاً إلى أن تأكد من ابتعاده ثم دخل ممتقع الوجه.

أرخت ظلال من الشُّك سدولها على نفس الأستاذ حسان وبعثت رعدة صغيرة في أوصاله. مما لا شك فيه أنه هذه الزيارة غير المستحبة، لم تكن بريئة ولم يكن دافعها الاطمئنان على سلامته هو، بل الفضول لمعرفة مصير الفتاة والظنون التي لا يعرف أي اتجاه سلكت. شعر وكأنه متهم بشيء ما وأن هذه الزيارة مقدمة لما هو أكثر إزعاجاً منها. لم يأت البقال بمحض رغبته الخاصة التي لم يطلع أحداً عليها. إنه مبعوث من أهل الحيّ جميعاً. هذا التجمع السائب الرخو عادة والذي قد يتماسك ويتحول إلى كتلة جهمة غبية تتحرك بنوازع شريرة لا تعرف المغفرة. ألم يحدث هذا مع الصبي الذي اتهم بسرقة مصاغ المرأة التي كان يخدم. إنه يعيش في هذا الحيّ منذ ست سنوات لم يسأل أحداً عما يجري داخل منزله ولم يسأله أحد فكيف أتاح للبقال فرصة أن يقحم نفسه في حياته وأباح له أن يدقق فيما يحدث معه. إنها غلطته هو فقد ارتكب هفوة في حالة ضعف دون أن يأخذ بالحسبان مغبة ما قد يترتب عليها.

اشتد خوفه وتشكك بصحة تصرفه. إنه لا يستطيع أن يستهين بأمر الآخرين إذا اجمعوا على الشك بأمره. أما كان يجدر به أن يأذن للبقال بالدخول ويطلعه على أمر الفتاة فينتزع الشك منه، بدلاً من رفضه وإغلاق الباب في وجهه مما ويضاعف من شكوكه. إنه لم يعتد أن يكشف لأحد دواخله ولا يحب أن يفكر عنه أحد ويملي عليه قراراته. غير أنه أخطأ هذه المرة، فهو الذي أفسح المجال للبقال وعليه أن يعالج الوضع بحكمة أكثر. فكر أن يلحق بالبقال بحجة شراء بعض الحاجيات ويتبادل معه حديثاً طيباً ويحدثه عنها، بل ربما كان من الأفضل أن يصطحبها معه ليفهمه أنه لا يخفي شيئاً ويقول له: "لقد خلصتكم من هذه الآفة. وسوف أسلمها غداً إلى وزارة التنمية الاجتماعية". لعبت الفكرة دورها في تهدئة مخاوفه وفي مساعدته على الجلوس. بانتظار قدوم ابنته، نظر إليها. كانت لا تزال خافضة الرأس وربما تبحث في قرارة نفسها عن الذنب الذي اقترفته. أشفق عليها. خطا نحوها وربت على كتفها ثم أمسك بيدها ودعاها للوقوف. وقفت ولكنها لم ترفع رأسها إلا حينما أحاطها بذراعيه وأجلسها إلى جانبه على المقعد الطويل. رفع قدميه على المنضدة وأشعل لفافة وفاضت نفسه بالكلام.

قال لها:

– ينبغي أن أعترف أنني تسببت بحرج شديد ولم أحسن التصرف ولا أعرف كيف أخلص نفسي من هذه الورطة. إن الأشياء التي أحببتها لا تتفق بعضها مع بعض وكان علي أن أدرك هذه الحقيقة منذ البداية فلا أحمل أكثر من بطيخة بيد واحدة. فلا يمكن لي أن احتضن واحدة في مثل وضعك وأضعها في مرتبة أهل بيتي وأغض النظر عما سيقوله الآخرون. ثم إن الأمر أكثر خطورة من ذلك، فلو استثنينا الآخرين فلم نتمكن من استثناء حقيقة كوننا ذكر وأنثى وما ينشأ عن ذلك من محاذير. أود من كل قلبي أن أتركك عندي لتكتسبي صحة وعافية ومهارات ولتتفتحي، وتظلي حولي تبعثين فيّ هذا الدفق من العاطفة التي أشعر بها الآن، والتي تساعدني على مجابهة الخوف من الموت.

صمت لدقائق وعاد إلى الحديث:

– قبل مجيئك، لم أكن أجد من أتحدث إليه، وشيئاً فشيئاً فقدت القدرة على النطق بما أحس به والتعبير عنه وها أنا في ذروة مشكلتي أود أن أفصح عما أشعر به، ليس لك بالضرورة فأنت لا تسمعين ما أقول، وليس لشخص معين فلا أحد يصغي لما أقول، ربما لنفسي، وأظنني بحاجة لمكاشفة نفسي بصوت مسموع. وهكذا ترين أنك مفيدة رغم الألم الذي سببه وجودك

لي والذي لا ذنب لك به. إن الأمر يتعلق بتراث من المفاهيم والعادات المغلوطة من الأوهام والانطباعات الخاطئة والأحكام المعدة سلفاً.

التفت إليها. كانت متجهة بكليتها إليه وكأنما وجدت السبيل إلى فهم ما يقول دون أن تسمعه. لاحظ تأثرها البالغ. قال:

– إنني أجد على الأقل من يعتقد بأني أقول شيئاً يستحق الانتباه سواء فهم أو لم يفهم ما أقول. شخص يفهم الكلام لأنه يصدر عني ويقبل به قبوله بي.

داعب شعرها بيده وفي هذه اللحظة سمع صوت حركة في باب الباحة. اختلط الأمر عليه ولم يعرف إذا كان القادم هو ابنته أم إنه البقال أم صبية الحارة. رفع يده عن شعرها بسرعة ونهض مرتبكاً وأمسك بها من يدها ودفعها باتجاه الداخل. انفتح الباب وعبرت منه سعاد ثم لحق بها زوجها ثم الخادمة التي دفعت عربة الطفل بيد وحملت باليد الأخرى كيساً بلاستيكياً. عانق سعاد وصافح زوجها وأفسح لهما الطريق. قالت سعاد وهي تتقدم إلى داخل الصالة:

– أبي. اجلسا تحت العريشة وأنا سأعطي تعليماتي للخادمة ثم ألحق بكما.

قال:

– لا تزعجي نفسك. المنزل نظيف.

ضربت على صدرها وقالت:

– أتسمي هذه نظافة، والله لا أعرف كيف تقبل العيش هكذا.

لو كانت أمي موجودة...

قاطعها زوجها وقال محتداً:

– أمك ليست موجودة، الله يرحمها. دعينا مع الحي.

تسمرت في مكانها حين رأت الفتاة تتقدم من جهة المطبخ.

حدقت فيها بازدراء شديد وقالت:

– تصوروا. تتمخطر مثل ربة بيت. بابا ماذا تفعل هذه هنا؟ ألم تقل إنك ستطردها؟

امتقع وجه الأستاذ حسان ولم ينبس ببنت شفة، فلقد كان يعرف أنها ستستغرب وجودها ولكنه لم يتوقع أن تجيء ردة فعلها بمثل هذه الحدة والقسوة، وكان امتقاع وجهه واختلاج قسماته من الشدة بحيث دفع زوج ابنته لأن يتصدى لها مجدداً وينقذ الموقف. قال:

– دعينا منها الآن وقومي بما جئنا من أجله.

تقدم نحو العريشة وتبعه الأستاذ حسان ناكس الرأس كمذنب ضبطته أمه في وقت لم يتوقع

فيه مجيئها.اتخذا مقعديهما. سأل الدكتور عن الصحة ثم صمت وبدا كأنه يتخير كلماته ثم بادره بالتعليق على الفتاة مفرقاً بين موقفه وموقف زوجته. قال:

– لا يبدو عليها الجنون.

ابتسم الأستاذ حسان ابتسامة مقتضبة وقال:

– كيف تتصور أنها في بيتي منذ أربعة أيام لو كانت مجنونة.

نقر الدكتور لفافته على ظهر القادحة. وقال:

– ولكن هذا ما فهمته من سعاد.

تمالك الأستاذ حسان نفسه أكثر ونظر في عيني الدكتور مباشرة وقال:

– صحيح، معاقة بالصم والبكم ولا أعرف شيئاً عن نشأتها أو ظرفها العائلي، هذا إذا كان لديها عائلة ولكنها أهملت وخرجت إلى الشوارع وبسبب الإهمال واحتقار الناس لها وعدوانهم عليها تولدت لديها دوافع عدوانية مما زاد وضعها النفسي تعقيداً.

إنها بحاجة إلى العناية ليس إلا.

قال الدكتور بلهجة منخفضة محاذراً إغضاب الأستاذ حسان:

– ولا أظنك أنت الذي ستعتني بها.

قال الأستاذ حسان:

– لا لست على وجه اليقين. ربما أرسلها إلى مصح الإمراض النفسية.

قال الدكتور بلهجة استعادت عافيتها:

– لا اعتقد أن مصح الأمراض النفسية سيقبل بها. إنَّ المسألة مسألة اختصاص. عليك أولاً أن تستدعي إلى وزارة التنمية الاجتماعية التي ستحيلها إلى طبيب وسوف يوصي بإرسالها إلى إحدى مؤسسات العناية بالصم والبكم وهذه مؤسسات خاصة.

جاءت سعاد وقالت:

– أبي. المنزل بحالة مزرية.

قال الدكتور:

– اجلسي طالما أن الخادمة ستقول بالعمل. إننا نبحث أمر الفتاة.

قالت:

– انسيا أمر الفتاة.

التفت الأستاذ حسان نحوها مندهشاً مما تقول. وسأل الدكتور عما تعني. قالت:

– لقد ذهبت.

سألها الأستاذ حسان وقد خمن ما حصل.

- كيف؟

قالت:

- لقد طردتها وخلصتك منها.

طلبت من زوجها لفافة تبغ وجلست تدخنها فيما انصرف الدكتور لتأمل قطوف العنب تفادياً للحديث وانكفأ الأستاذ حسان داخل نفسه، وران صمت على الجميع.

جاء لطفي وزوجته وطفلاه وأثاروا ضجيجاً منذ لحظة دخولهم. اختلط الجميع، تبادلوا العناق والتحيات ووجد الأستاذ حسان نفسه مكرهاً على تقبل الوضع على علاته، فهو ينفر من الفوضى التي يسببها طفلا لطفي ولا يستطيع أن يخرج ليستعلم أمر الفتاة.

انشغلت المرأتان فوراً بتحضير اللحم للشواء ووجد الطفلان نفسيهما بلا رقابة، فعبثا بمحتويات صالة الجلوس. صعد أكبرهما على مقعد وأنزل الصورة المؤطرة والمعلقة على الجدران وامتدت يد الأصغر إلى الكتب فأسقط بعضها على الأرض. أما الرجال الثلاثة فقد جلسوا لتبادل الحديث. اغتنم لطفي المناسبة ليعلن أن لديه خططاً لبناء منزل جديد يكون لأبيه فيه شقة مستقلة ووجه الحديث مباشرة إلى زوج شقيقته. وقال:

- لقد عثرت على قطعة أرض مناسبة بسعر لن تصدق رخصه.

بدا الاهتمام واضحاً على الدكتور وسأل عن الموقع. قال لطفي:

- أتعرف منزل الدكتور حسن الحسّان في تلاع العلي.

أجاب الدكتور بالإيجاب.

- إنها القطعة التي تعلوها مباشرة.

قال الدكتور: إنها قطعة جيدة لا شك قد سبق لي أن وقفت بها. ثم سأل بفضول عن ثمنها.

قال لطفي بلهجة الشخص الذي يحمل معه دائماً أخبار إنجازاته فيفرج عن بعضها ويكتم البعض الآخر:

- سأقول لك حين تتم الصفقة.

أتضح أن للاثنين اهتمامات مشتركة بالاتجار في الأراضي. فخاضا في موضوعاتها بانسجام كامل. استمع الأستاذ حسان بنفاذ صبر إلى الحديث الذي لا يعنيه بشيء بل والذي يأسف له لأنه يكشف عن المدى الذي يختلف فيه ابنه عنه ثم نهض فجأة وقال:

- اعذراني. لم اشتر صحفاً اليوم. سأذهب لآتي بصحيفة.

علق لطفي دون أن يكلف خاطره الالتفات إلى أبيه.

- أرح دماغك مرة من الأخبار.

لم يستلطف الأستاذ حسان ملاحظة أبنه فقال محتداً:

- أنت تعرف أنني أقرأ الصحف كل يوم وكان بإمكانك أن تحضر لي صحيفة. على كل حال المكان قريب.

استأذن.

تركهما يتابعان الحديث وذهب لشراء صحيفة. وما أن أغلق الباب خلفه حتى فكر بغرابة ما يحدث له والمفارقة بينه وبن ابنه. ففي حين أن ابنه يخطط لبناء منزل مشترك ويعمل على تنمية ثروته ويتقدم على طريق الإثراء يبحث هو بلهفة عن فتاة صغيرة معاقة أولاها جل اهتمامه. جال في الشوارع طمعاً في رؤيتها لكنه لم يعثر عليها فأخذ طريقه إلى البقال. ترك السيارة واستل صحيفة من بين كومة الصحف المنسقة في الخارج وطلب أيضاً علبة تبغ. مد للبقال ديناراً وقال:

- اعتذر عن عدم استقبالك في الصباح فقد كنت منشغلاً بأمور المنزل.

قال البقال مبدياً احتشاماً. فاته المحافظة عليه لدى زيارته الصباحية. المقلقة:

- لا شيء مهم. كنت ماراً بالصدفة وأردت أن اطمئن عليك فقط.

اغتنم الفرصة لمحو الأثر السلبي لاستقباله غير الودي له. قال:

- أشكرك من صميم قلبي.كنت أتمنى أن مرورك كان في وقت أفضل من هذا. أرجو أن لا تكون قد غضبت.

وجه البقال له طعنة جارحة وقال:

- لماذا أغضب؟ الواحد يقدم ما لديه.

شعر بعمق الطعنة. رغب في أن يمد في الكلام ولكن زبائن آخرين أشغلوا البقال فابتعد مخذولاً. لحق به البقال وقال:

- أستاذ. نقودك.

أخذ النقود ولم يعرف بماذا يفسر ذهوله. طامن رأسه واستقل سيارته.

كانت النار قد اشتعلت في الموقد وحولت الفحم إلى جمر. جلست المرأتان قرب الموقد وانهمكتا في الشواء. حياهم وجلس ثم احتجب خلف الصحيفة. سمع لطفي يقول أن والده

أضاع فرصاً كثيرة من هذا القبيل. لفت الحديث انتباهه فتوقف عن القراءة وأنصت. غير أن الدكتور أعاد الحديث إلى لطفي.

قال له:

- ولكنك عوضت الذي ضاع.

ضحك وقال: أنا اقتنص كل فرصة ملائمة.

قالت زوجته:

- ولهذا تزوجتني، لأن أبي ثري.

رد عليها من خلال ضحكة مجلجلة:

-سامحك الله، تزوجتك بدافع الحب وحده.

ردت عليه:

- ولكنك تحب المال أكثر.

تفجر ضحك الجميع لهذه المناكفة الزوجية المستطرفة، بأستثناء الأستاذ حسان الذي شعر باغتراب شديد.

التفت لطفي إلى أبيه ثم خاطب الدكتور قائلاً:

- هذا أبي طوال حياته يستغرق في قراءة صحيفة أو كتاب ولا يسأل عما يجري حوله.

كان الأستاذ حسان يحاول أن يستقصي أسباب اغترابه دون جدوى، في الوقت الذي قال ابنه جملته هذه، أبعد الصحيفة عنه وأعتذر.

قالت سعاد:

- لاتصدقه.

قال لطفي:

- بالطبع كنت أمزح، أرأيتم؟ ها قد ترك الصحيفة من يده.

سأله الدكتور عن الإخبار. فقال:

- لا شيء جديد، الكل يتسابق على تأييد قرار مجلس الأمن رقم ٨٣٣ ومع ذلك فإنه سيبقى في الإدراج لأن إسرائيل لن ترضى به.

قال الدكتور: ولماذا قرار الأمن ٨٣٣ وهناك قرار مجلس الأمن ٢٤٢.

قال لطفي: إنني أرفض جميع قرارات الأمن.

قال الأستاذ حسان:

– رويدك. لو كنا قبلنا قرارات الأمم المتحدة سنة ٧٤٩١م. لما كان حالنا مثلما هو الآن. في ذلك الوقت قرر العالم ونحن رفضنا والآن نقبل وإسرائيل ترفض.

قال الأستاذ حسان:

– انتبهوا، الوضع خطير ويزداد خطورة. أعتقد أننا إذا طالبنا بتطبيق جميع قرارات الأمم المتحدة فسوف نستميل الرأي العام العالمي إلى جانبنا ونعزل إسرائيل.

قالت سعاد:

– لطفي اجلب المائدة من الصالة.

نهض لطفي وأتى بالمائدة التي سرعان ما امتلأت بالأطباق. جاءوا بمقاعد من المطبخ وتحلقوا جميعا حول المائدة. تناولوا اللحم المشوي والكباب والسلطة وشربوا المرطبات ثم أكلوا الفاكهة.

غسلت الخادمة الأطباق وجاءت بالقهوة. شربوا القهوة وتذرعوا بالحاجة إلى النوم واستأذنوه بالانصراف.

انصرفوا بجلبة أخفت من جلبة مجيئهم. ودّعوه ولم يلتفتوا إلى الخلف ليروا ماذا حل به. شيعهم بنظرات باردة ورأى باب الباحة يغلق وشعر بالهدوء يسود المكان من جديد. دهمته وحشة كبيرة وهو يتفحص الفراغ. لا جديد في هذا الفراغ لا جديد في هذا الهدوء. فلماذا القلق والحيرة. هكذا فكر وهو يشعل لفافة وينظر إلى الباب المغلق. تعلق قلبه وبصره بالباب. ظنها ستعود، ولكن الوقت طال ولم تعد. لقد قاوم النعاس وهو يترقب مجيئها. يغفو لحظة فيهيأ له أن الباب فتح وأنها انسلت إلى الداخل. أدرك أخيراً أنها لن تعود هذه المرة ثم قال لنفسه كنت سأتخلص منها على أية حال. ولكنه لا ينظر إلى غيابها بسرور كما توقع ولم تعد وحدته مستساغة كما اعتقد. تغلغل فيه النعاس شيئاً فشيئاً فغلبه النوم.

أفاق بعد ساعة وسط سكون شامل وخواء. تلفت ببصره. ليس هناك جديد وهي لم تعد. لن تعود أبداً قال لنفسه. لقد عرفت الآن كرامة نفسها ولن تعود لتطرد من جديد.

خرج إلى الباحة، تعلل بحاجته إلى الهواء، فتح باب الباحة ووقف يرقب حركة الناس. آملاً أملاً ضئيلاً بعودتها ولكنه ضجر من الوقوف فعاد إلى الداخل. غسل وجهه ومشط شعره وتابع قراءة الجريدة، نحى الجريدة جانباً ونظر إلى ساعته. لقد تجاوزت الخامسة بقليل. انقضت ساعات على غيبتها. ستكون قد ابتعدت كثيراً ولا رجاء في عودتها ولا جدوى من الانتظار. ارتدى ملابسه وخرج.

ذهب إلى المقهى. فوجيء بهم مجتمعين في وقت أبكر من المعتاد. آنسه وجودهم وخفف من حدة تجهمه، فأقبل عليهم باشا. حياهم بحرارة كأنه يلتقيهم بعد غياب طال. فكر برهافة النفس البشرية فقد كان للحظات خلت منقبض النفس أليم المشاعر، وهانفسه تصفو وينقشع همها وها هو يتصل بود كبير بخلاّنه، أحب قسماتهم وانهماكهم باللعب وانصرافهم عن صغائر الأمور. أحبهم أكثر من أي وقت مضى وشغف بسيمائهم وحين رفع الصديق الذي خاض غمار السياسة رأسه وجد نفسه يبتسم له بود كبير وقابله بابتسامة بذات الود وسأله عن الحال. قال:

- كما ترى بأحسن حال.

ولم يسأله عن حاله لأنه يعرف أنه دائم الرضى حين يكون طليقاً وما دام طليقاً فهو لا شك بأحسن حال.

خاض غمار ثلاث لعبات هذه الليلة، كسب اثنتين منها واعتذر عن إتمام اللعبة الثالثة، فقد امتد وقت اللعب وحان موعد عودتهم إلى منازلهم. اتفقوا على متابعة اللعبة ذاتها في الغد من المرحلة التي وصلت إليها، وكأن كل منهما يملك القدرة على استعادة الوضع من الذاكرة بدون زلل.

عاد إلى المنزل كما في كل مساء سبق، لا ينتظر أحداً ولا يتوقع خروجاً على المألوف فكل شيء باق على حاله. يعرف سلفاً أي فراغ بانتظاره ويعرف كيف يتغلب عليه. لقد انصرمت ألف ليلة وستأتي ألف ليلة أخرى ولا يتغير عليه شيء.

أضاء غرفة الجلوس. كان كل شيء في مكانه المعتاد، في موضعه الآنس المتكتم على رضاه أو شكواه، والوقت بعد التاسعة في موعد أوبته المسائية. بإمكانه أن يضيء التلفاز أو يقرأ كتاباً أو يستعيد جولة الشطرنج التي لم تكتمل ويستعد لجولة الغد أو يجلس رافعاً قدميه على المنضدة،

مستعيداً بقليل من الخمول وكثير من المتعة وقائع نهاره أو يتجه إلى المطبخ ليعد عشاءً أو شاياً ويأتي به إلى الصالة. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. لم يفعل شيئاً أو يرغب في فعل شيء. افتقد ذلك البهاء الداخلي كما لو أن الضوء انسل من داخله وملأ الظلام جوفه، وبدا له فجأة أن كل ما يحيط به شاحب وكئيب وأن نفسه هرمت مرة واحدة وأن السبل قد انقطعت به وأنه ترك وحيداً، فلا معين أو رفيق، وأن الفراغ الوحشي سيحاصره ويقضي عليه لا بد، قال بوجع:

ياالله، يا الله، يا الله.

وقف وأطفأ الضوء الذي يكشف الفراغ القاتل فقط ولا يبعث إليه بمسرة. أطفأ الضوء وجلس. لم تكن إلا فتاة صغيرة شوهاء ومعاقة، فتاة ضعيفة وقذرة، لم تكن ذات فائدة ولا رونق ومع ذلك بعثت فيه هذا الضوء الذي يفتقده الآن.

قال مرة أخرى:

– يا لله، لماذا ألزمتني بها أنا الضعيف الذي يتفقد سلامة نفسه كل يوم ويشكرك لأنك منحته فرصة حياة يوم آخر؟ لماذا ألزمتني بها وبيننا كل هذا المدى. لها الحارات والخوف والكراهية، ولي هذا الحيز الضيق وهذا الأمان. لها سقف الليل غطاء وفتات الطعام غداء ولي الملاذ.

اشتد الوجع عليه واخذ الضيق بخناقه فذهب إلى غرفته وأخذ مسكناً قوياً ونام.

السبت

نادراً ما تتشابه صباحات السبت الأولى لدى الناس، فإما أن يكون الواحد قد أمضى يوم عطلة مضجر ولم يمنحه المكوث في المنزل إلا مزيداً من الضجر، فينهض حاثاً نفسه على الإسراع في الخروج ليحظى باتصال إنساني أكثر دفئاً، وإما أن يكون قد قضى يوماً ممتعاً يودّ لو يطول.

أما الأستاذ حسان الذي نام بفعل مسكن قوي، فلم يكن لديه شيء من هذا ولا ذاك، كان كمن وجد نفسه بغتة في منام مختلف، يحتاج معه لبعض الوقت ليتكيف مع ما حوله. فقد مضت بسرعة هاربة وقائع صباحاته قبل مجيء الفتاة وقد كان يقضي الوقت هنيهة هنيهة منجزاً على التوالي واجباً أو وظيفة صباحية، كما أنه كره بقوة تذكر الصباحات الأربعة السابقة، لما سببته له من بلبلة وإزعاج، وبدون تيقن مما يمكن فعله الآن ومما سوف يكون عليه نهاره، نظر بكثير من البله إلى الخزانة المغلقة التي لم تبرح مكانها منذ انتقاله للسكن في هذا المنزل وركز النظر عليها، كما لو كانت ذات قيمة كبيرة أو كما لو أن انغلاقها يغلق عليه فكرة أيضاً، وبعد برهة من التأمل العقيم، نهض وفتح بابها المزدوج وأدرك إذّاك أنها لا تعني شيئاً، فأعاد إغلاقها وخرج من الغرفة إلى المطبخ حيث تحسس جوع معدته، وتذكر أنه لم يتناول طعام العشاء. فتح الثلاجة ووجدها تمتلئ باللحم المشوي والفاكهة.

أكل اللحم المشوي بارداً وشرب كثيراً من الماء، وتذكر أنه يتوجب عليه أن يستعد للذهاب إلى المدرسة. دخل إلى الحمام فاغتسل وحلق لحيته وارتدى ملابسه وخرج. لم يلحظ في الحيّ حركة مريبة تشير إلى وجود الفتاة وهجوم الأولاد عليها رغم انتشارهم في الشارع. قال لنفسه:
" تكون قد فعلت خيراً للجميع لو أنها انتقلت إلى حيّ آخر ".

تابع طريقه إلى المدرسة باكثرات أقل للفوضى التي عمت حياته ودون خطط لبقية النهار، آملاً أن تنقضي ساعات الدوام على النحو المعهود، غير أنه استراب من الأحاديث التي تبادلها المدرسون حين اجتمعوا في مكتبه حول خطة شاملة للتنقلات والترقيات وإحالات على التقاعد بهدف إضفاء صيغة معينة على التعليم.

طوى قلقه وخوفه وسّير أمور المدرسة بشكل جيد.

ناقش المدرسين بمواد التدريس والصعوبات التي يواجهونها وأخذ بعض الملاحظات ووعد بإيصالها إلى المسؤولين. وحين أغلقت المدرسة أبوابها واستقل سيارته أيقن أن شيئاً غير مطمئن سيحدث له ولم يستطع أن يخمن ما هو ولهذا قرر أن يعود إلى المنزل.

ارتدى منامته فور دخوله المنزل وألقى بنفسه على سريره وأغمض عينيه. فكر أن أسوأ ما يمكن حدوثه هو إحالته على التقاعد. وتساءل لماذا هو مرتعب على الدوام من فكرة الإحالة على التقاعد، ألأنه يخشى البطالة أم لأنه يخشى الإشارة إليه بالمتقاعد، فيتعمق إحساسه بالهرم وأفول العمر؟ إنه لا يستطيع أن ينكر العمر الذي بلغ، ولا يغير في شيء كونه ما زال موظفاً، فألامر يعود إليه، إلى إرادته، إلى رغبته في مقاومة الموت. إن باستطاعته فعل الكثير حتى لو أحيل على التقاعد، باستطاعته أن يعمل مدرساً عادياً في مدرسة خاصة مثلاً وبذلك يزيد من دخله. إن أي مدرسة خاصة سترحب به لدى المفاضلة بينه وبين مدرس حديث العهد بالتدريس. هكذا، وبقليل من الدراية يحول الكارثة المترقبة إلى مكسب.

خفتت حدّة هياجه العصبي وذهبت مخاوفه، وبعد قليل ثقل جفناه فنام، أفاق بعد وقت قصير على صوت سقوط جسم في باحة منزله. فتح عينيه مرتعباً ثم نهض ليستطلع الأمر. رأى الفتاة ملقاة على الأرض وقد تمزق ثوبها. أسرع إليها وحملها بين يديه ودخل بها، وضعها على المقعد الطويل وتفحص جسدها. كانت الكدمات ظاهرة في أكثر من مكان. نظرت إليه بعينين متسولتين وأشارت إلى مؤخرتها. كشف عن مؤخرتها واكتشف أنها ضربت بأداة تشبه السوط. لم يكوّن فكرة عما يتوجب عليه عمله في هذه الحال. تركها وجلس متفكراً بأمرها، مشفقاً عليها وهانئاً بعودتها.

سمع طرقاً على الباب، فقدر أن له صلة بالاعتداء عليها، خرج وفتح الباب. فوجئ برجال لا يعرفهم بينهم البقال. واجهوه بنظر عابس وملامح قاسية، قال البقال:

– زبونتك عضّت الولد.

أفسحوا المجال للصبي الذي أشهر بوجهه يده المعضوضة.

امتعض من قول البقال <زبونتك" ومن مداهمتهم لمنزله. قال للبقال:

– زبونتي!! ماذا تعني بذلك.

غض البقال من بصره. وقال متمتماً:

- أعني ما أعني.

قال أحدهم:

- أيرضيك هذا؟

وقال والد الصبي:

- هذه جريمة برقبتك.

اعتقد الأستاذ حسان أن لا ذنب له فيما حصل، وأن الاشتباك وقع في ساحتهم وليس في بيته، قال:

- جريمتي أنا أم جريمتكم أنتم. أنا أخرجت الفتاة من منزلي لأن لي الحق في حماية نفسي، فهاجمها أولادكم، ضربوها بقسوة وأعادوها إليّ، فمن يكون المجرم أنا أم أولادكم.

رد عليه البادئ:

- نعم جريمتك أنت، لولا حمايتك ورعايتك لما جرؤت على عضّ أحد.من قبل كانت تنفر من الصبية، ولا تؤذي أحداً.

بوغت الأستاذ حسان بهذا الإصرار على الإدانة وفكر في صعوبة الموقف، وهاله أن يصبح موضع عداء أهل الحي. قال:

- يا جماعة البنت مجنونة، والأولاد يهاجمونها فترد عليهم، وكان هذا هو الحال دائما.

قال أحدهم:

- إذا كانت مجنونة فلماذا تتستر عليها، أم أن لك مأرباً فيها!

تضرج وجهه وأدرك ما يرمون إليه قال:

- الله يسامحكم. ماذا يكون مأربي، الفتاة التجأت إلى منزلي بعد أن ضربت بشدة، وأبو علي يعرف ذلك، وهو الذي أوصاني بعدم إخبار الشرطة وتركها في المنزل، إلى أن تأمن جانب الأولاد فتخرج من تلقاء نفسها. صححني يا أبا علي إن كنت أكذب.

قال أبو علي:

- صحيح، ولكن مكوثها طال لديك، وعندما سألتك عنها أنكرت وجودها.

قال:

- إنني لم أنكر، قلت أن الفتاة تغادر المنزل وتعود لترتمي في الباحة أثناء غيابي، أنا أغيب

عن المنزل طيلة النهار كما تلاحظون.

قال ابو علي:

- كلامك غير صحيح.

قال محتداً:

- أختر كلامك بدقة أبا علي، أنا لا أكذب، وبقالتك بعيدة عن منزلي، فكيف تعرف، أم أنك تترك بقالتك لتراقب منزلي.

بدا وكأنه نجح في السيطرة على الموقف، لولا أن أحدهم قال ساخراً:

- لماذا قصصت شعرها وألبستها ثوبا جديداً؟

نظر إلى القائل ثم إليهم جميعاً.

- حاولت إخراجها من المنزل بالقوة وأبو علي يعرف ذلك، ولما عييت، قصصت شعرها وأعطيتها ثوباً جديداً، وأحرقت شعرها والثوب القديم لكي أتخلص من القمل. هل في هذا ما يدعو إلى الملامة؟ إنها الآن أنظف من قبل، فأي ضرر في ذلك؟ لقد اعتادت على منزلي، وها هي تعود إليه بعد أن طردتها منه، لأنّ أولادكم هاجموها، فهل أقبل بوجودها القذر وأترك القمل يسرح في منزلي؟

قال أحدهم:

- يا جماعة، الرجل فاضل، وتصرف بدون سوء. المهم أن يبعد شرها عنا طالما الأمر كذلك.

أيده كثيرون وقالوا:

- صحيح.إن ما يهمنا أن لا نراها في الشارع، لا نريد مشاكل لأولادنا.

قال الأستاذ حسان:

- يا جماعة، هذا كثير أنا لا أستطيع الاحتفاظ بها عندي، ابحثوا عن حل آخر.

قال البقال:

- يا جماعة، الأستاذ لا يريد أن يتعاون معنا ولا يريد أن يستقبلها في منزله،قلنا ما عندنا فلنذهب الآن.

ربط الأستاذ حسان بين عدم استقباله للبقال وبين ما يجري الآن، ولم يعد لديه الآن ما يخفيه، فالجميع يعرفون أنها في الداخل. قال:

- بالعكس يا جيران، أستحلفكم بالله أن تدخلوا ولنبحث معاً عن حل لهذه المشكلة.

تراجع إلى الداخل وأفسح لهم الطريق. ثم ألح بالدعوة.

وبدا له أنهم لم يأتوا جميعاً بدافع الغضب فقد جاء بعضهم بدافع الفضول، ليرى المدرس الذي سمح لمجنونة بالإقامة في منزله، ولهذا رغب البعض في الدخول بينما رفض آخرون الدعوة إمعاناً بالغضب، وحين ألحف بالدعوة واستحلفهم مرة أخرى، تقدم البعض منهم ولحق بهم آخرون على مضض ثم دخل الجميع.

هربت الفتاة حين رأتهم يدخلون ولاذت بالحديقة الخلفية. سأل الأستاذ حسان عن رأيهم بتناول الشاي. صمت البعض وكشف آخرون عن روح متسامحة ورددوا بترحاب.

- نشرب شايك يا أستاذ.

تركهم يتبادلون النظر فيما بينهم ودخل ليعد الشاي.أعد خطبة فيما كان يحضر الشاي. خال كلامه قوياً بليغاً مؤثراً." أنها ليست مجنونة كما يتبادر لكم.مجرد صبية بكماء وصماء لا ضير منها على الإطلاق. المشكلة تكمن في إنكار إنسانيتها والتعدي على حريتها مما ولد في نفسها نوازع العدوان. أنا واثق من ذلك لأنني رأيت بنفسي كيف فعلت بها المعاملة الإنسانية وبعثت فيها آمالاً بأنه سيتسنى لها العيش كأي فتاة طبيعية بعيداً عن الاضطهاد والخوف. وبذلك تصبح مفيدة. إن تقبلكم لها وتعاملكم معها كما يليق بإنسانة يمكن أن يجنب الحيّ كله هذا الهياج الذي يتولّد عن حضورها غير المستحب. بإمكان كل واحد منا أن يستضيفها يوماً في منزله وبذلك نساهم جميعاً في عمل إنساني نبيل".

عاد إليهم بالشاي وبعد أن وزع الكؤوس جلس وأخذ نفساً طويلاً وهيأ نفسه لإلقاء خطبته، غير أن واحداً ممن بقي على غضبه وتأزمه سبقه وقال:

- قبل شرب الشاي لنا طلب عندك.

نظر إليه بثقة الممسك بزمام الأمور والصبور الرضيّ وقال:

- تفضل.

قال:

- لا نريد أن نرى الفتاة في الشوارع. أغلق عليها الباب.

وقال والد الصبي:

- هذا أقل ما يمكنك أن تفعله لجيرانك. لا نريد مشاكل بيننا.

نسي كلامه البليغ وقال باضطراب:
- يا جماعة هذا كثير أنا لا استطيع الاحتفاظ بها.

قال أكثر من واحد في آن واحد:
- بل تستطيع.
صمت وصمت الآخرون. وجد البقال أن الوقت مناسب لتوضيح موقفه فقال:
- هذا ما جئت لأقوله لك أستاذ ولكنك لم تحترم الجيرة وأغلقت الباب في وجهي.
رفع الأستاذ حسان رأسه المثقل بالهم ونظر في عيني البقال وقال:
- سامحك الله أبا علي. أنت تعرف ما لديك ولا تعرف ما لدي. كان البيت في حالة فوضى والماء يغمره لأنني كنت مشغولاً في تنظيفه، بانتظار أولادي. أنت تعرف - الله يرحم زوجتي - إنني أعيش وحيداً. والرجل لا يعاب إذا نظف منزله. ولكنه لا يستطيع استقبال صديق في تلك الحالة.

تابع البقال ممعناً في إدانته:
- ولكنك لم تقل حتى كلمة اعتذار واحدة.
أخذ الأستاذ حسان على غرة فهو لم يفشل فقط في إدارة الحديث على نحو يبرر مسلكه ويزين أفعاله بل جلب لنفسه ملامة لا يمكن ردّها أو الانتقاص منها. طامن رأسه وبعد أن تباطأ وجيب قلبه رفع رأسه ولاحظ تحولاً في موقف الآخرين، أراد الأستاذ حسان الاعتذار عما فاته الاعتذار عنه، غير أن أحدهم أعفاه ووجه كلامه للبقال قائلاً:
- ما جئنا هنا للعتاب. جئنا لحل مشكلة. قال الأستاذ حسان متفرجاً ومتجاوزاً الخطبة التي أعدها:
- لديّ الحل.

نظروا إليه جميعاً متسائلين. قال:
- نستدعي لوزارة التنمية باسمكم جميعاً.
ولما حظي اقتراحه بالرضا أحضر ورقاً وقلماً وخط طلباً إلى الوزارة.
وقعوا جميعاً عليه ثم استأذنوا وانصرفوا، حاثين إياه على تقديم الطلب غداً وأن يكون هذا أول شيء يفعله، ولم يهمل والد الطفل تذكيره بقاء الفتاة في منزله إلى أن تستلمها الوزارة،

شيعهم إلى الخارج وعاد. تنفس الصعداء حين دخل ولكنه لم يلبث أن شعر بثقل المسؤولية التي ألقيت على كاهله وأنه وضع نفسه بين فكي كماشة. سعاد ولطفي لن يقبلا بوجود الفتاة في المنزل وأهل الحيّ لا يريدون لها الخروج. فماذا هو فاعل الآن؟

صحيح أن حياته لم تكن دائماً على ما يرام وأنه لم يحظ إلا بالقليل من المسرات بل إنّه تجرع من الخيبات أكثر مما نال من المسرات وإنّه لم يحقق ما كان يصبو إليه، إلا أن حياته رغم ذلك استقرت على نحو مريح وآمن وإن خلت من أي رونق وكانت ستستمر هكذا دون مفاجآت مدهشة أليمة أو باعثة على السرور لولا هذه الحادثة العارضة التي كان يمكن أن تبقى عارضة لولا سلوكه العبثي اللعين الذي أخل بإيقاع حياته وتوازنه.

أمسك بالاستدعاء الموقع من أهل الحيّ وفكر بالكذبة التي ينطوي عليها. فمن يصدق أن وزارة التنمية ستستجيب لبضعة تواقيع وتأخذها الرأفة بالفتاة فتحضنها وترتب لها ما تحتاجه من مأوى وتعليم وتدريب.ثمة عشرات من أمثالها في شوارع عمان ولم تحفل وزارة التنمية ومؤسسات الدولة بهن. وإذا كانت الكذبة واضحة له على هذا النحو فلماذا سوّغها؟. أثمة أمر يبطنه ولا يدركه بوضوح؟. أثمة دوافع لم تعلن عن نفسها تملي عليه تصرفاته؟. لو أنه منح بعض الوقت لكاشف نفسه بدون مواربة أو استحياء ولكن الأحداث أخذته بتسارعها فلا يكاد يخرج من أزمة إلا ويواجه أزمة أخرى.

نهض وتجول في الصالة، متأزماً محشوراً بين فكيّ الوقت والواقع. لو كان يملك فقط بعضاً من الوقت لفكر بحرية وهدوء واتخذ الترتيبات الملائمة.

إنه الوقت عدوه الدائم. الوقت الذي أفسد عليه أكثر من مرة مشروعاً كان سيزهو أو علاقة كانت ستثمر. ثمة وقت محدد يتأبى على الامتداد فيفرض عليه ما لا يسره. حين كان أبوه على فراش الموت قال له برجاء، " أريد لك زوجة وولداً قبل وفاتي".

كان وقت أبيه ينتهي ووقته لم يبدأ بعد. ولكن وقته تحدد بمشيئة أبيه فتزوج في الوقت غير الملائم وقبل على مضض بما فرضه الوقت عليه، وبعد الزواج أبدى رفضه لفكرة إنجاب طفل في وقت مبكر لأن لديه خططاً وآمالاً ولكن الطفل مع ذلك جاء عنوة وفي الوقت غير الملائم فأفسد عليه خططه وبعثر آماله. إنه الوقت المعضلة، الوقت الذي وقف دائماً ضده. فلم يعرف كيف

يقيس ويرتب أشياءه على مقاسه. حين تقدم إلى امتحان القبول المخصص للسلك الخارجي، تلعثم وصرف وقتاً قبل أن يجمع شتات نفسه وينسق إجاباته، فانتهى الوقت قبل أن يجيب على سؤال واحد بشكل لائق. ولكن الوقت يكون أحياناً فضفاضاً إلى الحد الذي يربكه. حين يقبض راتبه يتصرف به قبل وقت الراتب القادم بكثير. فتنقطع به السبل ويقع في العوز ويطول انتظاره لموعد الراتب القادم. وحين كان نهاره ينتهي وتخلد زوجته للنوم مبكرة يجد الوقت المناسب للنوم أطول مما ينبغي فيصعب عليه انتظاره ويرهق روحه إذ يستعرض في الوقت الطويل عثراته. وحين قرر أن لا يعذب نفسه بانتظار النوم وأن يعمل شيئاً مفيداً مثل القراءة والكتابة، اكتشف أن الوقت قصير لا يسعفه في إنجاز شيء. إنه الوقت المعضلة الزائفة. لم يمسك به أبداً في الوقت الملائم. يرغب في شيء ينتفع منه؛ فيفشل في الحصول عليه أو يحصل عليه بعد فوات الوقت الملائم، فلا ينتفع منه، يقوم بزيارة في غير وقتها الملائم فترتد وبالاً عليه. كيف يتعرف الآخرون على الوقت الملائم وينجزون أعمالهم في الوقت الملائم. ويقولون كلامهم في الوقت الملائم ويصمتون في الوقت الملائم. وكيف يقيسون وقتهم فتأتي ثمرة أعمالهم في الوقت المحدد تامة متكاملة غير معابة. والآن كم لديه من الوقت لتدبير الأمر بروية ودون أخطاء. كم تبقى له من الوقت قبل أن يموت؟.

رغب في فنجان قهوة فذهب إلى المطبخ ورآها تحت العريشة. أعد قهوته وحملها إلى العريشة. اقتربت منه حذرة وجلست على المقعد المجاور.

ابتسم لها مطمئناً وقال:

"أعتقد أنك ستبقين هنا بعض الوقت ولكن ينبغي أن تتعلمي حسن التصرف في حضرتي".ضحك من نفسه إذ رآها تنظر إليه جاهلة بما يقول ومع ذلك تابع: يجب أن تتعلمي كيف تغتسلي لوحدك. اذهبي واغتسلي الآن، اذهبي.

نظر في عينيها المتسائلتين، قال:

– حمام، لا تعرفين معنى حمام، ثم ضحك مجدداً وحرك يديه ليفهمها إنه يريد منها أن تذهب إلى الحمام وتغتسل. هزت رأسها موافقة وذهبت إلى الحمام. ترك العريشة ودخل غرفة ابنته. عثر لها على ثوب مناسب وجلس بانتظار خروجها من الحمام، تذكر أنه لم يترك لها منشفة تخصها، فقد بات عليه الآن أن يحضر لها مناشف تختلف عن مناشفه ثم إنه حان الوقت لكي تجفف نفسها وترتدي ثوبها داخل الحمام، فلا تخرج إليه هكذا ببساطة

لتعرض جسدها الغض بمنشفة مثيرة.توجه إلى الحمام ولكنه لم يدخل بدون استئذان مثلما فعل سابقاً. قرع الباب وتريث. لم تفتح. خاطب نفسه، اللعنة" إذ تذكر أنها صماء". فتح الباب بحذر فتحة لم تكن كافية ليراها فاضطر لتوسيع الفتحة أكثر وغض بصره حين بدت له بعريها الكامل وقد كستها رغوة الصابون. علق الفستان والمنشفة على مقبض الباب من الداخل وأغلقه.

جلس في الصالة بانتظار خروجها من الحمام وتصفَّح في هذه الأثناء الصحيفة التي أحضرها معه ثم أستغرق في قراءتها. فوجئ بها تقف قبالته مرتدية الثوب الذي أدخله إليها.

نطق بسرور:

– أنك تتعلمين بسرعة أيتها الصغيرة.

ركن الصحيفة جانباً وأرغم نفسه على تأمل قسماتها. ثم رفعت إضمامة أصابعها وحركتها بهزة خفيفة. فهم من ذلك أنها تستحسن الفستان. دفع استحسانها للفستان فكرة أن يشتري لها واحداً خاصاً بها وعلى مقاسها. أشار إلى الفستان ثم إلى صدره ثم إلى الخارج. ثم رسم في الهواء أشكالاً مختلفة لفساتين متعددة وأنه سيختار لها واحداً. ابتسمت ومدت أصابعها إلى عينيها لتقول له انظر ثم انحنت وأشارت إلى ساقها أسفل الركبة بقليل ورفعت كفها.

فهم أنها تريد الفستان بهذا الطول فقط. قام بحركة مماثلة ليؤكد لها أنه يوافقها الرأي. وجهت أصبعها نحو سترته ودفعت أصبعها باتجاهه مرتين. أشار إليها مستفهماً، أعادت الحركة مرة أخرى ولكنه ظل على جهله واستفهم مجدداً، اقتربت منه وضغطت أصبعها على سترته وقامت بنفس الحركات التي قام بها قبل قليل لتمثيل الذهاب لانتقاء وشراء فستان. أدرك ما ترمي إليه. فتفجر فرح في داخله وتدفق. أحاطها بذراعه وضمها إليه منتشياً بالعاطفة التي أسبغتها عليه. تذكر أنه لم يشتر هنداماً منذ أكثر من خمس سنوات وأن هندامه هذا فقد لونه من كثرة اللبس والتنظيف.

كان هذا شأنه طوال حياته، فلم يكن لديه الوفر المالي ليخصّ نفسه بملابس جديدة ولم يكن لديه في أي وقت من الأوقات حذاء أو قميص أو هندام لائق أو ربطة عنق مقبولة، فهذه كلها ليست في مقدمة أولوياته. ولم يقتصر الأمر على ملابسه فقط بل تعداه إلى أثاث المنزل الذي اكتفى بالضروري منه رخيص الثمن، باستثناء أثاث غرفة النوم والذي صنع من أجود أنواع الخشب مع زخرفة للحواف والأطراف تتناسب مع الذوق الذي ساد وقت زواجه. وكذلك أمر

السيارة القديمة التي حصل عليها بشق النفس بعد أن انتقل للسكن في هذا المسكن القصي. وكان من شأن أية ملاحظة حول بؤس ملابسه أن تثير لديه اكتئاباً شديداً. فليس بوسعه لو رغب في هندام جديد أن يقتر على العائلة ليستأثر وحده بمغنم كهذا. غير أن الاهتمام الخالص الكليّ البراءة الذي أظهرته نحوه لتحسين لياقته هو مبعث فرح شديد. فما من أحد قبلها أبدى نحوه مثل هذا الاهتمام.

التفت إليها، لاحظ أنها رغم السعادة التي تشعر بها تتوجع. قام بحركات ليوضح لها أنه سيقوم بإعداد شيء للأكل وإنه سيتركها لتستريح ويذهب هو إلى المطبخ. أبدت رغبة في مصاحبته لكنه أصر على الرفض وجعلها تستلقي على بطنها وكشف عن مؤخرتها. أخذت الكدمات تميل إلى الازرقاق. قدّر أنها تؤلم ولا شك لكنها ليست بالشيء الخطير. أعاد الثوب ليسترها. ذهب إلى المطبخ، وفي عجلة من أمره أخرج اللحم المشوي وفرده في صينية وضعها فوق النار، وقطع حبات بندورة وخيار وسكب لبناً في صحن. وفكر فيما كان يرتب المائدة بالرضى الكبير الذي يصاحب الشخص حين يخدم آخر في حالة ضعف. فكر بآلاف المرضين والممرضات وكل من وضع في خدمة العجزة والمرضى وكيف يؤدون عملهم بعاطفة وإنسانية رفيعة المستوى واستبعد أن يكون الشر أحد خصائص النفس البشرية، وهزأ من أولئك الذين يلوكون لحم غيرهم ثم يتبجحون بالقول لاخير بالإنسان. إنه مخلوق مفترس، أشد ضرراً من الحيوان.

انتهى من ترتيب المائدة وذهب ليأتي بها. وجدها نائمة فاضطر إلى إيقاظها واصطحابها إلى المطبخ، جلسا وتناولا الطعام، وبعد الانتهاء منه سار معها إلى الصالة وافترق عنها، بعد أن اضطجعت لتأخذ قسطاً من الراحة، ذهب إلى غرفته. رقد على سريره وأغمض عينيه وأفسح المجال للنوم ليتغلغل فيه بنعومة، لكنه ما لبث أن أفاق متوهماً بسماع طرق على الباب. هتف: من الطارق؟ من الطارق؟

لم يأته جواب فذهب لاستطلاع الأمر. مر بها وكانت مستغرقة في النوم. فتح الباب فلم يجد أحداً. عاد وتناول ديوان شعر المتنبي وقرأ بصوت خفيض.

جاء وقت الذهاب إلى المقهى ولم تكن قد أفاقت بعد، فأضطر إلى إهمال أمر الذهاب إلى المقهى ومارس هوايته بلعب الشطرنج منفرداً.

مضى به الوقت وهو يبدل ويغير في مواقع القطع ويتوقف ليتأمل الموقف ثم يترك الرقعة ويرسل بصره مرة عبر النافذة إلى الفضاء ومرة إلى سقف الصالة، وصارت الأفكار والصور تأتيه نتفاً فلا تلبث إلا قليلاً، ثم يعود إلى الرقعة ثم يهملها ليشغل لفافة إلى أن أخذ ضياء النهار بالانطفاء وابتدأ زحف الظلام. ترك الصالة تغرق في العتمة شيئاً فشيئاً وانتعش جسده كله بفعل الراحة والهدوء والنسمات التي هبت لطافاً وخففت من حرارة الجو.

لم ينتبه إلى أنها أفاقت من النوم ورفعت جذعها. ولم تقم هي بأدنى حركة لتفسد عليه هدوءه. كان مستغرقاً بالسلام الذي تسلل إليه. وحين نهض ليخرج إلى الباحة، التفت فرآها. قال:

- أيتها الخبيثة.

ثم أشعل الكهرباء ولاحظ في الضوء إشارات الوجع على قسماتها.

كانت تتألم بصمت وتجاهد لتبتسم. ذهب إلى المطبخ وجاء لها بخبز وجبن وعنب وماء بارد ومسكن. تركها تأكل وعاد إلى رقعة الشطرنج ثم أعطاها المسكن وجعلها تضطجع على بطنها ودثرها وخرج ليوافي أصدقاءه في المقهى وإن كان الوقت قد تأخر.

الأحد

كانت مخاوف الأستاذ حسان من أن يصار إلى إحالته على التقاعد قد تبددت مع بداية العام الدراسي، فلقد جرى تثبيته مديراً للمدرسة للسنة الخامسة على التوالي واكتملت هيئة التدريس وانتظمت الدراسة بدون هنات ثم بعثت مخاوفه من جديد يوم السبت حين أصغى مأخوذاً إلى أخبار التشكيلات المتوقعة، ولهذا لم يفاجأ كثيراً حين طلبه مدير التربية والتعليم بواسطة الهاتف لمقابلته في مكتبه. كان قد تيقن بطريقته الخاصة من أن التشكيلات الجديدة ستشمله وأنه سيحال على التقاعد لا محالة.

كان قد ترك المنزل يهيج النفس في خامس يوم عاصف ومتلوّن من أيام استثنائية خارقة في فوضاها ومفاجأتها، فقد استتب الأمر مؤقتاً على حالة لا تدعو إلى الخوف أو القلق أو مجرد الشكوى، حالة من الاستقرار الواعد بنجاحات جديدة، وبدت الفتاة في حال أفضل مما باتت عليه، حتى أنها قامت بالجزء الأكبر من تحضير طعام الإفطار ونظفت الإطباق ومسحت الغبار عن حذائه، وقد فكر أن الوقت حان ليطلق عليها اسماً يخاطبها به وقطع المسافة ما بين المنزل والمدرسة وهو يبحث لها عن اسم مناسب.

طلب المدرسين للاجتماع في مكتبه ولم يكوّن فكرة عما يريد قوله، وهكذا جلس صامتاً حين اكتمل شملهم ثم أخبرهم بلهجة متأسية بأمر مهاتفة مدير التربية له وقال:

- أعتقد أننا سنفترق.

تسابقوا في تهوين وقع الخبر عليه وفي تأويل المهاتفة تأويلاً مغايراً لما تبجحوا بإعلان معرفتهم به، مما أوغر صدره عليهم وكاد أن يصب جام غضبه عليهم لولا أنه تمالك نفسه وفاجأهم بالقول إن الأمر سيان بالنسبة له وإنه لم يعد بحاجة إلى الوظيفة.

ودّعهم وخرج. ذهب إلى وسط المدينة ليشتري فستاناً وملابس داخلية للفتاة، فقد آن الأوان لتعويدها على ستر جسدها، شعر بمنافع الحرية التي ستعطى له قسراً وهو يسير في الشوارع ويتنقل من متجر إلى آخر، اشترى لها فستاناً وقطعاً داخلية ومنامة، كما اشترى لنفسه قميصاً وسار نحو سيارته. ذهب إلى وزارة التنمية الاجتماعية وقدم الاستدعاء وحصل على رقم التسجيل ثم انتقل إلى وزارة التربية والتعليم.

قرع باب المدير ودخل. نهض المدير وحياه ودعاه للجلوس. شكره وجلس. انشغل المدير عنه بعض الوقت ثم خاطبه وسأله عن الحال. وأجابه بأنه في أفضل حال وأن حسن الحال من رضى الله. أيده المدير على ما قال وصمت وبدا كأنما يجد صعوبة في قول ما يريد، ثم سأله إن كان لم يضجر من التدريس. لم يرق السؤال الذي طرح بصيغة تحمل على الوهم بأن مصدر القرار الذي سيعلن إليه إنما اتخذه حفاظاً على مصلحته وصوناً لصحته من الإنهاك. ولو أن الخيار ترك له لقبل بدون تحفظ البقاء في وظيفته عشر سنوات أخرى. ولهذا فإن سؤالاً بهذه الصيغة لا يعد عن كونه تجاهلاً كاملاً للحقيقة ورياء زائفاً يثير الغضب. اتخذ ملامح جادة وصارمة ونظر في عيني المدير مواجهة وقال:

– أفهم أنك ستبلغني بقرار إحالتي على التقاعد. أرجو أن تقول ذلك بصراحة، وإذا أحببت أن تعرف رأيي فإنني سأقول لك بأنني لا أبالي مع أنني أحب عملي ولا أضجر منه. سأتقبل القرار مهما يكن.

شعر المدير بمزيد من الحرج وأشاح عنه ثم قال:

– أصارحك القول إن الوزير نسّب إحالتك على التقاعد. ربما لن يصدر قرار مجلس الوزراء بسرعة ولكنني أرجو أن تتقبله بروح سمحة.

انقبض صدره وأحس برجفة رغم ما بذل من جهد لإظهار عدم اكتراثه. شكره وخرج واجتاز الرواق خافق الصدر من شدة الغضب.

قال حين بلغ الشارع:

– يا الهي لماذا كل هذا؟

قاد سيارته بدون هدف وهو في ذروة انفعاله. انتقل من جبل الحسين إلى الشميساني وثم جبل عمان. شعر وهو يستجلي ملامح الأماكن المترفة بغربة شديدة وكأن نسيج هذه الأماكن البالغ الرحابة والفخامة يقبل به على مضض. اتجه صوب وسط المدينة جاهلاً بالدوافع التي جاءت به ثم انعطف يميناً وقرر العودة إلى المنزل.

كانت قد ابتدأت أعمال التنظيف. وضع الكيس البلاستيكي على المنضدة وغير ملابسه وعاد ليساعدها في أعمال التنظيف. جلسا للراحة. نظرت إليه ثم مدّت ساعدها بطوله وأشارت إلى منتصف الساعد وحركت كفها متسائلة. فكر قليلا بحركتها. قدر أن الساعد بأكمله يشير إلى فترة غيابه المعتادة والإشارة إلى منتصفه تشير إلى هذا الوقت الذي عاد به وأنها بالتالي

تستفسر عن عودته المبكرة. لم يعرف بماذا يجيبها أو كيف. تناول الفستان واخرج الملابس الداخلية من الكيس البلاستيكي وقدمها لها. أمسكت الفستان بشغف وقلبته بين يديها وهمّت بارتدائه، أخذه منها وحرّك كفه بالنفي وأشار إليها أن تذهب أولاً لتغتسل. أطاعت وذهبت إلى الحمام. رفع قدميه على المنضدة بانتظار عودتها وفكر بالأحداث التي تسارعت منذ دخولها منزله حتى أنه لم يتمكن من التقاط نفسه والتفكير بكل هذا الذي يحدث. لقد أمكن أن يخلصها من مظهرها المخيف ويلطف من وحشيتها ويعود بها إنسانة رقيقة قادرة على التعلم والإفادة.

غير أنها سترحل عما قريب إلى حيث يريد أو لا يريد لها. تاركة فراغاً أشد قسوة عليه مما مضى وعاطفة جديدة سيصعب عليه التعامل معها.

رآها قادمة من الحمّام، تغنج قليلاً في مشيتها وقد أحاطت وسطها بمنشفة ورغم أنه اعتاد رؤيتها وتجاوز الصدمة التي كان يحدثها فيه منظر شفتها المنفلقة وأنفها الأفطس، إلا أنه ظل مع ذلك يحاذر النظر مباشرة إلى وجهها، وينحسر نظره تلقائياً كلما واجهها. انجذب نظره إلى جسدها المنتعش بفعل الاغتسال ولاحظ أن الطبيعة قد عوضتها عن قباحة وجهها. فقد استطال ساقاها وانعقد على صدرها نهدان ناضران بجرأة وقوة مؤثرة. اقتربت منه وانحنت والتقطت الفستان. مهملة السروال الداخلي وحمالة الصدر ثم استدارت لتذهب به، غير أنه كان شديد الرغبة في دفعها إلى الاعتناء بما تحرص الفتاة على صونه وإخفائه عن عيون الرجال وبخاصة عنه سيما وأنه لا مناص من اجتماعهما في منزل مغلق عن عيون الآخرين، جذبها بيد ورفع إليها قطعتي الملابس الداخلية باليد الأخرى. أخذتهما وتفحصتهما متشككة بنفعهما فليس لها باعتبارها الخاص أدنى أهمية وبخاصة حمالة الصدر التي لم تعرفها من قبل. توارت دقائق ثم عادت فرحة بالفستان الذي جاء وفق طلبها أما حمالة الصدر فقد بقيت في يدها. كاد أن يغض النظر عن رفضها ارتداء حمالة الصدر طالما أنها رضيت بالسروال لكنه سألها سؤالاً عابراً من قبل الفضول، ليس أكثر، عن السبب في رفضها لحمالة الصدر. أرادت أن توضح له أنها فشلت في ارتدائها. وضعت حمالة الصدر على صدرها وتركتها تسقط ثم كررت العمل نفسه مرّة ثانية. فهم مرامها. نهض ليريها كيف تشبكها أخذها منها وأشار إلى المشبك ثم شبكه أمامها وأعاد الحمالة إليها. ابتعدت ورجعت بعد قليل تمسك بالحمالة وتهز رأسها مؤكدة على فشلها مرة ثانية. وقف وطلب إليها نزع الفستان. فعلت واقتربت منه قليلاً حتى كان صدرها المشرئب أن يلامس صدره. ارتعش حين أحس بهذا الدنو اللاهب دفعها

للاستدارة هرباً من خطورة الاقتراب على هذا النحو الخطر، ولكنه فشل في السيطرة على الشهوة التي تنادي جسده كلُّه لها. التصق بها من الخلف ووضع راحته على صدرها وتحسسه وقبل كتفها دافقاً اشتهاءه مرة واحدة ثم تركها وابتعد منتفضاً. استدارت بغتة وألصقت جسدها بجسده ضاغطة على صدره مستثارة بانفعال جسدي مماثل وربما أكثر ضراوة. تهيأ جسده لاستقبال جسدها اللدن اليافع المرتعش أيضاً بفعل لحظة الاقتراب الجسدي. غير أنه كمن توجع من لسع النار أبعدها عنه بقوة وانتفض بهياج أكثر من السابق ثم أشار إليها ثم إلى نفسه وضرب يده أفقياً في الفراغ بحركة عصبية تؤكد رفضه لمثل هذا الاقتراب الخطر ولما قد يذهب إليه، ثم جلس وحنى جسده وضغط بأصابع يده على ركبتيه، جلست هي الأخرى وفعلت شيئاً من هذا القبيل.

لم يرفع أي منهما جذعه ولم ينظر إلى الآخر. لبثا على حالهما مفكرين بهذا المأزق الصعب الذي حشرا نفسيهما فيه.

ترى ماذا يفعل اثنان لا ثالث لهما يجبران على العيش معاً في منزل واحد وبينهما هذا الذي شارفا على اقترافه رغم اتساع الهوة بينهما. أيديران ظهريهما لبعض وينطويان على نفسيهما أم يبحثان معاً عن آفاق مختلفة تحتهما الضرورة فيسعيان إلى عمل مشترك يعود عليهما معاً بالفائدة. وأي عمل مشترك يجمع كهلاً مثله إلى صبية لم تتعرف على صباها بعد وكيف يوفق بين نفسه المثخنة بجراح التجارب الفاشلة والآمال التي تقصفت على مدى سنوات عمره، مع توقها إلى العيش، مجرّد العيش دون أن تتعرض للعقاب والعدوان.

هكذا راح يفكر بعد أن هدأت ثورة انفعاله وخبا وهج هيجانه الجنسي.رفع جذعه ونظر إليها. لا بد أنهما يستطيعان العيش معاً فثمة الكثير مما يمكن فعله.

وقف وفكر أن يدعوها في الحال لعمل مشترك وليؤكد لها أنه ما زال بإمكانهما العيش معاً. رأى حافظة الصور في خزانة الأواني. جاء بها ثم أمسك بيد الفتاة برقة شديدة، فرفعت رأسها إليه. نظر إلى وجهها بدون نفور ولاحظ بوضوح شدة ألمها. رفع ساعدها فاستجابت ونهضت. جلسا معاً على المقعد الطويل وحافظة الصور بينهما. فتح الحافظة ودعاها لتشاركه النظر. قاربا رأسيهما لمشاهدة الصور. كانت الصورة الأولى لحفل زواجه، ذلك الحفل، المفاجأة، فقد خرج عن النطاق المحدود كما أعد له، بفعل تدفق عدد كبير من الأصدقاء الذين طافوا به شوارع الحيّ مرددين أهازيج الفرح. ظهر في الصورة معتزاً بنفسه يحيط زوجته بذراعه

أما هي فقد أسندت كتفها بلين إلى صدره وابتسمت للمصور، ظهر خلفهما حشد من المحتفلين توقفوا جميعا يراقبون المصور.

أشارت إلى شاربه الكث في الصورة وكورت قبضة يدها. ابتسم وتلمس شاربه الذي قصر وتشذب عما كان عليه وقتئذ. أشارت إلى زوجته وسألت عنها بحركة من يدها. أشار إلى صدره ثم ضمّ سبابتيه إلى بعضهما وأبعد أحدهما. ورافق حركاته هذه بالقول:" زوجتي – هذه زوجتي –" لقد ماتت؟. لم يعرف فيما إذا كانت فهمت أم لا ولكنها انتقلت إلى صورة أخرى. أدرك صعوبة أن يحدثها عن كل صورة على حده، واكتفى بهذا القدر من المشاركة فتركها تشاهد الصور وحدها وذهب ليحضر طعاماً للغذاء. حضر"مقلوبة" وضع الإناء على النار وعاد إلى الصالة بانتظار نضوج الطعام. لاحظ كم هي مستغرقة في مشاهدة الصور. تركها على انسجامها وتناول رواية لكاتب سوري أحبه كثيراً فيما مضى جاءه به السياسي وأوصاه بقراءتها. استغرقته القراءة هو أيضاً.

عندما اكتفت من مشاهدة الصور رفعت رأسها ورأته يقرأ فلم ترغب في إزعاجه. نهضت وسارت على أصابع قدميها الحافيتين وخرجت إلى الباحة، فيما استمر في القراءة إلى أن قدّر أن وقت نضوج الطعام حان، ترك الكتاب وذهب إلى المطبخ. كشف عن الطعام وانتظر قليلاً كي يجف الرز ثم تذوقه، وأطفأ النار وسكب الطعام في طبق كبير، ووضعه على المائدة ووضع طبقين آخرين ولبناً وملعقتين وزجاجة ماء مبرد، وذهب لدعوتها.

جلسا لتناول الطعام. سكب لها في طبقها ولم يعارضها في رغبتها بمزج الرز مع اللحم والخضار واللبن في يدها وتناوله بهذه الطريقة.

تناول طعامه وهو يتأمل وجهها المشوه وطريقتها الفظة في تناول الطعام. أخذ يتناول طعامه على مهل، يضع اللقمة في فمه ثم ينظر إلى الفتاة ويشيح عنها ويتابع أفكاره. فكر بالسر الكامن فيها. ففي حين يبعث وجهها على النفور، يستفز جسدها الشهوة، وفي حين تبعث إعاقتها على الضيق لاستحالة الحديث إليها يجد أنها تلهمه أفكاراً ومشاعر وعواطف جديدة عليه، فيستعيد بهجته وإقباله على الحياة. أما هي فلم ترفع رأسها عن الطعام. أكلت بشهية زائدة وسكب لها مرة ثانية.

أشعل لفافة بعد الطعام وطلب إليها أن تنظف الأطباق وجلس يرقبها.قامت بواجبها كفتاة

مدربة ووضعت الطعام الزائد في البرّاد، صفق إعجاباً وحنى رأسه على كفه ليقول لها إنه سيذهب إلى النوم.

أخذ قسطاً من الراحة ولم يستعجل مغادرة السرير. حدّق في سقف الغرفة وفكّر بدون كدر بالمحنة التي تعرّض لها، فلقد مضت الأوقات الصعبة ولم تعد الفتاة تلك الكومة البشرية النتنة فتعلمت كيف تكون مفيدة، وصار يملك الخيار في أن يبقيها أو يجد لها مكاناً يأويها. وقد أبلغ بقرار إحالته على التقاعد فتقبله بانزعاج أقل مما كان يظن. وها أن أمامه فسحة كافية من الوقت ليوجه دفة حياته باتجاه جديد ورأى أن باستطاعته النهوض من كبوته والقيام بأعمال مفيدة، وأنه بقليل من الترتيب والنظام يستطيع أن يبدأ من حيث توقف قبل عشرين سنة أو يزيد. رأى أن يمنحها الحق في المبيت في غرفة ابنته وبذلك يحقق انفصالاً بينهما بات ضرورياً للحد من المصادفات المغوية ثم يعود إلى أشيائه القديمة فيخرجها من الصناديق التي أودعت بها لدى انتقاله إلى هذا البيت والتي أهملها أثناء مرض زوجته ولم يعد لها بعد موتها. سيستقل كل منهما بغرفة نوم تخصه ويمارس كل منهما أموره الخاصة داخلها ويشتركان في الصالة معاً.

نهض بعزيمة متفائلة لينقل إليها قراراته. وجدها تجلس على المقعد الطويل وقد رفعت ساقيها وثنت ركبتيها وأرسلت بصرها في الفضاء الذي تكشفه النافذة. جلس قربها وحدق في الفراغ أيضاً ووهنت عزيمته تحت تأثير مناخ السكون الذي فرضه انصرافها التام عنه إلى ما تفكر به، وجد نفسه يقول بصوت مسموع:

– يبدو أننا أنا وأنت سننعزل عن العالم لبعض الوقت. ربما لن يكون هذا ضاراً بالنسبة لك ولكنه قد يصعب عليّ. فلا أريد لنفسي الهرم السريع ولا أعرف كيف أدعوك لمساعدتي ولكنني على يقين من أنك تستطيعين لو أنني أحسنت مخاطبتك.

أنتبه إلى أنه تكلم بصوت مسموع. توقف عن الكلام والتفت إليها. كانت تحدق فيه بافتتان شديد وكأنها تفهم ما يقول. أحبّ نظرتها البريئة المتحّيرة. قال لها وهو يداعب وجنتها: هذا ما أريده منك.

نهض وطلب إليها أن تتبعه. أخذها إلى غرفة ابنته. توقّف لحظة ليتأكد أنه يريد ذلك فعلاً ثّم فتح الغرفة واصطنع حركة نوم وأشار إلى السرير لتفهم أنه يخصها بهذه الغرفة للنوم

ثم دعاها لتتبعه إلى غرفته. كان قد غمر الصناديق الثلاثة التي أودع داخلها كتبه وأشياءه الأثيرة لديه. بملاءة ونسي أمرها منذ ذلك الوقت. أما وقد صار لزاماً عليه أن يقضي معظم وقته في المنزل، فلا مناص له من أن يجد بديلاً يعتاض به عما خسره ويلهمه الرغبة في العيش، مستفيداً من كل ما يوفره له المنزل من وقت وسكينة متكئاً على أشيائه البسيطة القليلة، فلا يجلس قانطاً مثبط الهمة، بانتظار الموت.

انحنى ونزع الملاءة التي تجلل الصناديق الثلاثة ونظر إليها بمزيج من البله والحذر وقليل من الاكتراث، فهو يجهل ما قد يأتي منها ومع ذلك لا غنى له عن معاودة الاقتراب من ماضيه والاتصال بما انقطع من حياته.

أفرغ الصندوق الأول من محتوياته، فهوت إلى الأرض كتب ومجلات فكرية وأدبية أسبوعية وقصاصات من صحف وأوراق كان قد خطَّ عليها بعض الخواطر والأفكار. تأمل بكثير من الدهشة والحنين عناوين الكتب والمجلات واندهل بسبب هذا الحشد والاختلاط والتنوع. هذ كنزه الموفور إذاً وزاد شبابه. لله درّك يا جليلة لم تهملي ورقة أو قصاصة. كل كتاب وكل عنوان يثير لديه ذكرى. حاذر أن يلمس شيئاً على الفور، كأنما يتهيب من ملامسة ماضيه ويتأنى كي يصل إليه ويتصل به وصالاً هيّناً. انتصب وسار يم النافذة، حيث المدى أكثر رحابة وحضوراً، فلا ماض كئيب تكشف عنه ولا مستقبل مجهول. المدى والشمس اللاهبة واللحظة الراهنة فقط. طالت وقفته فلم يسر الحاضر عنه ولم يهده سواء السبيل. شعر بانجذاب نحو أشيائه الأليفة التي خرجت من مكمنها وتبعثرت بصمت، عاد متمهلاً وأفرغ الصندوقين الآخرين جلس القرفصاء وعمل على عزل المواد بعضها عن بعض.

التقطت الفتاة مجلة مصوّرة وأخذتها بعيداً وتلّهت بتقليب صفحاتها ومشاهدة الصور.

جمع الكتب على حدة ثمّ انتقل إلى المجلات الفكرية والأدبية، ثم الأسبوعية وهكذا انتقل من مادة إلى أخرى إلى أن أتم الفرز. جلس بعدها هادئاً هائماً في شفافية الذكرى، يتأمل دون أسف ما كانت عليه حياته.

تأمل أكوام الكتب والمجلات وتساءل عن جدواها، فإذا لم ينتفع منها في شبابه فبماذا ستفيده الآن؟ خطر بباله أن يعيدها إلى الصناديق ويسدل عليها الستارة، غير أن فضولاً جاذباً منعه فتريث وتفكر وأخيراً نهض ونقل كل كتاب ومجلة وورقة إلى الصالة. ووقف يتأمل

الزوايا بحثاً عن مكان مناسب لها فتبين له أن خزانة الأواني خير مكان.

أفرغ خزانة الأواني من محتوياتها ونقل المحتويات بمساعدة الفتاة إلى المطبخ داخل خزائنها وعاد إلى الصالة.

رتب الكتب داخل الخزانة حسب أحجامها ووجد مكاناً صالحاً للمجلات. تركته يتأمل أرفف الكتب وخرجت إلى الباحة لتلهو.

ارتد قليلاً إلى الوراء وهو يتأمل الخزانة التي امتلأت بالكتب والمجلات ثم جلس ولاحظ الاختلاف الذي طرأ على الصالة، كما لو كانت من قبل عارية فكساها. تذكر أنه يحتفظ داخل غرفة ابنته بمنضدة للدراسة. ذهب وجاء بها ووضعها لصق الخزانة ثم أحضر مقعداً من المطبخ وابتعد ليشاهد بشمولية أكثر الركن الذي نهض بجمال وجلال الآن فسرى في نفسه رضى كبير. أخرج أقلاماً من الحقيبة ووضعها على المنضدة ثم أتى لها بكوب ووضعها فيه. جمع قصاصات الصحف ووضعها على المنضدة أيضاً ثم تناول ورقة مطوية وفضها قرأ قليلاً ثم أهملها وتناول ورقة أخرى. صار يغتاظ أو يبتسم مع كل ورقة، جلس بعد ذلك مسترجعاً تواريخ مضت، موغلاً في العموميات والتفاصيل.

استنفد خياله ففتح عينيه وتلفت في أرجاء الغرفة. رآها تقتعد الأرض وتبحلق فيه.انزعج من بحلقتها، قال:

– ألا تعرفين شيئاً آخر غير البحلقة؟ أغربي عن وجهي.

رفع جذعه مغتاظاً وأشار إليها كي تخرج إلى الباحة. خرجت وتركته في حالة استنفار واستفاقة تامة على حاضره.

كان قد انقطع عن القراءة، إلا ما اتصل بموضوع تدريسه ونأى بنفسه عن العواطف التي تبعثها فيه أخيلة الكتاب فاستقامت حياته وأخذت منحى واحداً محدداً لا يخرج عنه فهل يفعل الآن؟ لم يتقبل فكرة اعتزال العالم والبقاء أسير المنزل محاصراً بهمه وبَحْلقتْها. ودّ لو يراها تفتح الباب الخارجي من تلقاء نفسها وتشير إليه مودّعة ولكنها لن تفعل على ما يبدو، لن تخسر هذه الدعة. قرّر أن يخرج في الحال ولم يحن موعد المقهى بعد ولم تتكون لديه فكرة عن مكان آخر يمكن الذهاب إليه. غير أن الرغبة بالخروج ألحت عليه، ليس بالضرورة إلى مكان محدد بالذات بل مجرد الخروج ورؤية الناس في حركتهم الدؤوبة.

غسّل وجهه وارتدى القميص الجديد وتخفف من ضيقه.دخل إلى الصالة ووقف يتأمل

مكتبه من جديد. صار له شكل جاذب. جلس إلى المنضدة وانشدَّ إلى إيحاءاتها. أخذ ورقاً من الحقيبة وكتب.

" طلع صباح آخر لا يعد بجديد، وانتشرت في الجو رائحة غبار. وفي منزل منفرد من حيّ جبلي، تراصت وتشابهت بيوته القديمة وتناثرت واختلفت بيوته الحديثة، تابع كهل بيسر طقوسه الصباحية. كان يتحرك ببطء، مستسيغاً كل فعل يقوم به ".

مزقّ الورقة وتناول غيرها. كتب:

"طلع صباح رتيب، يشابه كل صباح آخر، مضى الكهل في تأمل شفيف، مستسيغاً بلذة شغوفة كل لحظة من لحظات صباحه".

مزّق الورقة أيضاً وتناول أخرى وكتب:

"ما كان لي أن أعرف وأنا أمتع نفسي بوقائع الصباح الأولى،أن حدثاً بالغ الضآلة سيقحمني في إشكالات لا حصر لها ويعيد ترتيب حياتي على نحو مغاير لما كانت عليه".

مزقّ الورقة أيضاً ونهض. قرر الخروج في الحال. رأى الفتاة وهي في طريقه إلى الخارج تخطو في الباحة خافضة الرأس. رق قلبه ودعاها كي تقترب منه. أخذها إلى المطبخ. فتح البّراد وأشار إلى الطعام ثم أخذها إلى غرفتها الجديدة وقام بحركات ليفهمها أن هذا هو منامها الجديد. ابتسمت برضى.

ابتسم هو أيضاً وحرك يده معبراً عن رغبته في الخروج. تركها على رضى وخرج.

كشف له الخارج عن وهم كبير، فأية حركة بلهاء هذه التي سعى إليها، فليس لها غاية محددة بل إنها في ذاتها غاية، مجرد حركة لا تفصح عن هدف ولا ترمي لغرض محدد مجرد حركة معاكسة للسكون وحسب. حركة في حيزّ ضيّق. اجتاز شوارع عديدة دون هدف محدد لمجرّد الحركة ومشاهدة الناس فقط، الناس الذين يسيرون على أقدامهم أو يستقلون السيارات. يمضون قدماً أو يتوقفون قليلاً ثم يتابعون السير.

اقترب موعد ذهابه إلى المقهى، فلم يستغرب انعطافه في ذلك الاتجاه، فحركته دائماً مرتبة ومدبرة مسبقاً ولا بد له من الانصياع لحكم العادة والذهاب إلى المقهى، سواء أَرَغِبَ في قضاء أمسيته هناك أم لمجرد إلقاء تحية المساء على الأصدقاء. ثمة هدوء هناك لا يشابهه هدوء آخر

وثمة استقرار يكبح كلَّ سؤال وينفي كل تشكُّك. غير أنَّه تساءل مع ذلك وهو يتابع طريقه عما يخفي الآخرون خلف هذا الإجماع الصامت على الاندماج في رقعة الشطرنج والالتفات عن كل شيء آخر. ألا يحمل الآخرون أوجاعا مماثلة، ألا يشكون من شيء مثلما يشكو هو؟ ألا يظهر هو من وجهة نظر مراقب آخر شبيهاً بهم، متماسكاً ومنضبطاً وقانعاً بما يفعل؟

دخل المقهى وئيد الخطى. كانت الضوضاء عالية. اجتاز طريقاً متعرجة بين موائد الذين يلهون بورق اللعب والنرد. أنس إلى الركن الهادئ، حيث تحلق أصدقاؤه حول منضدة الشطرنج. ألقى تحية المساء وجلس. ظن أن سيماءه ستعلن ما يعاني منه، غير أن أحداً لم ينتبه لما به أو أبدى ملاحظة تخصه ولم يلاحظ هو أيَّ اختلاف على حال أحد منهم. تأملهم بمقت شديد. كاد أن يصرخ بهم قائلاً: >هذا زيف محض. التفتوا إليّ، لنتحدث قليلاً، وليفرج كل منا عما يكربه". ولكنه لم يفعل أذ تداركه الوقت وأخلي له المكان كي يلاعب الفائز. جلس مقابل خصمه كما كما في كل مساء. لعب جولة واحدة وفاز بصعوبة ثم انتحى جانباً مخلياً مقعده لغيره. عاد إلى تأمل قسمات أصدقائه بهدف سبر أغوارهم. فتعددت الاحتمالات لديه ولم يرتض بواحد منها فنهض واعتذر وغادر المقهى.

استقل سيارته وتوجه لزيارة لطفي. فوجئ باستقباله الفاتر. دخل على مضض، أدرك أن لطفي وزائريه يلعبون الطرنيب وأنه سيفسد عليهم سهرتهم.

طلب إليهم متابعة اللعب ولكنهم لم يفعلوا. ساد صمت مشحون بالضيق قطعه لطفي بإعادة الترحيب بوالده وسؤاله عن الأحوال. رد عليه باقتضاب، ثم سأل عن الطفلين ولما علم بأنهما لم يناما بعد، اعتذر وذهب إلى غرفتهما، قضى معهما وقتاً وحكى لهما حكاية عن نجمة ضلت طريقها وسقطت على الأرض وفقدت لونها واتسخت وصار من الصعب التعرف عليها، لولا أن طفلا التقطها صدفة فأخذها إلى بيته وعاملها بحنان ونظفها وأعاد لها لونها فانبعث منها ذلك الإشعاع الغريب الذي لا يأتي إلا من نجمة، مما لفت إليها انتباه باقي النجوم، فأسرعت والتقطتها، تاركة الطفل يتفقد يديه آسفا مأخوذا بفقدانها.

ودعهم بعد الانتهاء من حكايته ووعد بقصة أخرى في زيارة قادمة وجلس مع لطفي وضيوفه وقتا قصيرا. تناول القهوة معهم ثم اعتذر وتعلل بضرورة النوم المبكر وخرج.

كانت تشاهد التلفاز. نهضت حين رأته يعبر الصالة. لاحظ نشوتها وإحساسها بالأمان. ربت

على كتفيها وجلس. جلست من بعده، نظرت إليه ثم أشارت إلى التلفاز. تابع معها مشاهدة التلفاز. اخذ يلتفت بين الحين والآخر فيراها إمّا مبتسمة أو منقبضة، منفعلة بما ترى. لاحظ بعد قليل أنّه أيضاً ينفعل بدرجة متساوية. صارا يلتفتان ويواجهان الواحد منها الآخر عندما يدعو مشهد للابتسام ويفترقان وينقبضان إذا ساء الحال. وجد أن لمشاهدة التلفاز بصحبتها متعة كبيرة فازدانت بنظره وأدرك نفعها. أكثر من اختلاس النظر إليها. لاحظ أن جسدها امتلأ قليلاً واكتسب نضارة وحيوية وأن عينيها ألقتان ولم يعد وجهها منفراً كما كان وأن المكان بوجودها صار أكثر ألفة.

انتهى المسلسل مع اقتراب نشرة أخبار الساعة العاشرة نهض ودعاها للذهاب إلى المطبخ. علمها كيف تعد الشاي. سكب شاياً لكليهما. أشعل لفافة بعد الانتهاء من الطعام وتلذّذ بشرب الشاي وبتدخين لفافته، فيما نهضت هي لتنظف إبريق الشاي والكأسين: عادت بعدها إلى الصالة. جلست هي لتتابع التلفاز وجلس هو إلى المنضدة. كتب:

"كان كل شيء يشير إلى صباح عادي، فدكنة الفجر ونسماته وزقزقة العصافير، لم يخالطها طارئ أو استثنائي، وهذا الشعور الغامض الذي يمسك به من الداخل ويفرج عنه شيئاً فشيئاً أيضاً لم يتغير. ولم يكن في حسبانه تبعاً لهذا، أن يتوقع مفاجأة معدة سلفاً بانتظار اكتمال صحوه، لتعلن له أن هذه الرتابة الهينة لن تستمر كما كانت، وأن حياته التي تتسم بالهدوء وتخلو من الإحساس بالجمال ستتعرض لفجاءات تعصف بسكينته وتوقظ مشاعره وتبعث من القبح والقذارة شعاعاً خالص الجمال".

التفت إليها آنذاك. كانت قد غفت في مقعدها. نهض وحملها إلى غرفة نومها، أفاقت بين يديه واستسلمت لهذا الحنو. طلب أليها أن تنتزع ثوبها قبل أن تنام ثم دثرها وأطفأ الضوء وعاد إلى الصالة. مضى مع الكتابة قليلاً ثم شعر بثقل النعاس فأخذ نفسه إلى غرفة نومه ونام.

الإثنين

أفاق من نومه دون أن يصاحب صحوه أدنى تفكير بغرابة ما يحدث معه، فلم يعد ثمة ما يفاجئه. استدار ببصره في أرجاء الغرفة التي غدت أكثر ألفة، واعداً نفسه بمباهج جديدة، ثم ترك الفراش للحظة وفتح الستارة وعاد إلى ضجعته على السرير.

قبل الآن ولسنوات عديدة مضت، كان انبثاق الفجر وزوال النهار يثيران فيه شعوراً غامضاً، يصعب استبطانه والتكهن به، فلا يملك نفسه إزاءه ويظل مأخوذاً لبعض الوقت، أما هذا الصباح الجلي فلم يحظ منه إلا بانشداه طفيف لا يفضي إلى فكرة محددة ولا يسلبه لحظته الراهنة، ظل على ضجعته الكسولة، مستعذباً مشاعره المرخاة التي تنساب على مهل، آملاً بنهار حافل بكل ما تطيب به النفس.

استعرض خطط نهاره وبدت له على بساطتها مفعمة بالجمال وبكل ما يلذ له فعله. ثمة واجبات لا بد من القيام بها وثمة عمل ذو خصوصية ينتظر انجازه بتشوق واثارة. سيذهب إلى المدرسة مزهواً بنفسه، إذ لا بد له، احتراماً لنفسه من القيام بواجبه حتى التمام، فلا يفسح المجال لمتقول، كي يمسه بسوء، ثم يذهب إلى الوزارة ليسأل إن كان قد أتخذ إجراء بشأن الفتاة، ثم يتسوق احتياجاته وربما يشتري شيئاً للفتاة يبهجها ويتوقف في طريقه عند البقال ليبعث الطمأنينة في نفسه ويطلعه على ما يحصل عليه من معلومات، ثم يعود إلى المنزل ويشترك معها في إعداد وجبة، يتناولانها وحين ينتهي من كل هذه الواجبات التي لا غنى له عنها، يحين موعده مع نفسه، مع تاريخه ومستقبله. فلا بد له أخيراً من أن يتوحد داخل نفسه ولا يبقى شاهداً على انفصام نفسه عاجزاً عن الانسجام، محبطاً، سيشرع في دخول حذر متأن إلى ماضيه، لأنه يعرف مسبقاً ما به وسيكشف بدون أسى عن تجلياته وأشواق صباه وملامح فكره الذي لم ينتظم كما أراد، يحس منذ الصباح بهذا القدر من التشوق والإثارة والشغف ويستعجل انقضاء نصف النهار الذي لا يخصه.

نهض تحت تأثير خدر شفيف بعثته فيه حالة الاسترخاء الجسدي والذهني واتجه إلى المطبخ بفعل العادة ليس إلا، غير أنه فوجيء بشيء أكثر جدة وإثارة مما اعتقد أنه حصل عليه حتى الآن، فلم يسبق له أن نهض من النوم وشاهد مائدة عامرة بالطعام، من جبنة ولبنة وزيت

وزيتون وزعتر وعنب وتين، والشاي يجهز فوق شعلة النار.

التفت بعد أن تجاوز اللحظة المدهشة ورأى الفتاة تجلس تحت العريشة، ففاضت نفسه بالبهجة، تقدم نحوها وربت على كتفها وجلس قبالتها. أراد أن يعبر لها عن امتنانه ولكنه آثر أن يتركها للحظة طفولتها، إذ إنّها شبكت كفيها خلف رأسها وراحت تؤرجح ساقيها في الهواء، راقب بسرور حركة ساقيها الحرتين المتأرجحتين وبدت له في لهوها البرئ، نقيضاً له في استجماعه لنفسه من جديد ولم يجد في هذا التناقض أية غرابة.

توقفت عن الأرجحة ونظرت إليه مبتسمة ثم - وكمن تذكرت شيئاً - نهضت وأسرعت إلى المطبخ لتكمل تجهيز الشاي ثم دعته لتناول الطعام.

أكل بشهية رغم أنه لم يعتد تناول الطعام في وقت مبكر وقبل الاغتسال. ذهب بعد الطعام إلى الصالة وتناول كتاب الأمير الصغير وعاد إلى العريشة. تأمل غلافه بحنان ثم شرع في القراءة فيما نهضت هي لتنظيف المائدة وما اتسخ.

قرأ مقدمة الكتاب ثم طواه برفق ووضعه على المنضدة أمامه وفتح عينيه على وسعهما وسرح ذهنه في ضباب ممتع. جاءت وجلست قبالته. تنبه على مجيئها فاعتدل ونظر إليها مليّاً متخيلاً بدون وضوح صلة ما بينها وبين الأمير الصغير. لم يمسك الخيط جيداً ولم يحدد من أي مظهر تنبثق هذه الصلة.

نظر إلى ساعته بدون قصد ووجد أن لديه متسعاً من الوقت، أكثر مما توفر له سابقاً، فعنّ له أن يعتني بمظهره بعد إهمال تاريخي، انسجاماً مع إشراقة نفسه. جاء بحذائه وطلاه وتركه لها لتعمل على مسحه بالفرشاة واستعمل المكواة الكهربائية لكيّ بنطاله ثم دخل إلى الحمام واغتسل وتعطّر وخرج مستطيباً عطره وانتعاش جسده.

ارتدى بنطاله والقميص الجديد وتأمل بإعجاب لمعة حذائه وتبختر في مشيته راضياً عن مظهرة، ثم وقف أمامها ولاحظ بأي إعجاب كانت ترمقه، رغب في فنجان قهوة يعدها بنفسه، فدخل إلى المطبخ وأعد قهوته كما يستسيغها وجلس تحت العريشة يحسوها ويراقب بسرور الاشتباك الصامت بين الفتاة وبين قطة مشاكسة وقفت على السور متهيبة. متحفزة للهرب. كانت تحرك أصابع يدها والقطة ترمقها شزراً ثم ماءت القطة وتأتأت هي وانتهت المعركة

بهرب القطة.

عادت وجلست قبالته وعادت القطة إلى مكانها فانبرى هو لها هذه المرة، فهربت من جديد. استخف به الفرح فضحك ضحكة مجلجلة. وجد أن الوقت لم يعد يسمح له بأكثر من ذلك. نظر إليها وشرح لها بحركات، أنه سيذهب الآن وابتسمت هي وهزّت رأسها موافقة ثم انحنت بيدها إلى الأرض وحركتها في تقليد لعملية مسح الأرض. هزّ رأسه أيضاً معلناً موافقته ورضاه وخرج.

ظن أنه لن يفاجأ من جديد ولن يحدث ما يعكر صفوه وأن خطط نهاره ستمضي كما رتب لها، ولن ينالها الإرباك أو التغيير، فلقد اتضح كل شيء الآن، ليس له وحده بل لكل من هو على صله به ولم يعد ما يخشى عليه أو يخفيه وتجاوز ردّات الفعل العصبية وأقام كل أمر في مكانه الصحيح. ولقد تأكد ظنه وهو يقود سيارته إلى عمله، فحياة الناس على حالها لا تنبئ بأي اختلاف. التلاميذ يتجهون إلى مدارسهم وربات البيوت ينهضن للقيام بأعباء المنزل، ينتظرن مع باص المدرسة أو يلقين بالنفايات إلى الخارج والأطفال الأصغر سناً يلهون في باحات البيوت وجمهور سيارات الأجرة ينتظرون سيارات تقلهم وعمال البناء شرعوا في العمل مبكرين. بارك في سره الحياة والكائنات البشرية التي تتحمل بدأب عبء الحياة اليومية، حتى في يوم قائظ كهذا وبارك كل ما اتفق ومرّ به. الأشجار والحيوانات وآلة السيارة التي صنعها الإنسان وتابع سيره رضيّاً.

غير أنه ومنذ لحظة دخوله إلى المدرسة وعبوره رحابها، لاحظ تحوّلاً بالغ الدلالة على اختلاف الأمور عما كانت عليه، اختلاف انتقص من قيمته وأساءه، فقد نظر التلاميذ إليه وتابعوا ما يقومون به من لهو وعبث ولم يعطوا قدومه أية أهمية خاصة، كما لو كان مجرد عابر سبيل، فتأكد له أن خبر إحالته على التقاعد قد بلغهم وأنه لم يعد بنظرهم المدير القائم كامل السلطة والمهابة، فاغتاظ وصرخ بهم داعياً إياهم للتوجه كل إلى صفه، وفي مكتبه تصرف المدرسون أيضاً بحرية زائدة أو هكذا خيل إليه فازداد امتعاضاً وطلب من الجميع الخروج واختلى بنفسه.

لم يهن عليه أن يهمل بهذه السرعة ويقّلل من قدره. طرح على نفسه خيارين، فإما أن

يتوقف منذ الآن عن العمل ويتقدم بطلب إجازة طارئة أو يتصرف بحزم مظهراً عزمه على ممارسة دوره كما يليق بمدير ما زال على رأس عمله. فاتخذ الخيار الثاني. طلب المدرسين إلى مكتبه،جاءوا على مضض مستخفين بما سيقول في خطبته الوداعية كما حلا لهم أن يتوهموا ولكن ظنهم خاب، حين وجه لهم لوماً قاسياً على ما بدر منهم وأعلن أنه سيمارس مهامه حتى اليوم الأخير بهمة ونشاط وحزم ولن يقبل من أيٍّ واحد منهم أن يتجاهل هذه الحقيقة.

لم يستغرب المدرسون خطابه المقتضب جليّ العبارات فقط بل استغربه هو نفسه وزها به ولذلك ما أن أبدى أحدهم ملاحظة يتهمه فيها بالمبالغة حتى انفرد به وقرّعه تقريعاً شديداً خاصة وأنه هو بالذات من تجاوزه وتناول الطباشير من صندوق خلفه، دون استئذان.

زار بعد ذلك الصفوف صفاً صفاً وطلب بحضور الأساتذة إلى كثير من الطلاب أن يقفوا ووجه إليهم أسئلة وطلب إلى من قصّر منهم بالإجابة الحضور إلى مكتبه ووبَّخه توبيخاً شديداً.

غادر المدرسة ناهضاً بهيّاً وانتقل مباشرة إلى وزارة التنمية الاجتماعية، حيث اضطر لمراجعة رئيس الديوان الذي استمع بقليل من الاكتراث إلى قصته ثم قال له:

- ها إنك ترى بنفسك أنك قادر على معالجتها دون مساعدة منا.

ارتاح لهذا الإطناب في المديح ورد عليه:

- ولكنني لا أستطيع إبقاءها في منزلي. أنت تعرف...

قاطعه بقول اتسم ببرودة تامة لا تتفق مع مزاجه الطيب. قال:

- الوزارة غير معنية بمشكلتك الخاصة.

نهض وغادر الغرفة بدون وداع، فلم يتلق من الرجل ما يستحق منه الثناء. بقي تحت سطوة غضبه فترة من الزمن يفكر بهذا الصد الغاشم الأحمق ويستنكره ثم بحث في فكرة عن بدائل جديدة ولمّا عصي الأمر عليه تخّلى عن التفكير، قانعاً بفكرة ترك الأمر على حاله. اتجه إلى سوق الخضار. تسوّق ما يحتاجه وعاد إلى المنزل. توقّفَ في طريقه عند البقال، اشترى جريدة وتريث علّه يتبادل معه حواراً يهون عليه رفض الوزارة، إلا أن البقال لم يحاوره ولم يسأله عن جواب الوزارة ولا عن الأحوال، فقد اكتفى باستلام ثمن الصحيفة وانصرف عنه.

تابع إلى منزله مغتاظاً من صدّ البقال ومن إغلاق الوزارة بابها في وجه طلبه ومن تصرف التلاميذ والأستاذة في المدرسة ومن ازدحام السير.

كانت قد انتهت من تنظيف المنزل وخرجت لتلعب في الباحة. ساعدته في نقل مشترياته إلى المطبخ ثم عادت معه إلى الصالة. لاحظت اكفهراره فاكفهرت هي الأخرى، طلبت إليه أن يستريح وغابت. قال: وهو يشيعها بنظره:

– حتى أنت – إنه من الأفضل أن تغربي عن وجهي.

أشغل نفسه بقراءة الصحيفة. عادت بعد قليل حاملة إليه قهوة وماء بارداً. رفع رأسه اذ سمع وقع أقدامها ورأى الصينية بين يديها.اعتدل مزاجه وتقبل القهوة والماء البارد بسرور. تناول القهوة ممتناً غير أنه امتعض من طعمها ومع ذلك تناولها على مضض وتابع قراءة الجريدة، فيما جلست تتأمله.

لم يكن يقرأ فقد عقد مقارنة بين رقة الفتاة وإخلاصها له وحدبها عليه وبين ما يلقاه من الآخرين. فكر بالأوجه المتعددة للخطأ والصواب، للرذيلة والفضيلة. للقبح والجمال. وكم يكون الخطأ فيما يسميه الآخرين صواباً، وكيف تكمن الرذيلة في ما تدّعيه فضيلة ويكشف الجمال عن قبح يثير الاشمئزاز وينهض من القبح جمال منسق لا يطاله العبث.

ترك الصحيفة والتفت إليها. لاحظ انجذابها الكلي نحوه. نظر ملياً إلى وجهها الذي حاذر من قبل إطالة النظر إليه. قال موجهاً كلامه لها:

– أعرف عنك كل شيء وتعرفين عني كل شيء – لكل منا مساحة في هذا المنزل ولكل منا مما يرغب فيه الآخر ولا يثقل عليه. لقد حببت لي الجلوس في المنزل وها أنا أكثر راحة من أي مكان في الخارج. ها أنا أعود إلى مكتبي وأوراقي، من يقول إنّني هرمت وإن لا فائدة لي من الكتب والأفكار وهلوسات الشعر؟. ها إن نفسي تتلطف أخيراً وأراني مقبلاً على ما كنت عليه، ناهضاً من كبوتي، مستمداً من عثراتي طاقة جديدة. ارتعش جفناها وهي تتابع حركة شفتيه وتجاهد كي تعرف ما يقول:

– تراقبينني محيرة. صحيح؛ ذلك أنني أتحدث الآن وأنت لا تسمعين.خير لك أن تعتادي مثل هذه الحالة. لقد أكرهتُ من قبلُ على الصمت. صمت طويلاً حتى طبعني الصمت بطابعه وعندما جئتني، جئتني بدون سمع. غير أني أرغب في الحديث. لم أعد قادراً على كتمان أفكاري. إن الذي لا تعرفينه أن للكلام أرجلاً صغيرة أحس بدبيبها، فهي تتحرك ببطء إلى

أن تبلغ مخرج الكلام وإذ ذاك يخرج الكلام من تلقاء نفسه فيقذف إلى الخارج بقوة لا نملك السيطرة عليها.

توقف عن الكلام. أشفق عليها. فأتم كلامه:

- أظن أن الأمر هكذا أفضل وإلا أضجرتك بحديثي لو كنت تسمعين. فلا منفعة لك بحديث رجل مجرّح يحاول أن يطبّب نفسه في آخر العمر.

- أغمض عينيه وصمت. فكر خلالها بسخف ما فكر به وما قاله ثم فتح عينيه وقال تعالي نقوم بعمل نافع. دعاها بإشارة لتتبعه. تبعته وتوجها إلى المطبخ. اشتركا في إعداد وجبة طعام ومع أن مساهمتها كانت في غسل وتقطيع الخضار إلا أنها كانت مفيدة.

افترقا بعد الطعام. ذهبت إلى الصالة وتوجّه هو إلى غرفة نومه. فكّر وهو يستسلم للنوم بصواب ما يفعل فما من أحد باعتقاده يجرؤ على <معايرته" لاحتضان فتاة مستضعفة لا وزر لها بضعفها وإعاقتها وما من أحد غيرها بقادر على أن يهبه هذا القدر اليسير من السعادة. نام مرتاح الوجدان ثم أفاق موفور النشاط متحفزاً للعمل.

ذهب مباشرة إلى الصالة. كانت تجلس وبيدها مجلة مصوّرة. وقف أمام مكتبته ومر بأصابعه على الكتب (انطون تشيخوف، كستوسفكي، تولستوي، جاك لندن، جون شتاينبك، همنجواي، يوسف أدريس، نجيب محفوظ، السيّاب، شوقي بغدادي، الأخطل الصغير، امرؤ القيس، ابن خلدون، طه حسين)، وبعض أجزاء من الأغاني.

جلس وتابع تأمل الكتب، ثم تناول الأمير الصغير وتابع القراءة. جاءت ووقفت قربه. حنت رأسها ورأت رسم اكزبري للأمير الصغير.

توقف عن القراءة إذ لاحظ اهتمامها. حاول أن يفسر لها أن الأمير الصغير، مخلوق لطيف جاء من نجمة من السماء. أشار إلى الرسم ثم إلى السماء وكوّر قبضة يده فلم تفهم. عدل عن الإشارات. رسم سماء على ورقة ثم نجوماً كثيرة وواحداً أكبر ورسم سهماً يتجه من السماء إلى الأرض وشكلا يشبه الأمير الصغير في الرسم يمتطي السهم. بدت وكأنها فهمت. ابتسمت. ناولها الكتاب لترى بقية الرسوم وانتقل إلى الأوراق المخطوطة. تناول واحدة مترفقاً بها، إلا أنه بعد قراءة مبتسرة ألقى بها ثم تناول غيرها وكوّمها. انفعل وصار يكوّم الأوراق ويلقي بها.

وفي لحظة نزق شديد نقل الأوراق إلى الباحة وأشعل فيها النار.

كانت تجلس على المقعد المقابل. ابتأست إذ رأته على هذه الحال. رفعت قامتها وسارت على أصابع قدميها لترى اشتعال النار ثم عادت ووقفت خلفه. داعبت شعر رأسه بأناملها. أحسَّ بحنو ملمسها فأغمض عينيه واستسلم بلذة للمسة أصابعها المتغلغلة في شعره ثم جذبها من يدها. نظر مباشرة إلى وجهها الذي حاذر حتى ذلك الوقت أن يديم النظر إليه. لاحظ سؤالاً بريئاً مشفقفا على محياها، لكنه لم يعرف السبيل إلى إيضاح مسألة بالغة التركيب والتعقيد كهذه لها.

غدت في تلك اللحظة أقرب الناس إليه. ابتسم لها وابتسمت هي بأسى. قال:

- لا عليك، ليس الأمر بهذا السوء.

شعر بدافع قوي للتعبير عن امتنانه. أضاء لها التلفاز وأدار مقعدها ليسهل عليها مشاهدته وفكر بشيء يخصه. تناول حقيبته وأخرج منها أوراقاً وقلماً ولم يكن لديه أدنى فكرة عما يريد من الأوراق، لكنه بعد قليل من التفكير كتب في رأس الصفحة" الثلاثاء" ثم توقف. نظر إليها وقد انصرفت بالكامل إلى مشاهدة الرسوم المتحركة ثم كتب.

" انبلج فجر الثلاثاء الثاني من أيلول على رجل مسن يعيش بمفرده ورغم أنه والد لرجل وامرأة ومدير مدرسة إلا أن عزاءه كان فقط في هذا السلام الذي ينعم به في وحدته ولم يرج من دنياه أكثر من ذلك.

وكان ذلك الفجر بالذات مسكوناً بهدأة عظيمة ولم يدر بخلده أن حدثاً مفاجئاً لا صلة له به سيغير من حياته وانتظامها على النحو الخامل الذي كانت عليه. فقد بوغت لدى خروجه بجسم غريب ملقى في باحة منزله وتبين له بعد تدقيق النظر أنه جسد فتاة مشوهة الخلقة، شعثاء الشعر، ضربت بشدة وانبجست دماؤها".

توقف عن الكتابة ثم تابع:

"ستصبح هذه المخلوقة المشوهة منذ ذلك الوقت محور اهتمامه". ترك القلم وذهب إلى المطبخ. غلى قهوة وعاد. اقترب منها أثناء عودته. رفعت رأسها إليه وأشارت إلى مهارة الفأر في مسلسل "توم وجيري" في التخلص من المأزق ثم جذبته ليشاركها المشاهدة. أتى بمقعد وجاورها. كانت فرحتها بما ترى مبعث سرور مضاعف. اهتم بقدر اهتمامها باللعب الشائكة

والمشوقة بين القط والفأر، حتى أنه غفل عن كوب القهوة الذي وضعه على يد المقعد، فضربه بيده، لدن انفعل بالمشهد وسكب القهوة على ملابسه. نهض ملسوعاً بسخونة السائل وذهب إلى غرفته ليغير ملابسه، وحين عاد شاهدها تلتقط كسرات الكوب. فانحنى وساعدها في التقاط الكسرات والفتات ونقلها إلى سلة النفايات. رفع جذعه وتلفت حوله غير راغب في معاودة الجلوس فقرر أن يخرج رغم أنه ما زال أمامه أكثر من ساعة على موعد الذهاب إلى المقهى.

شاهد حشداً من الأولاد على مبعدة يسيرة من المنزل فلم يأبه بوجودهم غير أن ابتعادهم المفاجئ فور مشاهدتهم له، أثار ريبته فعدل عن الخروج وعاد أدراجه.

كانت مشاهدة الصور المتحركة" لتوم وجيري" قد انتهت وحل محلها عمل من أعمال رعاة البقر. جلس على مضض وأرخى جذعه وتابع مشاهدة التلفاز دون اهتمام، غير أنه سرعان ما انجذب إلى الأحداث.

كنت الفتاة متجهة بكليتها إلى متابعة الأحداث فتارة تشرئب وتعلو بقامتها وتارة تهبط، تندفع إلى الأمام مرة وإلى الخلف مرة أخرى. دفعه انفعالها إلى أقصى حدود الإثارة، فصار يلعن الأشرار ويطارد اللصوص ويحرّض البطل على معاقبتهم.

انتهى العرض، فنهضت الفتاة وانسلت إلى الخارج وأخذت تتقافز على قدم واحدة. أما هو فقد بقي في مكانه في حالة انبهار كامل ثم تلفت فلم يرها. أسف لخروجها ثم ابتسم إذ رآها منصرفة إلى اللعب واللهو.

لقد أرضاه هذا التوافق والافتراق. فثمة إلى جانب الاحتياجات المشتركة خصوصية لكل منهما. فهي ما زالت طفلة وقد استيقظت طفولتها الآن وهو كهل يحاول أن يتماسك ويوجد مبرراً لاستمرار حياته، فلم يسقط عن جواده بعد. نظر إلى المكتبة ومنضدة الكتابة وشعر بألفة وانسجام معها. نهض وجلس إلى المنضدة وقرأ ما كتبه ولم يرضه كثيراً. كتب من جديد.

"طلع صباح عاديّ آخر وعبقت في الجو رائحة الياسمين وتناهى إلى أسماع الكهل الذي يعيش وحيداً تمتمات هادئة لرجال ونساء وأطفال يهيئون أنفسهم لنهار جديد.

وكان نهاره سيمضي حتى آخره دون إثارة كما مضت نهارات سابقة لولا أن الله قيض له مفاجأة ما كان لها أبداً أن تخطر على باله. مفاجأة اتسمت بالغرابة والقسوة وسوء الطالع".

لم يرضه هذا أيضاً. أهمل الكتابة وتناول كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي" ونهض.

كانت الفتاة قد اكتفت بالقسط الذي حظيت به من اللهو ودخلت إلى الصالة. نظر إليها طويلاً كاد أن يقول لها لماذا لا تبقين في الخارج، غير أن فكرة خطرت بباله في تلك اللحظة فباشرها. أجلسها على المنضدة. تناول مجلة مصورة ثم خطرت بباله فكرة أخرى تناول ورقة بيضاء وأعطاها قلماً حاول أن يدربها على الإمساك به بثلاثة أصابع كما يفعل هو وكما يفعل جميع الناس، فلم ينجح فتركها تمسكه بقبضة يدها. نظرت إليه متسائلة والقلم بيدها. أخذ قلماً آخر ورسم وجهاً وأشار إليها أن تقلده. أخذت وقتاً في المحاولة. تركها واضطجع على المقعد الطويل وشرع في القراءة. جاءت إليه لتريه الرسم. طلب إليها أن تفعل ذلك مرة أخرى ومضى في القراءة. أخذت وقتاً أطول من السابق ورسمت عدة وجوه وقطع هو شوطاً في القراءة.

رفع جذعه وأشعل لفافة. جاءت لتريه ما رسمت. تقبله بسرور. نهض وأعطاها ورقة أخرى وحاول أن يرسم وجه قط. حقق نجاحاً ضئيلاً.طلب إليها أن ترسم شيئاً مماثلاً وعاد إلى القراءة. لم يأسف لبقائه في المنزل وخسران سهرة مع الأصدقاء، فالبديل أكثر متعة. فكر بالأيام المقبلات التي توعد بمزيد من اللطف والإمتاع، ستمنحه غبطة لم يشعر بمثلها من قبل. استسلم لنعاس خفيف لذيذ، فأغمض عينيه، غير أن الباب طرق بشدة فارتج ونهض مستفزاً، حانقاً. فتح الباب وفوجئ بالأشخاص إياهم يقفون بالباب. القوا التحية ورد بمثلها ود لو يكتفون بسؤال واحد ثم يعودون ولكنه دعاهم على سبيل الحيطة للدخول وأفسح لهم الطريق. دخلوا.

كانت الفتاة مستغرقة في محاولات رسم أشكال لرأس القطة. رأتهم إذ عبروا الباب. وهنت قواها وارتعدت ثم نهضت وأسرعت إلى غرفتها واختبأت هناك. نظروا إليها مبهورين وكأنما يرون ميتا نهض من قبره ومشى على قدميه.

لاحظ انبهارهم. قال:

- تفضلوا واستريحوا، أهلاً وسهلاً.

جلسوا وتبادلوا النظر في وجوه بعضهم البعض. كرر التحية فلم يرد عليه أحد منهم. توجّس شراً وانتظر على مضض ما يخفون. سأل أحدهم بعد صمت ثقيل:

- ماذا فعلت لنا أستاذ.

استغرب كلمة لنا. فالمشكلة أولاً وآخراً مشكلته هو وليست مشكلتهم هم. فلا ضرر يطالهم من الفتاة الآن وهي لا تخرج إلى الشارع ومع ذلك وجد أن لا خيار له سوى الإجابة. قال:

- خيراً إن شاء الله.

لم تشف إجابته غليلهم. اتبع السائل سؤاله بآخر:

- بماذا أجابت الوزارة؟

لم يعرف ماذا يقول. فكر لحظة ونهض ليخلص نفسه من المأزق وقال:

- نشرب الشاي أولاً ثم أحدثكم.

ذهب إلى المطبخ فلم يجدها. بحث عنها ووجدها تختبئ في غرفة النوم خلف السرير. نظر إليها بإشفاق وتكونت لديه رغبة في التحدي. دعاها للحاق به. أذعنت ونهضت. أخذها إلى المطبخ. ملأ إبريق الشاي بالماء وأتى بأكواب بعدد الأشخاص ووضع الإبريق فوق شعلة الغاز. تركها ترقب غليان الماء وعاد. حياهم مرة أخرى وجلس ولم يقل شيئاً. قال السائل:

- نعم أستاذ؟

رد عليه بجفاء قال:

- لم أحصل على جواب بعد. هذا أمر يتطلب وقتاً.

سأل والد الصبي بلهجة حانقة.

- لماذا؟

رد عليه بالجفاء ذاته:

- الأمر بيد الوزارة وليس بيدي.

قال البقال بلهجة أقل تشدداً:

أستاذ: حبال الحكومة طويلة. فإذا تركت الأمر للموظفين فسوف يهملون الطلب. أنا متقاعد وأعرف كيف تجري الأمور في دوائر الدولة.

رد عليه بجفاء أقل. وقال:

- معك حق. سأذهب غداً.

تنحنح أكبرهم سناً وداعب حبات مسبحته وبسمل وقال: الكلام للجميع. أنت يا جارنا العزيز أستاذ وتعرف أكثر من أي واحد منا. أولادنا يتربون على يديك. صمت. ترقب الجميع كلامه بلهفة. تنحنح مرة أخرى وتابع:

- الفتاة بالغة، نحن لا نشك بك - سامحنا الله - ولكن لا أحد يقبل بوجود فتاة غريبة في منزل رجل ولا الدين يسمح ولا نحن ولا أنت.

امتقع وجه الأستاذ حسان وجف ريقه. التفت جهة الباب ورأى الفتاة تحمل صينية الشاي.

نهض وأخذها منها وتقدم من أول رجل إلى يمينه. غير أن الرجل نهض غاضباً وقال:

- ما هذا؟ تسقينا شاي المجنونة.

وقف الآخرون وأعلنوا احتجاجاً بطريقة أسوأ.

قال أحدهم وهم يخرجون:

- لا تنسى أن عاداتنا لا تقبل بوجود فتاة في منزل رجل غريب. نحن حذرناك.

تابعهم بنظره وهم يخرجون. تشتت ذهنه وتحنط ولم يدرك ما رموا إليه تماماً إلا بعد فترة وجيزة من الوقت، فاحتدمت مشاعر غاضبة بداخله. ركل المنضدة بقدمه فانقلبت إلى جانبها وسقطت منفضة التبغ وتناثرت الأعقاب.

نظر صوب الفتاة التي جاءت ووقفت خافضة الرأس وهي تراقب المشهد. وجه غضبه إليها وصرخ محتجاً على وجودها الساذج.

لم يحتمل البقاء في المنزل أكثر؛ فقد خشي من ثورة غضبه وانفعاله. خرج دون وداع واستقل سيارته إلى المقهى.

كان غضبه الذي احتبس عنّوة بداخله قد استحال إلى حالة من الإحباط، لا يفسرها إلا هذا التاريخ المستتر لرجل ابتلع الكثير من الخيبات، فكر بالعديد من المواجهات الحادة والمصادمات التي لم يكن عنها غنى، وكيف تباينت مواقفه في كل مرة بين معاندة وصلف وبين انهزام صموت وانحناءة، وكم مرة ثبت على موقف بشأن ضئيل لا يعني بالنتيجة شيئاً سوى تمييزه عن غيره بأنه صاحب قناة لا تلين وكم مرة نكص على أعقابه في مواجهة كانت ستكلفه شرف موقفه مقابل حريته أو شرف موقفه مقابل أمنه الاقتصادي.

كان يعلل ضعفه سابقاً حين يتقوقع مهزوماً بأنه أُكره بسبب مسؤوليات الأسرة على موقفه الضعيف. وماذا عن الآن؟ سأل نفسه. لم أعد مسؤولاً عن أحد، فما الذي ألجمني؟. لم يجد لديه الجواب." تباً لي" قال لنفسه، لقد أدمنت الخنوع. توقف عن مساءلة نفسه وتلهى بالنظر إلى الناس الذين يمر بهم وفجأة صرخ بصوت عال: >يا إلهي". ثم تمتم في سره: >هذا الكائن البشري الضعيف، المراوغ والكاذب، والمدعي، ما الذي يسعى إليه وكيف تتحدد وجهته؟ كيف يتماسك ويقوى وكيف يضعف وينهار كيف يتسامق ويتيه كبراً وكيف يتقصّف ويذوي".

اشتدت رغبته للاجتماع بكائنات بشرية مثله وود لو يعيره أحدهم أدنى اهتمام فيحاوره.

أيصحُّ أن يبقى هكذا غارقاً وحده فيما يؤلمه ولا يكشف لغيره شيئاً مما يعاني منه؟

دخل المقهى في وقت فرضت فيه لعبة الشطرنج سيادتها الكاملة على الأصدقاء وألزمتهم بكتم أفكارهم ومشاعرهم. حياهم وجلس. راقبهم بغيظه وتساءل إن كانوا جميعاً على هذا القدر من المزاج المعتدل دون غصات ودون ما يؤرقهم، ولماذا هو وحده المبتلى؟. طفرت دمعة بعينه. التفت السياسي نحوه، أنعم فيه النظر وقال:

– تبدو شديد الانزعاج. رأيتك من قبل منزعجاً ولكن ليس إلى هذا الحد؟.

كان السؤال فاتحة لكلام لم يجر مثله من قبل بين رواد لعبة الشطرنج. اغرورقت عينا الأستاذ حسان بالدموع ثم انحدر دمعه تباعاً. نهض مبتعداً إلى مكان خليّ. لحق به السياسي وجلس قبالته. ربت على كتفه وقال:

– أبا لطفي – هون عليك. ما بك. أمات لك أحد. حدثني أرجوك.

رفع رأسه مثقلاً بالهم. لم يعد يجديه التظاهر فقد انفضح ضعفه وبكى في حضرة رجل آخر. مسح دمعه بمنديل ثم أشعل لفافة، اصطنع ابتسامة بعد أن أخذ نفساً. وقال:

– لا شيء مهم. غمامة وعبرت.

غير أن السياسي لم يقنع بجوابه. قال:

– أبا لطفي. لا أظنها غمامة وستنقشع. إنك موجع أكثر مما ينبغي وأظن أنَّنا أصدقاء – لم نتحاور أكثر من قبل – ولكننا أصدقاء.

صمت. ثم أشعل لفافة هو الآخر. ثم قال:

– مالنا نخجل من آدميتنا ونتظاهر بأننا أقوياء لا نرتجّ بالداخل ولا نجزع. نتحدث عن الهمّ ونستخف بما هو إنساني وذاتي ونخفيه بحذر عن سوانا.

عبَّ نفساً آخر وتابع:

– أنت تعرف أنني عازب في الخامسة والأربعين. ولا تعرف إن كنت أحمل عاطفة لامرأة أم لا، تكتفي مني بأنني مناضل سياسي وتعتقد أن لا هم خاص يؤرقني وأن لا قضية لي سوى قضايا الشعب. وأنا أكتفي بذلك أيضاً. أتعرف أن الفتاة التي أحببت والتي بلغت الأربعين وهي تنتظرني. فقدت رونقها فجأة بنظري وحينما حدثتني عن الزواج قبل أسبوعين فزعت. ولم أنبس بكلمة. أتدري ما قالته لي، لقد انتظرتك كل هذه الأعوام حتى فقدت نضارتي. إنني

أتركك الآن بدون أسف.

صمت ودمعت عينه هو الآخر. وتابع:

– بعد يومين من لقائنا. علمت أنها تزوجت ولم أعرف إلا حينها أية خسارة حاقت بي، جئت في المساء إلى المقهى وكنتم تلعبون الشطرنج ولم يلتفت إليّ أحد منكم.

رفع الأستاذ حسان رأسه ونظر إلى صديقه متعرّفاً على ملامحه من جديد ولم يدر ماذا يقول، فصمت في حضرته. قال السياسي بعد صمت"

– وأنت ما بك.

سهل الكلام على الأستاذ حسان وروى قصته متجنباً التفاصيل ولم ينتبه إلى أن الآخرين تركوا المقهى. قال بعد أن فرغ من الحديث:

– لا أعرف ما الذي يخططون له.

قال السياسي بعد تفكير:

– لديّ حلّ يرضيك.

انفرجت أسارير الأستاذ حسان وارتبك وهو يسأل عن الحل.

قال:

– تعيش معنا. أنا وشقيقتاي.

نظر إليه غير مصدق ما سمع.

أكّد السياسي كلامه:

– آخذها لتعيش معنا.

وجد أن كلامه واضح لا لبس فيه، صادق بدون ادعاء ولم يجد لديه سبباً يتعلل به لرفض الدعوة. سأل:

– وهل ستقبل شقيقتاك بها.

أجاب السياسي بثقة:

– ستقبلان بدون شك. فهما بحاجة لمن يؤنس وحدتهما أيضاً. سأحدثهما الليلة عنها وفي الصباح نلتقي.

قال الأستاذ حسان بعد أن خرج الأمر من يده:

– ليس في الصباح الباكر. نلتقي بعد انتهاء الدوام في المدرسة إذا رغبت، ثم نذهب معاً.

قال السياسي:

– حسن، اتفقنا، آتيك الساعة الواحدة.

نهضا معاً وغادرا المقهى وافترقا.

سرت في نفس الأستاذ قشعريرة وأخيراً سترتحل قال لنفسه، ولكنه ارتحال آمن وميسور.
إنَّه أفضل ما يمكن أن تحصل عليه.

الثلاثاء

أحسَّ الأستاذ حسان منذ أفاق في الصباح الباكر بانقباض شديد ووجع جواني. وامتلكته مشاعر باهظة، لايحس بمثلها إلا من يوشك على الانفصال عن عزيز ولاحت له نذر الشؤم ثقيلة الظل تحوم في المنزل وتلقي عليه غلالتها القاتمة، إنَّه يتمثل الآن الفراغ الذي سيحيط به والصقيع الذي سيشمله، فها هي ستنفصل عنه آخر الأمر. وكان انفصالها محتماً منذ البداية. فكيف سمح لنفسه بهذا الاقتراب ولم يعر خطورته أيَّ اهتمام ولم يدر، لم يدر - سامحه الله - بأي وجع سيحس حين يأزف موعد انفصالها عنه. ما كان لأحد أن يقبل صلتها به، فهي مجرد مخلوقة متشردة، مختلَّة العقل، فكيف إذا كان الاقتراب لصيقاً وحميماً إلى هاذ الحد؟ - سامحهم الله - فهم لا يعرفون أنَّ هذه المخلوقة القذرة الشوهاء رغم ما يرون فيها، بالغة الرقّة وقد يسّرت له من اللطائف ما ضنّ بها غيرها عليه. أشعرته بالدعة وهناءة العيش. ضغط بيده اليمنى على صدره وقال ملتاعاً،" يا إلهي، من ذا الذي يلومني، من ذا الذي يملك حق إدانتي وقد أهملني ولم يعبأ بي".

أخذ نفسه من الفراش إلى المطبخ، ولم يفطن إلاّ بعد حين من وقفته الجزوعة، إلا أنها كررت ما كانت قد فعلته البارحة، فقد أعدت طعام الإفطار وأخذت الشاي إلى العريشة وجلست بانتظاره هناك، ابتسم برفق إذ التقى بصره بها وتنبّه إلى الطعام المعّد على المائدة، تأملها بأسى، فهذا الطعام لن يتكرر في حياته مرة أخرى، أشارت إليه كي يقترب. أقترب وجلس قبالتها. كاد أن ينطق بما يهمّه، لكنه تذكر أنّها لن تسمعه، فازداد أساه وتناول جريدة الأمس ليخفي عبرته خلفها.

نظر إليها بعد حين، كانت تشرئب بعنقها وتتأمل الدالية، نظر بدوره إلى الدالية ورأى سرباً من العصافير ينتشر عليها وحطّ بعض منه على السور. راقب العصافير في تقافزها البهيج وانتقالها من موقع إلى آخر. قفز القطّ إلى السور ففرَّت العصافير وبقي القطُّ يحلق به. لم يرغب في مشاكسة القطّ لكن القطَّ فرّ من تلقاء نفسه حين وقفت الفتاة.

تفرّ العصافير من القطّ ويفر القطُّ من الفتاة المشاكسة وتفرّ الفتاة المشاكسة من الأولاد الأشقياء، ويفرُّ الأولادُ الأَشقياء ممَّن هم أكبر منهم وأغلظ، ويفر اللصّ من الشرطي ويفر

الشرطي من همه، وتفر العانس من وحدتها، ويفرّ الزوج المبتلى بضجيج العائلة إلى الحانة، ويفرّ هو من نفسه، ويفرّ من عزلته، غير أن عزلته تلاحقه وتطوّقه من جديد فلا يقدر أن يفرَّ منها.

ستنتقل الفتاة إلى مكان آخر وتتركه لعزلته. ستنتقل لتعيش مع آخرين، ستعيش مع نساء، حيث لا أحد يملك حق التدخل في شؤونها بعد ذلك ولا تعكير صفوها. ولا يدري إن كانت ستفرّ من المرأتين أم أنهما ستفرّان منها، أم أن الجميع سينسجمون ويفرّون معاً من شيء آخر. ستعيش مع المرأتين وتسلو عنه مع الزمن وتنساه. أما هو، فسيعود إلى ما كان عليه. سيجلس تحت العريشة بمفرده، وربما لا يتناول الشاي، وسيلوب في المكان نفسه. متصفحاً الأشياء ذاتها، الجدران والرّواق والنوافذ وأثاث المنزل والكتب، وسيلوب كابي الإضاءة، ضجراً، سيلوب لتمضية الوقت فقط، وفي كلّ يوم يخسر شيئاً من قوّته وتفرّ منه رغباته.

التفت إليها من جديد، كانت تتأمله بشغف وحنان، خفض بصره وأحسَّ بالوجع والخوف يكبران داخله نهضت وأخذته من يده إلى مائدة الطعام. أكل قليلاً وترك المائدة إلى الحمام. تساءل وهو يغتسل إنْ كان لديه سبب جدّي واحد يدعو لمثل هذا الذي يحسّ به. إنها مجرّد دخيل طارئ وجيز الإقامة وما كان لها أن تستقر وما من أحد يرضى له بوجودها الدائم، حتى هو نفسه، لا يرضى، فلماذا هذا الوجع؟ كانت سترتحل على أية حال بطريقة أسوأ ربما، وبدون أن تحظى برعاية أحد. فلماذا هذا التوجع. أتكون قد دجنته" قال الثعلب للأمير الصغير: دجِّنّي، وقال الأمير الصغير للثعلب: ولكنني سأرحل وستتألم". ولكنها لن ترتحل إلى مكان مجهول ستقيم لدى أصدقاء وسيتمكن من رؤيتها بين الحين والحين ويطمئن عليها وسيأتي بها أحياناً إلى منزله لتقضي معه سويعات فلماذا هذا التوجع؟. ألا يكفيه أنه خلّصها من شقائها ووفرّ لها أسرة ترعاها.

بارحه قدر كبير من المشاعر التي أثقلت عليه، خرج من الحمام مغتسلاً، حليق الوجه، قانعاً بما تقرر وأتجه فوراً إلى غرفته. اختار سترة وبنطالاً غامقي اللون يصلحان زيّاً للمناسبات ولم تطلهما يد الزمن وتعبث فيهما كثيراً. بحث عن ربطة عنق مناسبة من بين العدد القليل الذي يملكه واتسمت ملامحه إذ ذاك وهو يرنو إلى نفسه عبر المرآة بالجدّية. قرر أن يزور ابنته ويتناول طعام الغذاء لديها وهو بهذه الهيئة ثم يقضي المساء لدى ابنه.

خرج من الغرفة أكثر ثباتاً. اتجه إلى العريشة وجلس ليقضي ما بقي له من الوقت. جاءت وجلست قبالته. تجنب النظر إليها أو تبادل حديث معها بالإشارات. تساءل إن كان يجدر بها أن تعرف ما رُتِّب لها. ولكن كيف سيشرح لها وأيُّ لغة ستسعفه! أيتركها أياماً أخرى ويأتي بصديقه لتألفه أو يأخذها بزيارات متقطعة إلى منزله. نفى أن يكون ذلك ممكناً. لقد قضي الأمر على هذا النحو وبهذا التوقيت وعليه أن يعتاد غيابها ووحدته. أشعل لفافة واستمع إلى نشرة أخبار السابعة ووجد في نفسه على غير عادته ميلاً للبقاء في المنزل وعزوفاً عما عداه، فلم ينهض ولم يستعجل الخروج.

ظل على جلسته عبوساً، يفكر أن الحوار مع الفتاة بات ضرورياً، ورغم أنه يدرك سلفاً أنه لا يملك الوسيلة لمحاورتها وأن الحركات والإشارات والرسم لا تسهل له توضيح مشاعره وأفكاره كما أن الحديث نفسه، حتى لو كانت تحسن السمع، سيقصِّر عن التعبير، إلا أن التفكير بضرورة الحوار ألحّ عليه، فليس من المعقول بشيء أن يفاجئها بأخذها إلى منزل آخر دون أن يوضح لها السبب.

طال الوقت به وهو يقلب المسألة على وجوهها المختلفة فتبين له أنه في الوقت الذي أدرك به أن الحوار بات ضرورياً إلا أنه في حقيقة نفسه لا يملك الجرأة للإشارة للأمر مجرد إشارة وأنّه إنما يتعلل بعجزه عن امتلاك وسائل التعبير، وإلا لفعل أيَّ شيء وابتدع وسائل جديدة.

كانت الشمس قد اقتحمت الواجهة الشرقية ولم تستطع الدالية أن تحجبها. ضايقه الحرّ خصوصاً وأنَّه يرتدي سترة وربطة عنق.وكانت الفتاة قد هربت من الحرّ ولم يستطع التخمين إلى أين. تأفف بسبب الحرّ وقبل أن ينهض ليغير مكانه جاءت ووقفت قبالته، أشارت إلى الشمس ثم إلى الخارج وحركت كفّها بإشارة يفهم منها المسير. فهم أنها تقول له أنه تأخر في الخروج.هزّ رأسه موافقاً ونهض. أنعم فيها النظر ثم سار نحو الباب الخارجي.

تأكد من إغلاق الباب الخارجي. ولم يكن قد فعل ذلك من قبل. قاد سيارته متمهلاً واستعرض وهو في الطريق شريط حياته كلها. عقد مقارنة بين النجاحات التي أحرزها والهزائم التي مني بها. ورأى أن نجاحاته الصغيرة لم تكن إلا وجهاً محسّناً مقنعاً لخسارات أفدح. وأنَّ ما ظنه مرة نجاحاً لم يكن في حقيقته إلا خسارة لشيء آخر أكثر أهمية وتأثيراً في مجرى حياته. ألا يعني ذلك أنه عاش في غفلة كبيرة؟ وماذا يجديه الآن استذكار هذه الحقيقة المبئسة؟. وماذا

تبقى له من الوقت ليحقق نجاحاً واحداً مبرءاً من الخسارة؟. نجاح واحد يشعره بالرضى والفخر ويمنحه الثقة بالنفس. قال لنفسه ثمة وقت مهما قصر، ثمة وقت يكفي لإنجاز نجاح محدود. إنَّ النجاح نجاح سواء أكان محدوداً أم كبيراً، فليبدأ في اللاشيء وبدون مساعدة من أحد. أدرك أنه إنما يعني الفتاة. ليس بعاص عليه الاستغناء عنها وامتياح ما يشوّقه وما يحفّزه بدونها. بل ربما هذا أفضل ما ينبغي أن يكون. هانت عليه فكرة رحيلها فتماسك وقرر أن يسلك سلوكاً عادياً كأنما لا شيء استثنائياً يحدث معه. أشغل نفسه بمراقبة الطريق واتخاذ الحيطة في قيادة السيّارة.

صافح المدرسين بوقار جمّ، مؤكداً على رفعه منزلته وتمنع ذاته عن الهوان واتخذ مقعده في غرفة الإدارة، غير أنه لم يجد لديه الحماس الكافي للقيام بأي فعل أو نشاط، فقد خطر بباله على نحو فجائي أن ثمة خللاً ما وأراد أن يستجلي هذا الخلل، فأهمل العناية بإدارة المدرسة وفكر بدون نجاح في مكمن الخلل.

حشر نفسه بين جموع الناس وسط العاصمة وتفقد البضائع في المحلات واشترى اخيراً ثلاثة فساتين وخفاً وبعض القطع الداخلية.

رغب في المضي بما اشترى إلى المنزل وقضاء وقتاً مع الفتاة، علَّه يجد وسيلة لإخبارها بما يرتب لها ويوضح أسبابه، لكنه أدرك استحالة التوضيح دون الاستعانة بالكلام. وقد يعجز الكلام نفسه في نقل مشاعره.فكيف إذا كانت لا تملك السمع. استحسن ترك الأمور لوقتها، فلا يأتي من جانبه بفعل قد يفسد عليه كل شيء.

عاد إلى المدرسة، أنجز مهامه كالمعتاد ثم جلس لدى انتهاء الدوام بانتظار صديقه، متشككاً بمجيئه. فما مر به من إحداث. أظهر له أن السوء وحده ثابت أو مرجح، أما النافع فلا يتعدى دائرة الحلم. ولكن ما إن أعلنت الساعة من اقتراب الوقت من الواحدة ظهراً حتى رأى صديقه يعبر الغرفة ويتقدم لمصافحته. نهض باسماً وصافحه ودعاه للجلوس. جلس وقال بعد أن فرد ابتسامة عريضة على وجهه.

- الأمر كما قلت لك. رحبت شقيقتاي باستضافة الفتاة ورتبتا لها مبيتاً جيداً.

هدأت مخاوفه ووجد أنَّ هذا الذي كان يتشكك بحصوله يتحقق ببساطة تامة، تأمل بمودَّة

زائدة وافتتان ملامح صديقه الذي انشغل بمراقبة محتويات الغرفة، رأى أن صديقه بهي الطلعة وادع الملمح وإن غزا الشيب شعره مبكِّراً. استغرب أن يتعرض رجل مثله رهيف الإحساس وادع إلى اضطهاد السلطات بحجة أنه يتبنى فكراً سياسياً مختلفاً. قال له بعد أن واجها بعضهما:

- لا أدري كيف أشكرك!

رد عليه:

- بل أنا الذي أشكرك لأنك تحملت الكثير من أجل إنسانة مستضعفة.

لم ترق له هذه الإجابة لما فيها من احتكار للهم الإنساني.

نهض وقال:

- هلمَّ بنا.

نهض صديقه أيضاً وغادرا المدرسة. استقلا سيارة الأستاذ حسان واتجها مباشرة إلى المنزل. اقتصر كلامهما في البداية على اكتظاظ السير ومسبباته وآداب السواقة. ثم عرّج السياسي على الطفرة الاقتصادية التي وفرت لأفراد بعض العائلات أكثر من سيارة. فكر الأستاذ حسان بالفتاة ولم يصغ لصديقه. ولدى خروجهما من اختناق وسط العاصمة قال بدون مقدمات.

- الفتاة تتناول الطعام بطريقة شرهة تثير التقزز.

بتر السياسي كلامه وقال:

- ماذا تتوقع منها. فهي بالتأكيد لم تتعلم آداب الطعام في الصالونات.

قال الأستاذ حسان:

- ولا تنتبه لنظافة الحمام.

قال السياسي:

- لَمِ تحتج النظافة وهي تتبرز في الطرقات.

قال الأستاذ حسان:

- وهي طفلة. تحب اللهو ولا تعرف إلا الحجلة.

لم يعلق السياسي.

قال الأستاذ حسان:

– ولكن لها قلباً من ذهب. قلباً يلمّ بما بك حتى لو أخفيت مشاعرك.

قال السياسي:

– لا أظنها تحتاج إلى التعليم كي تكون كذلك.

قال الأستاذ حسان:

– أظنها ستحزن لفراقي وقد تمتنع عن الطعام؟.

ربت السياسي على كتفه وقال:

– لا تخش عليها. سنعرف كيف نعالج أمرها.

قال الأستاذ حسان.

– إنها مشكلتي أنا فلماذا أثقل عليك.

قال السياسي:

– ليس هناك أدنى مشكلة. نحن بحاجة لها. كف عن الحديث عنها.

قال الأستاذ حسان:

– ربما آتي لرؤيتها أحياناً.

قال السياسي:

– إنني أرحب بك دائماً.

– وربما آخذها لتقضي نهاراً عندي.

لم يعلق السياسي، فقد تأذى من كثرة الأسئلة والتعليقات، كما تأذى من إهمال الأستاذ حسان لحديثه، ولكن حين همّ الأستاذ حسّان بقول جديد خاطبه بجدية تامة وصرامة:

– اسمع أنا أفهم تعلقك بالفتاة وأنا قبلت بها عن طيب خاطر إكراماً لك، فلا حاجة لأن تكثر من التعليق. قلها ببساطة، قل إنّك متعلق بها ويصعب عليك فراقها. أنا أدرك مدى عوزك وحاجتك إلى السلوى. أنت صنعت معجزة بتخليص الفتاة من بلواها وتحب أن ترى نتائج فعلك الطيّب.

فوجئ الأستاذ حسان بلهجة صديقه الصارمة واستعاد بسرعة أسئلته وتعليقات صديقه المبتسرة وأدرك أنّه لم يوفق أبداً في طرح الأسئلة. صمت وصمت صديقه أيضاً وطال صمتهما.

زايل الأستاذ حسان قدر كبير من الضيق والتخوف ورأى إلى الأمر بالبساطة التي يقتضيها. فلا أنفع له وللفتاة من هذا الذي سيتم. قال:

- معك حق. لقد تعلقت بالفتاة كثيراً، فأنا أعيش وحيداً منذ زمن طويل. وحتى حينما كانت زوجتي على قيد الحياة، كنت أشعر ببرودة الوحدة. لقد انكفأت على نفسها - رحمها الله - بعد زواج ابنتنا وخلو الدار من الأولاد ومرضت. فانقطع الكلام بيننا. لقد اعتنيت بها طوال سنتين ولكن لم ينفع معها شيء.

كانت تضمر وتموت شيئاً فشيئاً - رحمها الله - لقد أينعت حياتي من جديد واخضرت وأنا أراقب بزهو الفتاة وهي تتفتح وتتعلم وأحسُّ بحنوها وقربها مني ولكن الناس - سامحهم الله - لا يحبون الخير لأحد.

انبسطت الطريق ولاحت في السفح بيوت الحّي. أحس الأستاذ حسان بوجيب قلبه، فلحظة المفاجأة أزفت ولم يعد خطته بعد. سأل صديقه ببله.

- كيف نتصرف؟ لقد وصلنا.

لم يكن لدى صديقه أيضاً أدنى فكرة عما سيفعلانه، ابتسم ببله أيضاً وقال:

- والله لا اعرف.

أشغل كل منهما فكره بإعداد خطة موفقة ولم يكن ثمة وقت. انعطف الأستاذ حسان إلى اليمين وبعد أربعماية متر تقريباً توقف ثم صرخ قائلاً:

- الباب الباب، لقد خلعوا الباب.

نزل من السيارة على عجل ولحق به صديقه مستفزاً، مستغرباً سلوكه.

كان باب المنزل الخارجي مفتوحاً على مصراعيه وكذلك باب المنزل الداخلي وقد تجلى بشكل أوضح آثار العنف على حالة البابين. اندفع الأستاذ حسان إلى الداخل ولحق به صديقه. كانت أثار عراك جلية أيضاً في الصالة. فالمقاعد أزيلت من أمكانها ومنضدة الوسط انقلبت وارتمت إلى جانب منضدة الكتب وفي وسط الغرفة مزقه من ثوب الفتاة وبقع من دماء كأنما جيش بأكمله اقتحم المكان. أسرع الأستاذ حسان إلى الداخل ووقف صديقه منبهراً متألماً ممتقع الوجه ولم يسأل الأستاذ حسان حين رآه يعود مخذولاً كسيف الوجه عن الفتاة فكل شيء ينبئ بما حدث.

ليلة عاصفة

١٩٩٦

"سار لا يدري إلى أين، ليس إلى جهة معينة، ليس إلى مكان معين، لا يريد الاختباء الآن، لا يريد الاحتماء الآن، سار دون هدف، سار وتعثر وسقط، ارتفعت حرارته وتخاذل جسده وخارت قواه وما توقف، تشبث بالسيارات والأشجار، كان يسمع دوي الرصاصة القاتلة، الرصاصة الآثمة، الرصاصة التي لا تعرف الرحمة – لعن الله الرصاص – لعن الله مخترع الرصاص والبارود والسلاح – دوي الرصاصة يطنُّ في رأسه ودلال جثة هامدة، قتل الرصاص شريكة ليلته، من فتح عينيه على الرعب؟ من فتح عينيه على الحقائق؟ من أراه عمان على حقيقتها؟ من كشف له السر المكتوم؟ من كشف له الخديعة وأظهر له الحقيقة؟".

عمان...
صباح جمعة كانونيّة

صخب وغضب منذ مطلع الصباح، موجة عاتية من سخط الطبيعة تفلتت من عقالها واندفعت في جموح متعسف نحو سماء عمان. الفضاء معتكر شديد الاضطراب والعاصفة الهوجاء في طريقها الآن.

كان ذلك مبعث كدر جلال الهزيعي، الذي عانى في الأيام الثلاثة المنصرمة من تواصل الأمطار، ومنَّى نفسه بنهار مختلف أكثر هدوءاً ويسراً.

كانت العاصفة مفاجأة غير سارة، فقد استمع ليلة أمس إلى نشرة الأخبار الجوية واطمأن إلى صحة تحليل خبيرها الذي ذكر أنَّ المنخفض الجوي في سبيله إلى التحرك شرقاً، وأن ارتفاعاً ملحوظا سيطرأ على درجات الحرارة. كان هذا على وجه التحديد ما يريد سماعه، ما يرغب في حدوثه، فلعلَّه يتخلص من بعض كربه ويحظى بفسحة من النهار رائقة، غير أن الوضع تكشف عن سوء أكثر، فأشكل الأمر عليه وظل في رقدته مشدوهاً شديد الأسف.

لقد خطط لأمر في غاية البساطة، غير أنه كبير الأهمية لشخص يعيش بمفرده، حيث تصبح العزلة أحياناً بحد ذاتها كارثة لا تحتمل، كان من عادته وفي أواسط النهار أو عند نهايته، حين يعود من الجامعة، أن يقضي بعض الوقت في مقهى شهرزاد، الذي يقع في وسط العاصمة والذي يؤمه حشد من المثقفين، يمارسون فيه طقوسهم الخاصة التي لا تشابه طقوس رواد المقاهي من قريب أو بعيد. إنه مقهى صغير لا يتسع لأكثر من خمسة طاولات، ولكنه ثري برواده المتجانسين في ثقافتهم، والذين لا هم لهم سوى القراءة وتبادل الأفكار والأحاديث التي لا تكون شيقة إلا لمن ألم بها.

في هذا المقهى لا مجال للهو من أي نوع ولا مجال لأي ضجيج، فلا ورق لعب ولا طاولة نرد ولا نرجيلة. في هذا المقهى يجلس بانتظام رواد دائمين يتوزعون المكان بهدوء، يحملون صحفهم وكتبهم وأوراق الكتابة، يحتسون القهوة اللذيذة التي يحسن أبو يوسف صنعها أو الشاي وربما أحياناً البيرة الباردة، وهو المقهى الوحيد الذي تؤمه الفتيات في سعي منهن لإضفاء أهمية على أنفسهن باقترابهن من زمرة المثقفين، ويمكن القول إنَّ هذا المقهى على صغره مركز ثقافي له

جاذبية شديدة، إنه مكان مختلس من شارع الملك حسين التجاري، مخفي عن أعين الدخلاء، خيمة ظليلة في صحراء، رحم دافئ لأولئك الذين نجحوا في دخوله، ناد شديد الخصوصية يتطلب دخوله بطاقة انتساب والبطاقة هي زوادة من الثقافة. لقد حصل هو على هذه البطاقة وأصبح عضواً مقبولاً.

صار الذهاب إلى المقهى عادة مستحكمة يصعب عليه التخلي عنها، ومتعة فاقت كلَّ المتع الأخرى، لقد خيل إليه حين استمع إلى النشرة الجوية، أن بوسعه أن يقضي معظم وقته في المقهى وان يسير على قدميه متمهلاً، فالمسافة ما بين موقع سكنه والمقهى ليست كبيرة، ويكفي منه أن يسير بضع مئات من الأمتار ثم يحدر أدراجاً تؤدي إلى أدراج أخرى حتى يجد نفسه في أول شارع الأمير محمد.

لقد بلغته الأصوات الصاخبة لحظة أفاق وأصغى إلى صرير الريح وقرقعة النافذة والباب، وكل ما تأتي به الرياح شديدة الهبوب من إزعاجات، فتكدر وخاب ظنه وانكمش في سريره منشدهاً، ثم تتالت على مخيلته تهويمات غامضة مضطربة، كان يمكن أن يمضي في رقدته على هذه الحال مدة طويلة لولا أن البرد وخز وجنتيه ويديه وأشعره بصعوبة الاسترسال في ما هو فيه، ففتح عينيه ورأى غرفته تغرق في ظلمة شفيفة مع أن الساعة جاوزت السابعة والنصف.

يتعين عليه الآن، كي يبدأ صباحه، أن يقوم بأكثر المهمات الصغيرة إزعاجا، فلكي يستقيم له الوضع ويطيب المكان، لا بد من إشعال المدفأة والمرجل الكهربائي وغسل وجهه بماء شديد البرودة. هذه المهمات تبدو في حينها شديدة الإزعاج، غير أنه سرعان ما ينتهي منها حال الشروع فيها، ثم يتخطاها إلى استقرار مريح.

في منزل العائلة، في بلدته الريفية النائية، كانت والدته تتكفل وحدها بواجبات الصباح حتى قبل أن يصحو من النوم، فيجد النار مشتعلة في المواقد والماء ساخناً في قدر كبير وإبريق الشاي في انتظاره، أما الآن فليس من معين له سواه، لقد اختار هذا الوضع الصعب المهيأ لأزمات من هذا القبيل وليس له أن يندم أو يعضَّ ناجذيه، فقد طلب ذلك بنفسه وتخلّى من أجله عن الاستقرار والراحة الطمأنينة، فقد أشغل وظيفة مدرس بعد أن تخرج من دار المعلمين وحظي باحترام وتقدير الجميع، وكان والده يعدّ العدة لتزويجه من إحدى فتيات البلدة وما

درى أيَّ قلق يعصف به، ذلك القلق الذي أدى به إلى الاستقالة من عمله والسعي للإقامة في عمان.

بذر ذلك القلق في نفسه مدرس جاء من عمان. لقد طرح عليه كثيراً من الأسئلة التي تتعلق بالكون والتاريخ والإنسان. كانت أسئلة من ذلك النوع الذي يدخل من باب المحرمات وتتناول قضايا استقرت العادة على تقبلها كما هي، ورفض بل تحريم التفكير بها، لقد فعل ذلك المدرس فعله المؤثر في استثارة خياله، خاصة وأنه كان يسأل ثم يجيب عن أسئلته بنفسه، فاتحاً ثغرات في جدار عقل المستمع، لافتاً انتباهه إلى مسائل يكفي الالتفات إليها، حتى يسعى العقل الآخذ بالتفتح إلى محاولة الاقتراب منها والتعرف عليها.

ما مكث ذلك المدرس بين ظهرانيهم طويلاً، فقد اعتقل في منتصف عامه الدراسي وترك فراغاً كبيراً وأسئلة محيرة وتشوقاً كبيراً لمزيد من المعرفة.

لقد اقتفى بعد أن أشغل وظيفة مدرس إثر مدرِّسه وراح يبحث عن كتب ترفد فكره بما يساعد على الإجابة عن أسئلة تواردت على خاطره، فأكثر من الخلوة والقراءة وكلما كثرت قراءاته اشتد عليه ضيق روحه ورفضه لضيق أفق وغياب وعي من يحيطون به، فقرر أن يترك بلدته وأن يلتجئ إلى عمان، ولكي يحدث هذا، فلا بد من سبب يقنع به والده، فكان أن اختار دراسة القانون الذي تعني في نظر أهل بلدته، ومنهم والده، الطريق إلى السلطة والمكانة الرفيعة المرموقة، فوافقه على ذلك ووعده بالعون.

جاء إلى عمان وهو في السابعة والعشرين من عمره، بعد أن اجتاز مرحلة المراهقة إلى مرحلة النضج، جاء من غير أوهام بأن طريقه سالك بسهولة. كان يعرف مسبقاً أيَّ خطر يحدق به، وأن عليه الحذر من أقواله وأفعاله حتى يتجنب السجن. جاء مشتعلاً بحب المعرفة. بإرادة صلبة وتصميم لا يعرف اللين.

وفي الجامعة شاءت الصدف أن تجمعه إلى طالب في مثل عمره، مر بتجربة قد تكون مشابهة لتجربته في كثير من الأوجه، إذ إنّه بعد أن أنهى أربع سنوات في كلية الطب تخلى عن دراسته تلك والتحق بكلية الأدب العربي. إنّه مسكون مثله بهاجس المعرفة، غير أنه اختلف معه بميله إلى الأدب أكثر من الفلسفة ثم جذب انتباهه المزج بين ثقافة الفلسفة وثقافة الأدب. وهكذا وجد كل منهما في الآخر قريناً، فتصادقا وتابعا معاً أسلوب حياة ملهماً ومضنياً. وهذا الصديق

هو الذي قاده إلى مقهى شهرزاد. لقد فتن بذلك المقهى وأعجب برواده وما مضى وقت طويل حتى ألف المكان وألفه وصار واحداً من شلة الرواد الدائمين.

كانت حياته في عمان بادئ الأمر صعبة، ليس لأنه يجهلها تماماً فحسب، بل لأن نقوده القليلة اضطرته للسكن في فنادق رخيصة جلبت عليه أفدح الإزعاجات وأشدها سقماً، أضطر أثرها للبحث دون كلل عن مكان مستقل يستقر فيه، إلى أن وجد هذا المسكن الصغير الذي يقع على الشارع مباشرة، والمقتطع من باحة مسكن أكبر.

استأجر مسكنه في الصيف، واضطر لدفع بدلات أجور ثلاثة أشهر مقدماً مما أنقص سيولته المالية واضطره إلى الاكتفاء بسرير وحيد تخلى عنه الشخص الذي كان يشغل المكان قبله. ما تكبد سوى ثمن فرشة جديدة نظيفة وملاءة لذلك السرير، فقد كانت الفرشة التي تركها صاحبها في غاية القذارة.

ثم إنّه تلقى بعد مدة قصيرة عوناً مالياً من أحد إخوانه، فتمكن من شراء خزانة ومنضدة وثلاثة مقاعد من متجر لبيع الأثاث المستعمل، ثم اشترى ما يلزمه من أدوات المطبخ واكتمل بذلك صرح مسكنه، وصار العيش فيه ممكناً بل لذيذاً، إن غرفته الصغيرة هذه والتي تبدو إذا ما هبت العاصفة وكأنها قارب على وشك الغرق، تغدو عشاً بشرياً لطيفاً وآمناً بعد أن يسري الدفء فيها. إن مدفأة واحدة كهذه التي اشتراها مع بداية فصل الشتاء تكفي لبعث دفء محمود.

وجد لزاماً عليه بعد أن استقر هنا أن يوفق بين واجباته المختلفة واهتماماته فوضع نظاماً صارماً لنفسه، لا يحيد عنه، فللدراسة وقت وللقراءة وقت وللجلوس في مقهى شهرزاد وقت وللقيام بأعباء المسكن وقت. لقد ساعده في النجاح بذلك الترتيب المنهجي الصارم تجربته السابقة كمدرس، اعتمد برنامجاً ونظام تدريس دقيقتين مكناه من النجاح في مهمته.

كان نظامه الصارم يبدأ من غرفته، فلا يترك شيئاً من أشيائه نهباً للفوضى، فلكل شيء مكانه، فلا يرضيه أن يرى قطعة ملابس واحدة خارج الخزانة أو صحن طعام تناول ما فيه متروكاً في الغرفة على اتساخه أو كتاباً ناشزاً عن منظومة الكتب، ولا يتقبل زيارة صديق في وقت خلوته، إذ إنَّ مقهى شهرزاد يؤمِّن اللقاءات دائماً، لقد عرف أصدقاؤه عنه هذا التفرد

بالانضباط كما عرفوا عنه ميله الشديد للخلوة بنفسه، فاحترموا نظام حياته، غير أن العزلة التي يفرضها على نفسه تغدو أحياناً ثقيلة على النفس مقبضة وشديدة القسوة، وهي كذلك هذا الصباح، خاصة وأنه يوم عطلته، فأذعن لواقع الحال مكرهاً، إذ ليس ما يستطيع فعله دفعاً لهذه العاصفة الهوجاء.

رفع جذعه بعد أن اضطره البرد للحركة ثم أنزل قدميه ولامس قطعة السجاد التي أمده بها صديقه وأحاط وسطه بالغطاء في خطوة ضرورية لاستجماع طاقته وشحذ عزيمته، غير أنه ظل منشدهاً، مبهم الفكر، فاقد العزم. وقف دون حراك مقروراً، حائراً وكأنه لا يعرف ماذا يريد وما هي خطوته التالية، ثم نظر إلى المدفأة الهامدة الباردة ورفعها رفع الكارة لفعل مجبر عليه، وسار بها إلى الحمام وملأ خزانها بالوقود ثم أشعلها، ووقف يراقب شعلتها حتى اختفى اللون الأحمر تماماً واستقر الأزرق، فحملها وأخذها إلى الغرفة ثم عاد إلى الحمام وأشعل المرجل الكهربائي وقضى حاجته ثم غسل يديه ووجهه بماء شديد البرودة وحمل المنشفة وأسرع بها إلى الغرفة ملتجئاً إلى دفء المدفأة وأخذ مقعداً وجلس، ثم أحاط المدفأة بفخذيه ورفع كفيه فوقها يمتاح منها الدفء ويستأنس بوهجها.

وإذ شاع الدفء في الغرفة وتحرر جسده من قبضة البرد أمكن له أن يفكر بحرية أكثر وأن يخطط ليومه وكيف يستفيد من هذه الخلوة القسرية الفائضة عن الحاجة، رفع جذعه ووجه بصره صوب النافذة فانتبه إلى كل تلك الأصوات التي غفل عنها. غير أنَّه أخذ الأمر بحيدة تامة الآن، فقد رأى في بواكير العاصفة، حدثاً يحدث في الخارج وحسب، وليس من شأنه أن يستلب منه صفاء روحه وهذا السلام الذي يرين على المكان.

وهو وإن كان صفي النفس، إلا أن فكرة مشوشة عن حدث غامض يفاجىء شخصاً في مثل وضعه يعيش في شبه عزلة، أخذت تلح عليه، إنها فكرة تبحث عن قالب وهو لم يكتشف بعد ذلك القالب، كان كلّما راودته هذه الفكرة وأشغل نفسه بها طرحها جانباً، فالفكرة بحد ذاتها مشوبة بالغموض والتشوش، ساقها إليه البقال وهو الشخص الوحيد الذي يتعامل معه في الشارع، وهو شخص لطيف المعشر يبادئه السلام دائماً ويسأله عن الاحوال ويرمي إليه بين الحين والحين تعليقاً عن سكان الشارع، حتى تكونت لديه صورة غامضة عنه. ففي هذا الشارع خليط عجيب من الناس من أعراق مختلفة وهو يزخر بالتناقضات، ففيه اللص والمومس

وتاجر المخدرات والشرطي والموظف البسيط والمرأة المحصنة ضد الشر والتي تمنع أولادها من الاختلاط بالآخرين خوفاً عليهم من سوءات الشارع.

فكر إذاً أن يستغل الوقت المتاح له هذا النهار في كتابة قصة عن شخص مسالم متبتِّل تداهمه أحداث لا علاقة له بها. إن الشارع مفعم بالقسوة والرذيلة والشر وتساءل: ماذا سيكون شأن ذلك المتبتِّل لو أن شيئاً مما يزخر به الشارع، داهمه على حين غفلة، ماذا سيحل به وكيف سيكون سلوكه؟

شعربقبض وتهيأ له على نحو غامض أن نهاره سيكون عرضة لاضطراب ما، سوف يكدر صفوه ويبعث إليه بازعاجات لا يريدها وظل مشدوهاً بعض الوقت تحت وطأة الفكرة التي سكنته، وهو الشخص الحصيف الذي سلك حتى الآن سلوكاً يجنبه أيَّ أذى محتمل. ولكنه فكر أيضاً أن العيب يكمن في هذا السلوك أيضاً، فهو لن يميز المومس من غيرها لو التقاها ولن يتعرف على اللص لو مر به، وهو لم يخالط عربيداً حتى يعرف كيف يسلك معه إذا داهمه في لحظة غضبه. إنَّ كل القراءات لا تنفعه في هذه الحال، ورغم ذلك فكر باللجوء إلى القراءة ليصرف هذه الفكرة الموحشة عن ذهنه، فليس شيءٌ آخر ينفع لهذه المهمة. فلو أراد مثلاً أن ينظر من النافذة فلن يشاهد إلا صفاً من المنازل الدميمة المغلقة. إن قصائد من "ناظم حكمت" أو "وايت ويتمان" لتنفعه في هذه الحال، فهي بحاجة إلى ما يعيد إليه توازنه وصفاء نفسه، إنَّ انتقاء موضوع القراءة المناسبة في اللحظة المناسبة ما هو إلا مهارة تنفعه في لحظات كدره وهو يتقن هذه المهارة وهذا ما يبقيه في أسوأ الظروف متماسكاً، فليعدّ إذاً كوب شاي ثم يقرأ قليلاً.

ذهب إلى المطبخ وجهز عدة الشاي كاملة، إبريق الماء وكوباً وكيس عبوات الشاي وسكراً وملعقة، وضعها جميعاً على صينية مستديرة صقيلة وأخذها إلى الغرفة. وضع الصينية على الأرض وأخذ عنها إبريق الماء ووضعه على سطح المدفأة ثم أتجه إلى النافذة في انتظار غليان الماء، حيث بإمكانه مراقبة الشارع المقفر ورؤية فروع الأشجار وأسلاك الهاتف وهي تهتز وأن يرفع رأسه إلى السماء فيرى الغيوم داكنة زاحفة.

استدار بعدئذ وواجه الغرفة التي صارت بكامل محتوياتها مكشوفه له. نظر إلى السرير الذي يعاني من فوضى النوم والذي يتوجب عليه إعادة توضيبه وانتقل ببصره إلى المنضدة الخشبية

وهي القطعة الوحيدة الناشزة لسعة حجمها. إنها مما يستعمل في مكاتب الشركات وهي كثيرة المنافع، إذ أنها تتسع لكتب الدراسة التي يوضبها في نسق مريح كما تتسع لكتب المطالعة الأخرى، كما تتسع للمذياع وعلبة التبغ والمنفضة، ومع ذلك يتبقى فراغ يمكن الاستعانة به في وضع صينية الطعام وتناول وجباته أو للقراءة والكتابة أو كمتكأ لمرفقه حين يجنح به الخيال. إنها القطعة الأثيرة لديه وهي حجر الأساس وكل ما يحيط بها من إضافات ثانوية تحيط بها وتبرز أهميتها. ثم انتقل إلى المدفأة التي تشيع الدفء في الغرفة وتؤنسه شعلتها وهي تفيده في أغراض متعددة مثل الحصول على الماء ساخناً في كل الأوقات، فيشرب الشاي كلما عنّ له شربه أو يسخن عليها الخبز فيلذ أكله. والتفت إلى مقاعده الثلاثة ذات المساند والتي توفر له راحة الجلوس. ثم التفت إلى خزانته التي تتوسط بين طرف السرير والباب وتخفي عن عينيه ملابسه، سواء النظيفة أم التي في طريقها للغسيل. فأي تآلف مريح يقوم بين محتويات غرفته بعضها ببعض وبينها وبينه مجتمعة.

أخذت تمطر الآن. سمع وقع المطر فانجذب أليه واستدار مأخوذاً شغوفاً بإيقاعه الجميل. إنه وإن كان قد عانى من تواصل تساقط الأمطار في الأيام الثلاثة المنصرمة، فلأنه كان مضطراً للتنقل بين أكثر من مكان وأخذ أكثر من حافلة في ذهابه إلى الجامعة وعودته منها. أما الان وهو ينعم بدفء غرفته فليس ما يمنعه من الإصغاء إلى وقع المطر والشغف بهذا الإيقاع. فما ابتعد بعد عن ذلك الريفي الذي يجد في المطر انبعاثاً لحياة أكثر خصوبة. يتساقط المطر الآن فيستذكر قصيدة "جاك بريفير" "بربارا" "تذكري باربرا كانت تمطر طوال الوقت على بريست ذلك اليوم". ويستعيد أيضاً قصيدة "السياب"، "عيناك غابتا نخيل ساعة السحر". المطر جلب الحزن له "مطر مطر أتعرفين أي حزن يبعث المطر"؟ ويبعث الحزن أيضاً في نفس الشاعر الفرنسي "فرلين" حين تتساقط الأحزان بقلبه كما يتساقط المطر فوق المدينة. كما يستعيد طقوس ابتهاج الأطفال بالمطر فيردد معهم "شتي يا دنيا وزيدي بيتنا حديد"، ويستعيد أيضاً تلك الفتاة التي بدت له على كثير من الرقة والحياء، والتي فاجأها المطر الذي لم تعدّ له عدتها. كانت تقف إلى جانبه في مكان غير آهل تنتظر قدوم الحافلة. بلّلهما المطر وما أتت حافلة، فاقترح عليها أن ينتقلا إلى مكان آخر يتيسر فيه الحصول على حافلة. سارت إلى جانبه وكأنهما صديقان قديمان، لا يتقدم أحدهما خطوة على الآخر ولا يسأل الآخر عن شيء. كانت المشكلة في المكان الجديد الذي وصلاه، إن ازدحام الناس كان شديداً وكان التسابق على احتلال مقعد في الحافلة التي تصل على أشده وما بذل أيٌّ منهما جهداً للحصول على مقعد.

ولأن وقته نفد اضطر للاشارة إلى سائق سيارة أجرة وغفل عن دعوتها، كان يعتقد أنها ستتبعه من تلقاء نفسها وحين استقل السيارة التفت إليها ورآها تتبعه بعينيها الصافيتين، فما أمهله السائق ليدعوها، بل انطلق بسيارته وما طلب منه أن يعود ويأخذها.

لقد ترك رفيقته المجهولة اللطيفة العذبة التي سارت إلى جانبه تحت مطر غزير لا يقيها منه سوى كنزة صوف، تركها تبتل بالمطر ولم يدعها لإكمال مشوارها معه. إنه لا يغفر لنفسه تلك الغلطة ولا يملك إلا أن يستحضرها في ذاكرته كلّما تساقط المطر.

ارتفعت حرارة الماء في الإبريق حتى الغليان وهو مشغول بمراقبة المطر، لاه عن إبريق الماء فوق المدفأة. أخذ الماء في شدة غليانه يبعث إليه وشيشاً في نداء خافت متصل، ثم ضاق ذرعاً وراح بخاره يدفع غطاء الإبريق دفعاً متصلاً ويصدر صفيراً مستغيثاً به ملحاً في دعوته، حتى بلغ الصفير مسامعه فانتبه. خطا نحو المدفأة وأخذ الإبريق عن سطح المدفأة ثم سكب الماء في كوب ووضع عبوة شاي وأمسك بخيطها ثم أضاف سكراً وحرك المزيج، ففاح عطر الشاي. فكر وهو يتذوق طعم الشاي اللذيذ ويلاحظ البخار المتصاعد منه، أن الأصوات لا تصدر عن الأشياء عبثاً. إنها تبوح بمكنوناتها، غير أن ذهن الإنسان ليعجز عن فهم تلك الأصوات وإدراك رموزها. إن الأشياء تملك أحاسيس خاصة بها وتعبر عن نفسها بطريقتها الخاصة وهو لم يلم بتلك الأحاسيس بعد.

يمكن القول إنَّ جلال الهزيعي بدأ صباحه باستعداد كاف منذ ذلك الحين وأنه أمضى فترة الصباح كلها منهمكاً في دراسته وقراءاته والقيام بواجباته المنزلية، وأنه أعد طعام غدائه وتناوله بشهية. ولن يفيدنا موضوع الحكاية التي نحن بصددها أن نخوض في تفاصيل أكثر عن صباحه، تفاصيل لا ضرورة لها، وليست بذات قيمة خاصة، ولأن سردها لا يعدو أن يكون ثرثرة لا طائل منها، سوى الرغبة في الحشو غير المبرر والإضافة التي تثير الملل ليس أكثر.

وجملة القول أنَّه نفذ في بضع ساعات برنامجه اليومي وإن كان ليس على وجه الدقة تماماً، وأنه جلس بعد تناول طعام الغداء ودخن لفافته وكان هانئاً لحظته راضياً عما حقق، وصار بوسعه أن يستلقي على سريره وينعم بغفوة الظهيرة التي لها لذتها الخاصة.

حتى الرابعة مساءً ما كانت العاصفة بلغت ذروتها بعد ولا جلبت شقاء لأحد أو أقلقت مضاجع جلال الهزيعي الذي أمضى نهاراً سائغاً في عمومه رغم اضطرابات الطقس واندفاعات الهواء.

رقد على سريره بعد تناول وجبة طعام الغداء ونام ساعة من الزمن ثم أفاق هانئاً بدفء غرفته وسلاسة وقته، وظل على رقدته يصغي إلى كل تلك الأصوات التي بدت له عزفاً مثيراً لفرقة موسيقية هائلة. كانت مدهشة وحيوية بحق تلك الأصوات لدرجة أنه غفل عن مرور الوقت إلى أن خبا ضوء النهار واعتمت الغرفة، وما بقي ما ينير سوى بصيص شعلة المدفأة. نهض حينئذ وأشعل الضوء وجلس قرب المدفأة واتجه بكامل حواسه إلى أصوات الفرقة الموسيقية في احتفالها المهيب، وتراءت له في عتمة الخارج خيالات فروع الأشجار وكأنها تؤدي رقصتها المحمومة على أنغام تلك الفرقة.

وفيما هو كذلك انبثقت في ذهنه خواطر تتصل بالفكرة الخفية المشوشة التي انطرحت عليه في الصباح عن مداهمة مفاجئة لذلك المعتزل المتبتل، تقحمه فيما لم يخطر بباله. وإذ راقت له خواطره وبدت واعدة بالإثارة نهض إلى المنضدة وشرع في الكتابة بشكل مفتوح. مضى في كتابته دون روية وباستجابة خلاقة من قريحته، وكاد أن يدخل بنفسه في تلك المواجهة العصيةالعصيبة لولا أن سمع طرقاً على الباب، فأجفل ولعن الطارق. تتابع الطرق شديداً ملحاً فما وجد سبيلاً للخلاص منه سوى بالنهوض وفتح الباب. فتح الباب ولدهشته البالغة رأى فتاة مسربلة بمعطف أسود سابغ مرفوع الياقة، ترفع مظلة وتجاهد كي لا تنطلق منها مع الريح. كانت بهية على نحو غير مألوف وذات أنفة واضحة. رفعت رأسها وحدقت به فيما كان يتأملها وسألته بجفاء:

-أأنت صديق خالد؟

أحنقته لهجتها المتعالية فرد عليها بجفاء مماثل:

- آسف. لا اعرف أحداً بهذا الأسم.

باغتته بالقول:

- أنت تقيم في مسكنه ومع ذلك تنكر معرفتك به. كف عن التخابث أنا في عجلة من أمري. هل هو في الداخل؟ قل له أن شقيقته تسأل عنه.

رد عليها بغضب شديد:

- أمرك غريب. يبدو أنك فقدت اتزانك وخرجت عن حدود اللياقة والأدب.

انصرفي عني وابحثي عن خالدك في مكان آخر. فهذا منزلي أنا وليس منزل خالد.

فقدت رباطة جأشها آنذاك ورددت بلهجة كسيرة:

- ارحمني أرجوك. أمي تموت وأنا بحاجة ماسة إليه.

ذهل وهو يجد منها كل هذا العناد ويلاحظ مع ذلك تحولاً في لهجتها فقال:

- ألم تأخذي في حسابك أنك أخطأت المكان؟

قالت:

- لا تستغفلني أرجوك. إنني أعرف تماماً أين أنا.

رد عليها بحسم"

-أنت بالمطلق مخطئة. هذا شارع الاسكافية. هل يقطن أخوك هذا الحي؟

أجابته كسيفة الوجه:

-أرجوك كف عن التظاهر. إنني بحاجة ماسة إليه هل هو في الداخل؟

شعر بقهر لا مثيل له لعجزه عن إقناعها بضلالها، وكان الهواء البارد يصفعه بشدة والبرد ينخر عظامه، فقال:

- ولكنني لا أشارك أحداً السكن ولا أعرف هذا الذي تسألين عنه. ادخلي وتأكدي بنفسك. أنا لا أخفي عنك شيئاً.

أفسح لها الطريق فدخلت لدهشته ووقفت وسط الغرفة ناكسة الرأس ذليلة. قال:

- أتأكدت من صدق كلامي الآن؟

أجابت دون أن ترفع رأسها:

- يبدو أن اللعين رحل من هنا. قد تظن بي الظنون وأنت معذور في ذلك.

نظر إليها بكثير من الحنو الآن وتساءل باستغراب إن كان الشخص الذي أشغل المكان قبله هو شقيقها، غير أن حالة المكان وقذارته لا تسمح بمثل هذا الافتراض. قال:

- ولكن الشخص الذي أشغل المكان قبلي كان في منتهى البؤس إذ لم يترك سوى سريرٍ وفرشة في غاية القذارة.

قالت :

- للأسف هو شقيقي. لقد ترك المنزل منذ زمن بعيد وانصرف.

ثم دمعت عيناها وقالت:

- ولكنه شقيقي في كل الأحوال وأمي تموت الآن، وكانت تسأل عنه طول الوقت.

ثم استدارت لتخرج خائبة. قال:

- ألا تستريحين قليلاً. دعيني أقدم لك كوب شاي.

قال ذلك من قبيل إظهار العطف فقط وما حسب أنها ستستجيب.

استدارت ونظرت إليه ثم خطت نحو مقعد وجلست. سألت بعد أن جلست:

منذ متى سكنت هنا؟

أجاب :

- منذ سبعة أشهر. أنا طالب جامعي.

قالت :

- هذا واضح.

قال:

- الطقس شديد البرودة هل يمكن أن أغلق الباب.

ما أجابته. بدت وكأن ذهنها يعمل على فكرة ما.

- دعيني أقدم لك كوب شاي.

أجابت وهي تقطب جبينها وتفكر:

- شكراً.

ذهب إلى المطبخ وأحضر لها كوباً وملعقة. سكب ماء في الكوب ووضع عبوة شاي ثم سألها:

- كيف تحبين السكر مع الشاي؟

قالت :

- بدون.

أخذت منه الكوب واحتضنته بيديها ثم أطرقت وبدت على وشك البكاء. قال:

- أرجوك. لا بد من وسيلة لمعرفة مكانه.

رفعت رأسها آنذاك ونظرت إليه متسائلة ثم أطرقت من جديد وراحت تحسو الشاي ببطء غائمة العينين متفكرة وكأنما لديها كلام.

أمكن له أن يديم النظر إليها ويتملى ذلك الوجه الجميل المشرب بحمرة خمرية والجبين العريض والثغر مكتز الشفتين والعنق الطويل الذي يتدلى عليه قرطان ذهبيان ينتهيان بماستين.

قالت:

- كنا نسكن هنا وغرفتك هذه كانت المرآب. شقيقي هو الذي حولها إلى مسكن.

لا غرابة إذن في هذه المصادفة. نظر إلى الأمر بكثير من الوضوح واليقين وفكر بأن ثمة

ما هو مشترك بينهما، خيط دقيق يوصل بينهما. صار بوسعه تقبل وجودها لا على أنه طارئ وقسري بل مبرر وطبيعي ويفرض عليه التبسط معها في الحديث. وإذ أخذ الأمر على هذا الوجه وتحرر فكره من قوة المفاجأة، فكر أن المعضلة التي تواجهها يسيرة وأن العون متوفر فيما حوله وما عليه إلا أن يشير عليها بما تفعل، غير أنه ما استعجل التطرق للموضوع وتركها تحسو شايها وتهدأ من انفعالها.

كانت أيضاً تعرف خطوتها التالية، فما جاءت إلا ولديها تصور كامل عما يجب أن تفعله لتعثر على أخيها، ولذلك ما أن أبدى فيما بعد رغبته في المساعدة حتى حثته على ذلك. إنها تبدو مصممة تصميماً لا ثابط له على العثور على أخيها وأخذه ولو بالقوة للمنزل، هناك حيث الأم في حالة النزاع الآخير، وكان لا بد لها أن تمهد لما عزمت عليه تمهيداً لا يترك مجالاً لأي رفض. رفعت رأسها وبدت تعاني من خجل التواصل في لحظات اللقاء الأولى. قالت:

– أتعرف أن صاحب الملك تاجر مخدرات؟

وجم لسماع ذلك ثم سأل:

– تقصدين أبا هويمل؟

أجابت:

– هو بعينه.

قال :

– في الحقيقة أنا لا أعرف عنه شيئاً فلا أقابله إلا للحظات وعند دفع بدل الإيجار.

أنا لا أعرف أحداً في هذا الشارع ولا في عمان كلها، باستثناء قلة من الأصدقاء، حتى أنهم لا يأتون إلى منزلي بل أجتمع إليهم في مقهى شهرزاد.

سألت:

– أحقاً تجلس هناك. هل أنت من رواده؟

أجاب مع بسمة تشي بفخاره وزهوه:

– نعم.

قالت:

– ولكنه مقهى يجتمع به أناس خطرون.

ظل على ابتسامته وسأل:

–ما وجه الخطورة فيهم؟

قالت:

- أنا لا أعرف. أسمع من الناس. عرفت شخصاً كان يعمل معي وقد اعتقل وسجن عشر سنوات لأنه شيوعي مع أنه شخص مسالم عفيف الأخلاق وديع يحبه الجميع.

أخذت حسوة شاي وقالت:

- لا أعرف كيف يسجن واحد مثله عشر سنوات ويترك واحد مثل أبي هويمل طليقاً.

رفعت رأسها ونظرت إليه. كانت سمرته الفاتحة وبنيته القوية وسواد عينيه ثم بسمته الطيبة تثيران فيها إحساساً بأنها التقت بالشخص المناسب الذي لا يأتيها من جانبه أذى. قالت:

- أدخلت باحة المنزل؟

أجاب:

- إن المنزل فاتن بحجره الاحمر وأشجار السرو واللزاب، أستغرب كيف اتصلت به هذه البنايات الشوهاء.

قالت :

- كان هذا المنزل لنا. بناه والدي. كانت الأرض خالية تماماً حين بنى والدي المنزل. ما كان هنا شارع ولا بنايات ولا بشر ملعونون:

- أهذا ما دعاكم للرحيل من هنا؟

أطرقت وأجابت:

- تلك قصة أخرى.

صمتت قليلاً ثم تابعت:

- اعتقد والدي أنه حين اختار هذه البقعة عند رأس الجبل والتي تتصل بالشارع الأعلى عن طريق ممر ضيق، أنّه وفر لنا مكاناً آمناً وساحة للعب. وقد أنشأ هذا المسكن الجميل ورصف الممر وجعله درجاً، غير أن زحف البيوت من أسفل الجبل أخذ بالتزايد حتى اتصل بمسكننا. أبو هويمل هو الذي اشترى معظم الأرض وقسمها قطعاً صغيرة، فسارع أشخاص محدودو الدخل إلى شرائها وهذا ما اضطر والدي للانتقال من هنا. تصور أننا سكنا بادئ الأمر في أسفل الجبل في ملك أبي هويمل ثم لحق بنا فيما بعد واستولى على هذا المنزل.

سألته على حين غرة وبانفصال تام عن سياق الكلام:

-هل تحب العيش في الأماكن الخطرة؟

أجابها وهو يستغرب هذا السؤال:

- لا بالتأكيد.

قالت :

- ولكنك تقيم في مكان خطر وتقضي أوقاتك في مكان خطر؟

قال لها:

- ما فهمت قصدك.

تابعت:

- أنت تسكن في ملك تاجر مخدرات ولا بد أنَّ ذلك سيجلب لك خطراً ما وتجلس في مقهى يجلب لك خطراً أيضاً.

ابتسم مجرد ابتسامة، فقد ظنها تمرر إليه مجاملة مجرد مجاملة. عقب فقال:

- لا أرى المسألة على هذا النحو أبداً. فأنا أجلس في مقهى شهرزاد لأن المثقفين يجلسون هناك. وإذا كان بينهم من هو شيوعي أو ينتمي لحزب يساري آخر فذلك لا يعني أن الخطر يداهمني ما دمت أنا نفسي ليس حزبياً. أما عن السكن في جوار أبي هويمل فلن يضيرني ما دمتُ لا أتعامل معه. لي هنا - وأشار إلى كتبه - ما يغنيني عن كل الضوضاء الخفية التي تحدث في هذا الشارع. أعرف القليل عن هذا الخليط العجيب وما ينتج عنه، حدثني البقال أبو فؤاد ولكنني غير معني، فلي حياتي ولهم حيواتهم.

أكان يبرئ نفسه من تهمة ما، أكان يظهر تواضعاً يتفق مع طبيعته أم أنه أراد أن يقدم نفسه لهذه الغريبة على هذا النحو المختصر. هذا ما راح يفكر به بينما تركها تحدق به تارة وبأصابع يديها تارة أخرى. حين نظر إليها بدت وكأنها وصلت نهاية المطاف في هذه الزيارة التي ما كانت زيارة في حقيقتها.

نهضت وقالت:

- شكراً على الشاي.

وجد نفسه وكأنما كلُّ تلك البهجة التي جاءت معها، وكلُّ تلك النمنمات الجميلة التي بعثتها فيه سترحل معها وستخلف له فراغاً كبيراً، وقف وقال:

- ليتني أستطيع المساعدة بشيء.

هتفت:

- بل تستطيع، تستطيع دون شك.

أكانت تفكر بمثل ما فكر، أخطر ببالها ما خطر بباله؟ سألها:

- بكل سرور. ماذا أفعل؟

قالت:

- خدمة بسيطة لا تكلفك شيئاً. تذهب إلى ذلك اللعين وتسأله إن كان يعرف إلى أين انتقل خالد. إنَّه يعرف دون شك فهو الذي أفسده وهو سيد مصيره.

أستغرب من نفسه شعوره بالقلق من تلك المهمة مع أن هذا ما فكر به، غير أنه فكر أن يوجهها هي لأن تفعل ذلك لا أن تلقي المهمة اليه. مضت في الضغط عليه.

- خدمة بسيطة لا تكلفك شيئاً. سأظل ممتنة لك لو فعلت، طوال حياتي.

فكر أن لا خيار له، فهو الذي أعلن استعداده لخدمتها وليس من المستحسن أن تذهب إليه وهي تعرف عنه ما تعرف. قال:

- سأفعل.

مرة أخرى فاجأته بسؤال فيما كان يتجه إلى الباب. سؤال منفصل عن سياق الحديث الذي سبقه:

- ما الذي يحرِّك دوافع الناس في اعتقادك؟ الخير أم الشر؟

أجاب:

- لا أعرف ولكن ما يحرِّك دوافعي دائماً هو الخير. لماذا تسألين؟

قالت:

- لا لشيء.

سألها وهو يتجه نحو الباب:

- وأنت.

قالت:

- الشر. الشر الذي يولد من الحقد.

قال:

- للكلام صلة. سنتحدث عنه حين أعود.

فقد وجد في الموضوع ما يستحق الاهتمام وما يفتح البال للخوض في حديث شيق حول طبائع وسلوكيات البشر ودوافعهم. إنه موضوع خلافي، يجب أن يدلي فيه برأيه. وما كانت المسافة

القصيرة التي يحتاجها للوصول إلى باب أبي هويمل بكافية على أية حال للتفكير في الموضوع أو في السبب الذي دعاها لأن تتطرق اليه. إنَّ مسكنه الصغير مقتطع من باحة مسكن أبي هويمل ويكفي منه أن يسير بضع خطوات على رصيف الشارع حتى يدلف إلى باحته.

كان الهواء شديد البرودة وقد تساقط مطر في تلك اللحظة فهرول حتى بلغ الباب. قرع الجرس فجاءه أبو هويمل بنفسه وكان يرتدي فروة صوفية لا ينفذ البرد من خلالها إلى جسده. سأله حانقاً:

– خير إن شاء اللّه ؟ ماذا أتى بك في هذا الطقس.

أجاب:

– الأمر لا يتعلق بي. معذرة عن هذا الازعاج. جاءت فتاة تبدو في وضع سيء تسأل عن شقيقها وتقول إنّه كان يسكن قبلي. أعتقد أن اسمه خالد على ما ذكرت. لقد رجتني أن أسألك إن كنت تعرف عنه شيئاً وأين يمكن العثور عليه.

كان أبو هويمل يتفحصه ليعرف ما وراءه وقد بدت الريبة واضحة على محياه، فسأله:

– لماذا تقوم أنت بهذه المهمة؟ لماذا تزج نفسك فيما لا يعنيك.

صدم بهذا السؤال الذي ما توقع أن يوجه إليه ولكنه بادر إلى القول:

– لا لشيء. لكنها طرقت بابي تسأل عن شقيقها ثم استعانت بي ورجتني أن أسألك. هل أخطأت في شيء؟

رد عليه:

– يا سلام. لقد أخطأت بالطبع. ما علاقتي أنا بالأمر لتسألني وكيف أعرف أين ذهب؟ لقد ترك المسكن ورحل من هنا. أنا لا اتدخل في شؤون المستأجرين. هل أسألك أنت أين تذهب؟

رد بتهذيب وقد رأى في إجابة الرجل ما يحمله على الاعتقاد بصحتها.

– معك حق. في الحقيقة أنت لا تتدخل في شؤوني ولكنها تقول إنَّك لا بد أن تعرف عنه شيئاً. الفتاة مسكينة.

اصطنع الهدوء وسأله:

– وما قالت لك أيضا!؟

أجاب:

–لا شيء. قالت إن أُمها تموت وهي بحاجة ماسّة إلى أخيها.

قال:

- هم.

وبعد تفكر قال:

- انها تعرف شقيقها جيداً وتعرف أن يكون.

تجرأ وسأل:

- أين مثلاً؟

غضب أبو هويمل وعقّب:

- لماذا تسأل أنت الآن، ماذا يهمك؟

قال:

- أنه الفضول وحسب، فالفتاة على ما يبدو تنتمي إلى أسرة موسرة. ضحك ضحكة مجلجلة وقال:

-كانت موسرة.

وفي غمرة ضحكه قال:

- لتبحث عنه في قاع المدينة. في مقاهي الحشيش والقمار. ستجده هناك.

قال له:

- شكرا أمسيت على خير.

واستدار ليعود.

غير أنَّ الرجل استوقفه قائلا:

- هذه الزيارة ستكلفك الكثير. أنا لا أحب الفضوليين من أمثالك. ابحث لك عن مسكن آخر ولا تضيع وقتا لن أمهلك طويلاً.

استدار حانقاً ورأى في ملامح الرجل كل الصفات التي يمقتها. بدا له بغيضاً وشريراً وماكرا، وما دام أنَّه سيترك مسكنه، فليقل له ما يشعر به صراحة ويرد الصاع إليه صاعين:

قال:

- حاضر يا تاجر المخدرات. أنا لا يشرفني أن أبقى في مسكنك، سأبحث عن مسكن آخر وبأسرع مما تظن.

صرخ به أبو هويمل محتداً:

- اغرب عن وجهي. انصرف. لا أريد رؤيتك بعد اليوم ثم صفق الباب في وجهه وتركه

ذاهلا مستفزا محبطاً معاً، فلقد جلب لنفسه كارثة محققة كان في غنى عنها، سار تحت مطر كانون العنيف بخطى وئيدة وهمّ شديد.

ما ألقى التحية حين دخل. لقد ضاق بوجودها الزائد عما يحتاجه وجودها البغيض المنفر، فهو لا يحب أن يراه أحد محبطاً إلى هذا الحد، لا يحب من أحد أن يراقبه حتى لو كان بدافع الحنو المحض.

كانت عيناها حين حدقت به لتعرف ماذا دهاه كسهمين قد غرسا في وجهه. اتكأ على المنضدة بمرفقيه وأخفى رأسه. دون أن يعطي وجودها أية أهمية ودون أن يكترث لما يفرضه عليه وجودها في غرفته من لياقة. كان ما يرغب فيه أن يترك وحده الآن؛ فيملك أن ينفث غضبه، أن يصرخ ويضرب الجدار بقبضة يده. كانت تطوقه بنظراتها نافذة الصبر لا تجرؤ على سؤاله ماذا دهاه. ما عاد يحتمل ذلك الحصار الذي حوّل غضبه في تلك اللحظات إليها، فصرخ في وجهها:

– لقد كلفتني تلك الخدمة البسيطة مسكني. أهنئك بما حققت ما دامَ ما يحركك هو الشر وما يوجه خطاك هو الحقد. عودي إلى منزلك ونامي قريرة العين، فقد حقق الشر لك أهدافك.

شحب وجهها وأحست لكلماته وقع السياط، ومع ذلك ما جرؤت على الرد عليه والدفاع عن نفسها. كانت تعرف في قرارة نفسها أنها كلفته بمهمة عسيرة، وأن العبث بعش الدبابير لا يأتي إلا بأسوأ النتائج. لقد جلبت له كارثة محققة، ولكنها كانت من الصنف الذي لا يأخذ إلاّ وأعطى. كانت لكثرة ما صادفت من محن وما جابهت من شرور تكره نفسها وما يحيط بها، ولكنها كانت في الوقت نفسه رؤوفة في لحظات معينة، سابقة إلى النجدة وتقديم العون. سألت:

– هل أعطاك مهلة؟

رد بمرارة:

– يريدني أن أرحل بأسرع وقت وإلا أنالني عقابه.

قالت:

– لا بد أنك أثرت غضبه؟

رد بانفعال شديد:

- هل كانت المهمة باعتقادك ودية؟ كانت بحد ذاتها كارثة أثارت استياءه وغضبه. أما كان لديك سبيل إلى معرفة مكان أخيك غير هذا. أكان عليك أن تعرضي حياتي للخطر كي تعثري على أخيك. تباً له ذلك الفاسد الذي أنهض أنا بمهمة البحث عنه. لقد وعدني الرجل بالويل والثبور. هل يسرك ذلك؟

قالت:

- وسيفعل.

نهض واقفاً مستفزاً وقال بمرارة:

- شكرا على معلوماتك المفيدة. لقد بعثت الراحة في نفسي الآن. ثم ضرب المنضدة بقبضة يده، وقال:

- ماكان يجب عليّ أن أقوم بهذه المهمة. إنها قضيتك أنت. كان بإمكانك أن تذهبي بنفسك. لماذا ألقيت علي بهذا العبء، لماذا اخترتني بالذات؟

قالت بعد صمت تجرعت خلاله ألم هجومه، قالت كلاماً ما أعاره انتباهاً في حينه، ولكنه عاد إليه في وقت لاحق وفكر به مرات ومرات:

- أنا ما اخترتك. لقد اختارك قدرك، منذ أن وطئت قدمك هذا المكان.

صمتت ثم أردفت:

- أنت الذي اقترح تقديم خدمة لي، وأنا قبلتها شاكرة وما من خدمة سواها.

نظر إليها نظرة قاسية نفذت إلى أعماقها وقال:

- هكذا إذاً. كأنني ما نفدت إلا ما قدر لي. وأنت ما كان لك دور. ما كان لتوسلاتك دور.

فعل كلامه الساخر اللاذع ونظرته القاسية فيها فعلهما، فبكت وقالت:

- بل كان لي دور. كان لتوسلاتي دور. أنا التي حملتك على أداء هذه المهمة وإنني أتحمل المسؤولية. ولكن.... ولكن... هذا كان سيحدث لك في أي وقت آخر ولأي سبب. ربما... ربما كان أفضل... أفضل لك... أنه حدث في حضوري وبسببي.

رق قلبه وهو يراها على هذا الحال من الانفعال فخاطبها بلهجة خلت من كل قسوة:

- ما الفرق في ذلك؟

أجابت وهي لا تزال تجهش في البكاء:

- الفرق.. الفرق.. هو أنني لن أتخلى عنك ولن أتركك بلا مأوى.

ارتفعت نبرة صوته من جديد:

- كيف بربك؟

- تأتي معي. تحل ضيفاً عندي ريثما تجد مسكناً آخر، وأنا التي سأبحث لك عن مسكن أفضل من هذا، حيث لن يكون أي سوء بانتظارك.

حدق فيها مندهشاً وتساءل إن كانت تقصد ما تقول، أم أنها تطلق وعوداً زائفة، أملتها اللحظة الراهنة، فما وجد سبيلاً إلى تأكيد ظنونه، فلقد أثبتت حتى الآن أنها لا تلقي الكلام جزافاً ولا تقدم على خطوة بغير ثقة من سلامتها، ولكن نفسه تأبت هذ العرض الذي يتنافى مع مفاهيم وأعراف استقرت في نفسه، ولأنه يملك من العناد ما يجعله يرفض أن ينصاع إلى تهديد أبي هويمل، فهو يقيم في مسكنه وفقاً لأحكام القانون ولن يرضخ لتهديده، قال:

- أنت تهزلين. أنت ترشين الملح على الجرح.

رفعت رأسها ومسحت دموعها بمنديل أخرجته من حقيبتها وقالت:

- أنا لا أهزل. أنا أعرف أن دعوتي لك ستبدو غريبة، أنت الطيب الساذج الذي لا يبصر ما يدور حوله. إنني أعرف أنني أقدم لك عرضاً لن تتفهم جديته.

قاطعها وقال:

- أنا لا أفهم كيف تجرؤ فتاة على استضافة شاب غريب. أنا لا أتهمك بشيء ولكن دعوتك تبدو لي غريبة فلا يجرؤ شاب على دعوة فتاة للإقامة عنده إلا لغرض في نفسه وبشروط بالغة الخصوصية، فإن يكون عازباً مثلاً. فكيف تجرئين على دعوتي؟

قالت:

- لا تنس أنك في عمان. مدينة كل الشرور، وكل الاحتمالات مفتوحة. أنت لا تعرف عمان إذاً، تتحدث كما لو كنت ما زلت في بلدتك، حيث الأسر متماسكة ومستقرة والحياة على رتابتها. إنك في عمان الشقية التي لا يتفق فيها اثنان على مفهوم محدد، والتي يعيش فيها الناس على اختلاف منابتهم وفق ما تمليه عليهم أوضاع حياة غرائبية. إن كل ما ترفض الاعتقاد بحصوله يحصل في عمان.

عادت إلى البكاء ثانية. وقالت:

- هبني إحدى الساقطات وتقدم لك مكاناً تقيم فيه. الله وحده يعلم ما يدور بخلدك

الآن؟

قال:

– معاذ الله أن أفكر بك بسوء. أنت أرفع وأجل شأناً. وأعترف أنني أجهل كيف يفكر الناس في عمان، ولكن لا أحب الهزيمة. لن أخضع لتهديدات أبي هويمل.

قالت:

– في معركتك مع أبي هويمل ستكون أنت الخاسر، لأنك حينئذ ستقاتل أشباحا. لن يعتدي عليك بنفسه فهو أذكى من ذلك. لن تعرف من الذي سيهاجمك وفي أي لحظة. ثق بي أنت الذي ما عرفتني من قبل ومع ذلك اقتحمت خلوتك وعرضت أمنك للخطر. أقول لك بصراحة. أنا ابنة الفواجع وخلالها تمرست وتصلب عودي. لقدت تهاوت أسرتي مالياً وأخلاقياً وتصدعت كما تهاوت أسر أخرى وتصدعت. أبي نال حظاً كبيراً من الثروة ثم أفسدته الثروة وانهار مالياً وأخلاقياً ثم مات. وأخي أفسده مال أبي فانحرف، ولي أم ابتلعت السكين وصمتت وها هي تموت، وعمة لا تنطق بحرف واحد ولكنك ترى في صفحة وجهها معالم كل ذلك الدمار. وأنا الآن ربة المنزل. أنا التي أقرر مصيره وأنا أملك أن أدعوك، فتقبَّلْ دعوتي واخرجْ من عرينك وتعرف على عمّان.

أصغى إليها بكثير من الانتباه وبعقل الرجل الذي دفعته الصدفة لأن يبصر ما كان يعمى عنه وبعزيمة من يبحث عن توسيع مداركه فلا يصم أذنيه. إنه إزاء شخصية فذة لا يصادف مثلها إلا في الكتب. لقد صادرت بجلسة واحدة قناعته بأن الشخص يمكن أن يأمن مشاكل الناس إذا ابتعد عنهم وإنه يكفي لكي تستقيم حياته وينضج أن يصادق فئة معينة وينهل من الثقافة قدر ما يستطيع. ولكن أية ثقافة هذه التي تنفصل عن حياة الناس مثل سحب الفضاء. لقد فقد في حضرتها حتى القدرة على الكلام المرسل الذي لا يصلح إلا لمسرح خال من النظارة.

أية فتاة هذه التي جاءت تهز فرعه؟ لو كان التقاها في مكان آخر وفي ظرف مختلف، لقال عنها أنها برجوازية، مترفة، ذات أنفة مصطنعة ولما رغب حينئذ في محادثتها، وها هي رغم كل مظاهر الترف الذي يساعدها على إخفاء حقيقتها تكشف عن نفسها دون قناع أو ساتر فلا تخجل من شيء. إنها فتاة من عامة الناس وحسب، فلا تدعي ثقافة أو معرفة تفوق ما لدى الناس. أليس من الأجدى له أن يتعلم منها درساً، أو يرى من خلالها الناس؟ وكيف سيصبح كاتباً وماذا يكتب إن لم يعرف الناس على حقيقتهم بما ينطون عليه من شرور ومن عواطف

نبيلة في الوقت ذاته؟ كاد أن يندفع ويعلن قبوله التام لعرضها وتسليم دفة قيادة نفسه لها، غير أن الكلام ذاته الذي قاده إلى رؤية جديدة وفهم صحيح، علمه الحكمة أيضاً، فما يدريه أن الأمر سينتهي به عند حد الانتقال إلى مسكنها. أليست هناك من مفاجآت أخرى قد لا تحتملها ليلة واحدة. آثر التروي وعدم الاستجابة الكاملة لكل ما تعرض عليه، فأفضل له أن يصل إلى المعرفة شيئاً فشيئاً، لا أن يأخذها مرة واحدة، فلا يستطيع حملها. وقف وكخطيب تعود على الخطابة خطا في الغرفة خطوات ثم استدار وواجهها، وقال:

– دعيني اعترف لك أنك أثريتني حكمة، وبلغت بي ما لا أستطيع بلوغه في سنين. لقد كشفت لي وأنا الذي يزيد عليك في العمر والذي يتباهى بثقافته، أنَّني عاجز وضعيف، بل وضحل أمام تجربتك الإنسانية وجرأتك. ولكنني أملك أن أقول كذلك أنك تجازفين بدون رويّة بدعوة شخص لا تعرفينه ولا تعرفين أي سلوك سيسلك في منزلك وأي انفعال قد يظهر منه. لقد تفهمت درسك فاقبلي نصيحتي ولا تجازفي في إدخال غريب إلى حياتك، فلك خصوصيتك – من دون شك – لك ما تحبين إخفاءه عن أعين الآخرين، فلا تتعجلي بدعوتي.

بدت منفعلة ومرتبكة وفاقدة الاتزان. قالت:

– اقض معي بعض هذه الليلة على الأقل، فأنا على حافة الجنون. أنا ما عدت أحتمل احتضار والدتي ولا صمت عمتي ولا وحدتي. ولهذا أنا أبحث عن أخي. أريده على فساده وعلى سوئه أن يكون إلى جانبي.

قال:

– أما أخوك فسوف أعثر عليه، فإذا نجحت في ذلك أكون كفيتك عبء استضافتي ووفرت لك ما تسعين إليه، فأنا وأنت في النهاية غريبان ولكل منا طريقه المختلف. مع أنني وسأعترف لك بصراحة: أشعر بميل شديد إليك. إنَّ كل ما فيك، كلَّ لمحة منك تبعث بي نمنة جميلة، ولن أنسى ما حييت فعل هذه النمنة وضوع هذا العطر في نفسي.

قالت:

– شكرا لك صراحتك التي عبرت فيها عن نفسك واللوحة التي رسمتها لي. لكن إذا ما قيض لنا أن نبقى معاً فحاذر أن تتمادى في ذلك، لأن ذلك سيعود عليك بالسوء وأنا لا أحب لك السوء يكفيك ما حصل حتى الآن.

ردّ عليها غاضباً:

- إذا فلأبحث لك عن أخيك فهذا أفضل لي.

تساءلت:

- كيف؟ كيف بالله عليك؟ هل أعطاك عنوانه؟

قال وهو يتجرع مرارة كلامها:

- لقد ذكر لي أماكن قد يتواجد فيها وقد لا ترغبين في دخولها.

ردت عليه:

- إنها أماكن سيئة بالطبع، فالشخص السيئ يختار المكان السيئ.

قال:

- ها قد عرفت بنفسك. هل أنت على استعداد؟

قالت:

- سأدخل أي مكان ما دمت أنت معي.

كان لا زال على غضبه، فعقب:

- بشرط أن لا أعبر عن أية عاطفة تجاهك.

ردت بثقة:

- يجب أن تستغني عن أية ملاحظة من هذا القبيل فهي لا تزيد الأمور الا صعوبة ويلحق بك الأذى بالنهاية وأنا لا أريد لك الأذى.

قال متحدياً:

- لماذا تصرين على تحذيري وتخويفي؟ ما الضير في أن أعبِّر عن عاطفة بريئة طيبة، بنية صادقة؟

قالت وقد لاحت له عيناها الخضراوان اللتان كانتا قبل وقت قصير مخضلتين كبحيرتين وادعتين. لاحتا له شديدتي القسوة:

- أنا أفضل أن أعطيك أفضل ما عندي وأجنبك الأسوأ؟ أما قلت لك إن الشر يحركني. فلو أننا نترك بيننا هامشاً فلن يؤذي الواحد منا الآخر.

تفحصها جيدا وما وجد في كلامها ما يضير، بل وجد فيه على العكس ما يرده إلى صوابه ويمنعه من التمادي في ما قد يسيء إليه.

نهض وقال:

- إنها مقاه للحشيش والقمار، منتشرة في وسط العاصمة غير أنني لا أعرفها. من الأفضل أن نسأل مركز شرطة المدينة عنها سندعي أننا صحفيان.

- هيا بنا

نهضت وقالت:

- لا تنقصك الأفكار النيرة، لدي آلة التصوير في السيارة، ستساعد في الإيهام.

رد عليها:

- وأنت لا تنقصك الجرأة.

ولكنه في اللحظة المندفعة تلك، اللحظة التي أوشك فيها على الخروج من غرفته مدفوعاً إلى مغامرة جديدة، أدرك أن خروجه من الغرفة التي ألفها ألفة شديدة قد يكون خروجاً نهائياً لا عودة بعده، وإنه موشك على وداع قاسٍ. إنها لحظة انفصال حادة عن المكان الذي ضمه سبعة أشهر. المكان الذي احتضن سكينته وأشواقه وأساه، الذي وهبه كلَّ ذلك الأمان الذي احتاجه ووفر له الفرصة لكي يتابع دراسته بنجاح ولكي يقرأ ويحلم. المكان الذي وفر له العزلة الضرورية. هنا أقام سبعة أشهر، وهنا تآلف مع كل قطعة أثاث ومع كل زاوية. هنا كان ينعزل تماماً عن الآخرين. يخفي همه وأوجاعه ومن خلال هذه النافذة كان ينظر إلى الشارع فيرى صف البيوت المتراصة المتقابلة وقد تدلت قطع الغسيل من حبال تتصل بالنوافذ ويلمح النساء، النساء البدينات والنساء الجميلات، في انهماكهن في العمل وفي لحظات ضجرهن ووقوفهن يراقبن الشارع في خمول.

كان يراهنَّ وهو على رقدته، إذا ترك في الستارة فتحة صغيرة أو وهو يجلس على مقعده مواجهاً للنافذة. إنها لحظة وداع مؤلمة. وداع المكان الذي لا يشابه كل الأماكن. المكان الذي صارت له روح هي جماع كل شي فيه وكل أثر يتركه فيه وكل نفس وضحكة وآهة علقت به.

أدركت صعوبة لحظة الوداع هذه، فلقد مرت بمثلها من قبل دون شك فعلقت:

- يصعب عليك فراقها؟

أجاب بصوت خفيض:

- أما ودعت عزيزاً من قبل؟

ردت بكثير من الأسى:

- بلى. كانت حياتي دائماً لحظات اتصال وانفصال مؤلم، أماكن وأحبة، هنا في عمان وفي بيروت. ها إن أمي، حبي الوحيد تموت الآن، ولا تعرف أيَّ فراغ ستترك.

وجد نفسه يحنو عليها حنواً ما شعر بمثله من قبل تجاه أي إنسان. ودون أن ينظر إليها. وضع يده على كتفها برفق ودفعها باتجاه الباب. قال بما يشبه اللعنة:

- تلك هي الحياة.

ردت بعده بالقصد نفسه:

- تلك هي الحياة.

خرجا. كانت تمطر بدون توقف. فتحت باب السيارة واستقلتها ثم فتحت له الباب وأخذ مقعده إلى جانبها، غير أن عينيه ظلتا مشدودتين إلى غرفته التي تركها مضاءة ربما عن سهو مقصود.

قال:

- سأعود الليلة لأنام فيها.

كانت لديها مشاغلها الخاصة، فهي مضطرة لتصويب مسار السيارة في الاتجاه الصحيح وقيادتها بحذر شديد في ليل امتصت أمطاره الأضواء، فازدادت عتمته. قالت بعد أن اطمأنت إلى سلامة قيادتها:

- ولكنك ستأتي معي. لقد وعدت. أليس كذلك؟

أجاب:

- يسرني أن أكون إلى جانبك ولكنني أتحدث عن النوم. سأنام هنا حين يحين موعد النوم.

قالت:

- ألا تريد أن تعرف أين أسكن وكيف أعيش. لن تتعرف عليّ جيداً الا حيث أعيش.

أجاب:

- لا شك في ذلك أكاد أتخيل أي رونق لمنزلك.

قالت:

- لا تتمسك بهذا الاعتقاد.

عزفا عن الحديث معا، ومضت بهما السيارة ببطء شديد. قالت بعد فترة صمت طالت نسبياً:

- الأمر لا يخلو من الغرابة.

التفت إليها وأدرك أنها في طريقها للحديث عما تراه غريباً.

أصغى بانتباه. تابعت:

– كأنك تتحرك ضمن دائرة هنا في عمان وكأنني اتبع خط الدائرة. لقد بدأت السكن في مسكن كنا نملكه وأقام فيه أخي، وها أنت ستنتهي إلى السكن في مسكننا حيث أقيم أنا. هل ثمة فرق؟ ستعرف فيما بعد.

ما عقب على كلامها، فقد وجد فيه دلالات وإيحاءات تستحق منه وقفة متأنية حتى يدرك مراميه. قالت له قبل فترة وجيزة. "أنا ما اخترتك. لقد اختارك قدرك، منذ أن وطئت قدمك هذا المكان" والآن تقول له "كأنك تتحرك ضمن دائرة. لقد بدأت السكن في مسكن كنا نملكه وأقام فيه أخي وها أنت ستنتهي إلى السكن في مسكننا حيث أقيم أنا" ثم تسأل "هل ثمة فرق"؟ "ستعرف فيما بعد" وتقول "وكأنني أتبع دائرة". ما الذي ترمي إليه؟ فليس كلامها عفو الخاطر، بل هو إفراج عن سر، عن خطة مدبرة أو عن مسار هادف. إنَّ رؤيتها ليست وليدة اللحظة. هل اتبعت خط الدائرة دون إرادة منها أم أنها سعت إلى ذلك بكامل حريتها ولأمر مضمر في نفسها؟.

البداية المكان، وكل بداية تبدأ في مكان، كل حدث يبدأ في مكان، والمكان نفسه، المكان الذي يبدو ساكنا محايداً يشكل إرهاصا لفعل غير منظور. فللأشخاص علاقة بالمكان. الأشخاص الذين أقاموا في نفس المكان في آن واحد أو تبادلوا الإقامة فيه أو الذين يجاورون نفس المكان. الأمر يتصل بثبات المكان. وتبدل الأشخاص وتبادلهم المكان. والأشخاص على اختلاف دوافعهم يتصلون ببعض بسبب ذلك المكان والاتصال يُحدث تفاعل والتفاعل يدفع إلى أحداث. قد يجهل طَرَفا عملية التفاعل هذه الحقيقة، فيحدث ما يحدث لا بإرادتهما ولكن بفعل المكان وقد يدرك واحد منهما الأكثر معرفة، الأكثر إلماما بتفاصيل هذه الحقيقة، فيسعى إليها سعيا دائبا مقصودا. فإذا كان الأمر كذلك فهوالذي يتبع خط سيرها وليست هي التي تتبع دائرته، فما الذي دفع به إلى سلسلة من الأحداث ابتدأت بمجيئها؟ أهو المكان أم هي؟ وحتى لو كان هو المكان فهي التي قصدت ذلك المكان وهي التي أخذت زمام المبادرة، وماذا تعني الدائرة التي تبدأ به في مكان معين وتنتهي في مكان آخر؟ هل قذف به المكان ذاك إلى مكان آخر؟ أم اختارت أن تأخذه من ذلك المكان إلى مكان آخر؟ ولماذا يكون المكان الآخر هو الذي يقيم فيه؟ ما لم تكن هي الأساس وليس المكان. ثمة تفاعل بين المكان والاشخاص. المكان المصيدة التي وطئته قدمه، فعلقت فيه. كم من الاشخاص احتكَّ بهم حتى الآن، وكم بقي من الأشخاص

سيحتك بهم في مسيرة مغامرة هذه الليلة؟ لقد تعارك مع صاحب الملك وانتهى من المعركة فاقدا للمكان الذي أحبه دون أن يعرف أيَّة لعنة حلت به.

وسيدخل الآن أمكنة سيئة أخرى ولا يعرف أيَّ سوء سوف يصادف. تقول: "الشخص السيئ يختار المكان السيء". فليس هذا الكلام إلا تعبيرا عن هذه العلاقة المتبادلة بين الاشخاص والأمكنة وتأثيراتها المتبادلة.

ولسوف يتأكد ظنه فيما بعد، حين تتكشف له أمور أخرى كانت في طي الكتمان. إنّه ما من شخص شارك في أحداث هذه الليلة إلاّ واتصل بذلك المكان بعينه، أو في أماكن أخرى تخص الأشخاص أنفسهم. إنها الأمكنة ذاتها والأشخاص أنفسهم الذين يتبادلون الأمكنة أو يكتفون بالجوار. لقد ابتدأت عائلتها الإقامة في مسكن أبي هويمل ثم انتقلت لتستقر إلى حين في مسكن جديد يفصله عن مسكن أبي هويمل خلاء كبير ثم اشترى أبو هويمل ذلك الخلاء وقسمه قطعا صغيرة. شيدت عليها المساكن وزحف العمران حتى التقى بمنزل العائلة. ثم احتل أبو هويمل مسكن العائلة الجديد فرحلت إلى مكان آخر.

فَمَنْ مِنَ الأشخاص الذي تسبب في كل هذه الأحداث؟من كان الدافع، المحرك لكل هذه الأحداث؟ أكان أبا هويمل - بسبب سوء مسلكه وإفساده لأخيها - أم هي بكل الحقد الذي تضمره؟ أم هو بسذاجته التي جعلته في طوعها وفي خدمتها؟ أم الدكتور أحمد الذي سيظهر لاحقاً والذي سكن مكاناً مجاوراً، الصديق القديم لعائلتها والمشارك الفاعل في أحداث هذه الليلة؟ ما هو المكان بعينه بين كل الأمكنة الذي حمل بذور كل الغضب والذي فجر الأحداث وبعث مشاعر كانت في طي النسيان أو مسكوتا عنها.

المساكن جميعها أقيمت على أرض خلاء طرف الجبل الصعب الخطر الذي كان شقُّ شارع فيه، بتلك الأدوات البسيطة، عملاً مغامراً ومجنوناً. أول تلك المساكن أخذ مكانه في بدايته حيث الأرض أرحب وآخر تلك المساكن ذلك الذي بناه ابو هويمل وأسكن في الطابق الثاني منه عائلتها ثم جاء والدها وانتقى بقعة بعيدة جدا عن كل المنازل وأقام مسكناً مستقلاً ومتميزاً بانفراده ورفاهه، ووصله بالشارع الأعلى الممهد بدرج، يجعل الوصول إليه ممكنا ويجعل وصول الناس من أسفل المنحدر متعذراً عليهم. ثم اشترى أبو هويمل معظم الأرض بين مسكنه ومسكن

عائلتها وقسمها إلى قطع صغيرة، تسابق أصحاب الدخول المحدودة إلى شرائها وبدؤوا البناء والزحف نحو الأعلى حتى اتصلت المساكن بمسكن العائلة. أقام الناس مساكن متراصة، صغيرة قليلة الحجرات، حشروا عائلات صغيرة وكبيرة داخلها ثم كبرت العائلات الصغيرة واضطر الناس إلى زيادة طوابق أخرى إلى المساكن القديمة وأغواهم ذلك بتأجير الشقق لمن لا يملكون مساكن، فتوافد من هم أقل دخلا أو من هم غرباء لا يملكون قوت يومهم أو أصحاب سوابق في الإجرام، أخفوا أنفسهم ضمن هذا الحشد العجيب في تنوعه. وجذب الشارع عائلات امتهنت الدعارة كما جاء أبو هويمل باتباعه ممن يخدمونه في تجارة المخدرات، لقد اكتظ الشارع بالناس لدرجة أن أربع عائلات اقتسمت السكن في مغارة واسعة وفصلت العائلة الواحدة نفسها عن الأخرى بساتر. وانتشرت البقالات الصغيرة واختلط الحابل بالنابل.

لقد تواضع الجميع بدون اتفاق معلن على أن يتركوا الوضع على علاته، وأن لا يزج الواحد أنفه في أمر الآخر، وأن لا يفجر أحداثا دامية، غير أنه كان لا بد من بعض الشجارات المحدودة ولا بد من تدخل الشرطة ولا بد من إخراج البعض من بيوتهم في الليل أو وضح النهار.

أبو فؤاد البقال الوحيد الذي يعرف أسرار الناس، أبو فؤاد الشاهد المحايد الصامت والذي – لسبب ما – مال إلى جلال الهزيعي وقدم له الملاحظة تلو الملاحظة عما يجري في الشارع دون أن يشير إلى مكان بعينه أو يسمي أشخاصاً بالذات.

حتى أنه لم يخبره شيئاً عن أبي هويمل، بل كان يسأله إن كان يزوره، فما أن ينفي ذلك حتى يقول له هذا أفضل. ولقد شاهد بنفسه نساء يدلل مظهرهن على أنهن محترفات دعارة، وشاهد لصا يحيط به رجال الشرطة ويمسكون به وشاهد أطفالا يلعنون رجال الشرطة.

ورغم كل ذلك ما اكترث ولا طلب معرفة المزيد. كان يأوي إلى غرفته ويغلق الباب فيعيش على مزاجه الخاص وفق ترتيباته الخاصة. بقي الشر بعيدا عنه سبعة أشهر وبقيت الأحقاد خارج غرفته سبعة أشهر. ولسبعة أشهر تنقل بين مسكنه والجامعة ومقهى شهرزاد، وخلال سبعة أشهر تقدم في دراسته وفي ثقافته وصلاته. غير أنه ظل بدون تجربة إنسانية، بدون معرفة بحياة الناس وما يؤثر في سلوكهم. الناس الذين هم في أدنى درجات المجتمع، الناس الذين يرفع شعار الدفاع عنهم، لا يعرفهم ولا يعرف معاناتهم ولا يعرف أية حياة اختاروا وأي سلوك نهجوا. الناس الذين فقدوا براءتهم وحل محلها البغض والشر، والذين بدلا من أن

يوجهوا غضبهم لمن تركهم على هذه الحال أو الذين أرادوا لهم هذه الحياة البائسة. وانشغلوا بمعارك فيما بينهم أنفسهم، في تنافس غير مريح وفي تزاحم مضر.

وها هو يدخل ساحة المعركة بدون معرفة لأعدائه وبدون سلاح. إنه حارس الأميرة وتابعها. إنه جنديها الذي اقتحم أماكن أعدائها، إنه البطل الوهمي لأميرة غريبة المطامح والطبائع. إنها لا تقول له ماذا يتوجب عليه أن يفعل ولكنها توحي له بذلك فينبري متطوعا بهمة الفارس واندفاعه.

قطعت عليه تسلل أفكاره حين سألته بحنان بالغ ورقة متناهية وكأن روحاً طيبة نقية ترفرف عليها الآن:

– كيف تشعر الآن؟

أجاب:

– كمن يدخل مغامرة غير محسوبة النتائج. إن ذلك مبعث قلقي لأن الأحداث فاجأتني وما تركت لي خيارا، إنني عادة أضع الهدف بنفسي ولغاية أنشدها وأخطط جيدا لما أريد.

قالت:

– ولكنك أنت الذي وضع الهدف ورسم الخطة وأنا التي جاريتك وأنا التي أتبعك.

ما أراد أن يوسع في جرحها وأن يبعث إليها مزيداً من الألم، فخاطبها برقة أكثر:

– اسمحي لي يا رفيقة ليلتي. يا من استحوذت على عاطفتي، أنت الوديعة الحنونة والضحية في آن واحد، أنت التي تمتلئين حقدا وعاطفة نبيلة. اسمحي لي أن أقول دون قصد الإساءة اليك. إنّني كنت في غرفتي ساهيا لاهيا عن كل ما يجري في الخارج وإنك في خلسة من وقتي جئتني وحدث ما حدث.

قالت:

– ذلك لأنك تجهل عمان وما يمكن أن يحدث لك فيها. إنك سيء التخطيط وإلا ما كنت جئت إلى عمان. فأنت ما حسبت النتائج حين قررت الانسلاخ عن مكان هادئ آمن والانتقال إلى مدينة لا جذر لها. مدينة مختلطة تعج بأقوام من منابت مختلفة، ينافس بعضهم بعضا ويأكل الكعكة من يقدر على أكلها ويترك الفتات لآخرين وهم الكثرة الجائعة التي لا يكفيها الفتات. كيف كنت تعتقد أنك ستظل بمنجى من هذا الصراع بعيداً عن الأحقاد والآثام؟

قال:

– المشكلة تكمن في آكلي الكعكة كلها وما هؤلاء الذين يتنافسون على الفتات إلا الضحايا.

ردت عليه:

– أنت تتحدث عن العموميات ولا ترى الواقع. إنك تقرأ كتاباً سطره شخص يجلس في برج عاجي ولا يعرف عمان. أنت لا تعرف التداخل بين الغنى والفقر وكيف ينتقل الفقير بذكائه إلى مواقع الغني وكيف يسقط الغني إلى مواقع الفقر. وحتى أصحاب الكعكة، أصحاب النصيب الأكبر فيها يتقاتلون فيما بينهم وأنهم أيضا ضحايا لا يعرفون. إسألني أنا. فأنا ابنة عائلة كان لها نصيب في الكعكة ثم لم تحصل حتى على الفتات وأنا أعمل في شركة لمن لهم نصيب في الكعكة الآن، كما عملت لدى غيرهم. إنني أعرفهم معرفة جيدة، أعرف السوس الذي ينخر حياتهم، فتتحطم من ثمة أسوأ تحطيم، أنا التي أبدو لهم وجبة شهية يرغبون في أكلها والتلذذ بها، فيقتربون مني ويتخلون عن أقنعتهم ويكشفون لي جوعهم وشرههم، فلا ينالون مني سوى الازدراء. ولا يرجعون إلا بألم يعتصرهم وخيبة أمل مريرة. ولا يقتصر الأمر عليهم، فما يحدث بين الفقراء الباحثين عن الفتات أسوأ وأكثر مرارة.

إنها عمان يا رفيق ليلتي. عمان التي كنت تجهل وعمان التي تدخل الآن مسالكها وتتعرف بنفسك مما يحدث فيها. أنت الآن في عمان التي يعشعش الشر في نفوس وضمائر سكانها، والتي ستقودك في أي وقت إلى معركة. وربما ما لاحظت ذلك من قبل. لأنك كنت تعزل نفسك عن الناس في غرفتك. وحتى وأنت في غرفتك جاءك الشر، اقتحم عليك عزلتك وها أنت فقدت المسكن الذي كنت تلوذ به وتتجه إلى مكان لا تعرف أيَّ سوء ستواجه فيه. وتفتن بفتاة تحذرك من الافتتان بها، فتود أن تهرب منها ولا تستطيع. إن الحياة في عمان غريبة الأطوار، متقلبة، شرسة لا تترك للإنسان فسحة من الأمل ولا تتركه وشأنه.

فكر آنذاك بما قالت ووجد فيه إسهاما بالغ الأهمية في هتك سره، ودفعه لأن يرى الناس على حقيقتهم فلا يكتفي برفع شعارات رنانة، مثل أنه ينحاز إلى الطبقة العاملة في صراعها ضد أصحاب رؤوس المال ثم يستريح وجدانه ويرضى عن نفسه. الوضع أكثر تعقيدا من الارتهان لهذه الفكرة التي تصنف الناس صنفين وتتجاهل كل تلك الأوضاع الغريبة الشاذة للناس الذين هم في الحضيض وتغفل عن إدراك غفلتهم في تصارعهم على الفتات. إن شارع الاسكافية

- مثلا - لا يضم على ما بلغه إلاّ قلة من العمال مع أنه ابتدأ بادئ ذي بدء بأصحاب حرفة صنع الأحذية الذين مارسوا مهنتهم في الوادي وسكنوا قريبا منه عند أول منحدر الجبل، ومع ذلك فإنه لا يرى في هذا الحي إلا أجساداً متهدلة ووجوها منفرة وملامح بؤس ومظاهر فقر. وهو يعيش بينهم ولم يتوقف لحظة واحدة للتفكير في هذا الخليط العجيب من البشر المخدوعين والمتروكين على سوء حالهم. هنا لا تتدخل الشرطة إلا لاعتقال لص أو ساقطة. إنه يكتفي بأن يجلس ساعات لقراءة القانون الذي يرسي قواعد لتثبيت الوضع على ما هو عليه، القانون الذي يجهله هؤلاء ولم يأخذ أمرهم فيه ويجلس ليقرأ الكتب الفكرية بمعزل عن حاجات الناس فسيكون شأنه شأن من يرعى فكرا لا تضرب جذوره في الأرض. إنها الدليل الذي يحمل مفاتيح المعرفة والذي يفتح له الباب تلو الباب، ولهذا فإنه يجد نفسه لأول مرة مشدودا إليها، تابعا لها يحدوه فضول عجيب. إنَّ المشكلة - إذا كان ثمة مشكلة - تكمن في نفسه، في ذهوله الشديد وسذاجته وانصرافه عن الناس، إلاّ تلك القلة التي تجلس في مقهى شهرزاد والتي لا تتجاوز تجربتها تجربته.

سألته:

-لماذا أنت صامت؟ ما الذي يدور في خلدك؟

رفع رأسه والتفت إليها. كان سيقول لها أنت مصيبة، غير أنه ما رغب أن يسلم قيادة نفسه بهذه السهولة.

أجاب:

-لا شيء

أصرت:

- بل إنك تفكر بأمر ما. قل ما هو؟.

أجاب:

- لا شيء مهم. كل ما في الأمر أنني لا أتفق مع كل ما تقولين. أنت لا ترين إلاّ الجانب السيء في الناس وما حدثتني عن لحظة سلام واحدة او لحظة إضاءة انسانية ؟

سألت:

- وماذا تقول عني إذاً في غمرة كل ذلك السوء؟ لا بد أن تقول إنني واحدة أيضا من هؤلاء. لقد دخلت غرفتك وأنت الشاب العازب وها أنا أرافقك في مغامرة إلى مقاه سيئة السمعة.

حدق فيها مستغربا تلك الانعطافة الحادة في تفكيرها وتلك الخسارة الجسيمة لثقتها

بنفسها.

استدار بكليته إليها. كان لا زال مفتونا بها، فهي الدليل على أن الناس ليسوا كلهم سواء وليس كلهم دميمين وليسوا كلهم جهلة. إنها ينبوع إضاءة وإدراك وذات رونق وبهاء.

قال لها:

- اسمعي لولا أنني اخشى مغبة غضبك لقلت لك إنّك أبهى وأروع من رأيت، وإنَّك أنت الشخص الذي أحتاجه. أنت دليلي ومصباحي الآن:

- هل ستنتقل للعيش في منزلنا ولو لبضعة أيام، حتى تجد لنفسك مسكنا آخر، إنني أخشى من شر تدبيره.

سألها سؤالا بدا لها ناشزا ولكنه احتاج إلى قدر من الشجاعة لطرحه:

- أنت تهتمين بي إذاً؟

أجابت :

- بالقدر الذي أحميك فيه وأدفع عنك الخطر الذي جلبته لك.

خاب ظنه وامتقع في الحال، فقد تهيأ له أنها يمكن أن تجامله بقولها: وأنا ارتاح اليك وأحب أن تبقى إلى جانبي.

- ومع ذلك فإنني أحببت رفقتك. إن فيك سراً يجذب الواحد إليك. أنت أيضا ستكون دليلي إلى أشياء أجهلها.

قال:

- أسمعي آنسة. لقد ضعفت في لحظة فأخذت تهديد أبي هويمل على محمل الجد ولكنني عادة سرعان ما أتماسك من جديد. لن يجرؤ واحد مثله على طردي من مسكني. فأنا مستأجر ولي حقوق سوف أدافع عنها بضراوة.

- إذا فأنت لن تقبل دعوتي؟

تعين عليه أن يصارحها بما يرغب فيه. قال:

- إنني شخص له خصوصيته وأحب العيش في خلوة.

أشاحت بوجهها صوب النافذة وقالت:

- أخشى أن تكون مكرها على مرافقتي وأنت تحقد عليّ؟

نظر إليها. تأمل عنقها وقرطها الذهبي وشعرها القصير الممشوط إلى الخلف. انبثق بداخله في تلك اللحظة شعور بأنه لا يقوى على مفارقتها، وأنه سيبقى إلى جانبها ما طاب لها من الوقت.

قال:

- لكم أحب مرافقتك هذه الليلة! ولكم أحب أن أقيم في منزلك! لكنني إرتكب هفوات صغيرة عادة تصدر عن طيش وأخشى أن تعيبي عليّ هفواتي وطيش أفعالي.

التفتت إليه وسألت:

- أتتصرف بطيش حقيقة؟ لا يبدو من مظهرك أنك تفعل ذلك؟

أجاب:

- إنني أتصرف باتزان كهل أحيانا وطيش طفل أحيانا أخرى.

قالت:

- وأنا كذلك. وأنا كذلك. ودليل ذلك أننا نخوض مغامرة مشتركة ولم نتبادل الأسماء بعد.

قال مندهشاً:

- ألم أخبرك عن اسمي؟

أجابت:

- لا، ولا أنت سألتني عن أسمي.

قال:

- اسمي جلال الهزيعي وأنا من بلدة هزيع في شمال الأردن. مدرس سابق وطالب حديث.

- وأنا دلال تمر هندي والدي من مواليد يافا، ابن تاجر قماش وجدي الأول، كما عرف عنه بائع تمر هندي وقد جمع ثروة من بيع التمر هندي، والدي توفي بعد أزمة مالية شديدة وأنا الآن سكرتيرة.

قال:

-عاشت الأسماء.

وانفجرا ضحكا في الوقت الذي بلغا فيه مركز شرطة المدينة. تجاوزا المركز بقليل ثم أوقفت السيارة وترجلا متخذين هيئة صحفيين، فقد حملت المظلة وآلة التصوير وحمل هو

دفتر مذكرات صغيراً مما يوزع للدعاية وجدته في جيب سيارتها. وعندما سألهما الشرطي الذي يحرس باب المركز أجاباه أنهما صحفيان ويرغبان في مقابلة الملازم المسؤول فأذن لهما. صعدا الدرج إلى المركز ثم وقفا بحضرة الملازم وطرحا عليه المهمة وسألاه أن يرشدهما إلى هذه الأماكن.

ضحك من غفلة عقول الصحفيين بعامة، وأطوارهم الغريبة، ومن الوقت الذي اختاراه بخاصة. غير أنهما أكدا له أن مهنة الصحافة شاقة بطبيعتها وأنهما سيكتفيان بواحد من هذه المقاهي. ضحك الملازم مرة أخرى ومع ذلك اتخذ هيئة جدية وحذرهما من خطورة هؤلاء الأشخاص.

طمأناه إلى أنهما يعرفان كيف يتعاملان مع مثل هؤلاء، فليست هذه المرة الأولى التي يلتقيان فيها بأشرار.

بلغا مقهى في طريقهما وهو مقهى منزو سيء الإنارة، عابق بروائح نتنة.

قالت بانفعال:

- أمي تموت واللعين يلعب القمار ويحشش.

دخلا إلى المقهى. كان نفر من الأشخاص يتوزعون عددا من الطاولات، ما كان بإمكانهما ان يلمّا بالمكان غير المألوف من نظرة واحدة، فلا بد أن يتريثا قليلاً ليعتادا الإنارة السيئة. توقف اللاعبون عن اللعب واشرأبوا بأعناقهم مآخوذين بهذه المفاجأة التي لا تخطر بالبال. فليس من المعتاد ان يغامر الشخص العادي بدخول مقهى كهذا، فكيف بفتاة يعطي مظهرها انطباعا بأنها ارستقراطية الانتماء. كان جلال يقف إلى جانبها مثل جندي يحرس أميرته، متهيىء للدفاع عنها. توقف النادل أيضا عن الحركة وبحلق فيهما بانشداه تام. ثم جاءهما رجل قوي البنية ممتلئ الجسد، تدل سحنته وجرح في وجهه على تاريخ من المجابهات الشرسة. سألهما عن شأنهما، فأجاباه أنهما صحفيان ويبحثان عن شخص يدعى خالد تمر هندي لإجراء مقابلة معه. عبس الرجل وأنكر معرفته به ووقف بانتظار خروجهما.

خرجا. كان المكان قد لفظهما من دون شك وترك في نفسيهما مرارة وشعورا بعبث تكرار دخول مكان آخر. بدا جلال، مع أن الفكرة في الأساس فكرته، غير راض عن هذه المهمة المستحيلة البغيضة في أماكن موحشة مكربة، كما أنه لم يرتض لدلال أن تتأذى بسبب اقترابها من مخلوقات شوهاء، فلقد لاحظ بأية عيون نهمة بحلقوا بها. قال:

- يكفي هذا المقهى فلن نجد تعاونا منهم.

ردت برجاء:

- مقهى آخر فقط ما دمنا في المنطقة.

سألها بغيظ:

- أيستحق منك هذا العناء؟

- ولا أقل منه. أمي تموت وأنا بحاجة إلى مساعدته، على الأقل ليمدني ببعض النقود، لقد أخذ منها الكثير وما أعطى شيئا.

كتم غيظه وسار معها إلى مقهى آخر يقتضي بلوغه اجتياز ممر معتم. ما كان المقهى الآخر بمختلف عن الأول بشيء، باستثناء أن عدد الأشخاص هنا أكثر واللغط الذي أثاره دخولهما اكبر. حيث تبين لهما أن لا وجود لخالد في الداخل طلب اليها الانسحاب إلى الخارج ووقف بانتظار أن يجد من يطرح عليه السؤال. جاءه رجل يشابه الأول في فظاظة مظهره وسأله عما يريده. فأخبره أنه يبحث عن شخص يدعى خالد تمر هندي. فعبس الرجل أيضاً وأشاح عنه، وبينما كان يهم بالخروج سمع تعليقا من شخص أبدى رغبته في امتلاك دلال ومضاجعتها، فاستدار غاضبا ولم يتعرف على الشخص الذي أبدى التعليق، إذ إن الجميع انكبوا على ورق اللعب متجاهلين نظرته المتفحصة. حينها قال:

- من السافل؟

نهض رجل فارع الطول نحيل القامة، نهم النظرات، تتدلى من شفتيه لفافة وقال بتحد:

- أنا

لم يجد مناصا من الشجار فصفعه على وجهه. رد الآخر بلكمة أدمت أنفه ما اكتفى بذلك، فقد تراجع قليلا وأخرج من جيبه سكينا وأشهرها في وجهه. نهض آنذاك عدد من الاشخاص وحالوا بين زميلهم وجلال ثم رجوه أن يبتعد عن الشر.

خرج جلال ناقما، ينزف دما. لحق به النادل مسرعاً وأخبره أن خالدا في السجن ثم استدار وعاد بمثل السرعة التي أتى بها.

كانت دلال تقف خارج المقهى فاقدة الصبر، تحرك قدميها بانفعال وتتحاشى من يمر بها مستعينة بالمظلة لتخفي وجهها. ارتاعت إذ رأته يقترب منها والدم ينزف منه. تناولت على الفور منديلا حريريا من جيب معطفه وأخذت تمسح الدم. سألته عما حدث. قال:

- خالد في السجن.

قالت :

- لا يهمني أمر خالد الآن. ماذا حدث لك؟

- ماذا تتوقعين ؟ وجه لك أحد الأشخاص إهانة فما غفرتها له.

قالت:

- ما كان يجب أن تتشاجر معه.

قال:

- ما كان بإمكاني أن أغض الطرف عن الإساءة إليك.

قالت:

- شكرا لك ولكن كيف تعتقد أن مثل هؤلاء يسيئون إليّ. إنهم حثالة. كان يجب أن لا تصغي إليهم.

لا يفيده أن يأسف الآن، فما حدث كان مقدرا له أن يحدث وهو ليس بالأمر الخطير. لقد انتهت المغامرة بأقل الخسائر وحققت ما جاء من أجله. وها هو الآن ينال مكافأته. إنها تحنو عليه وتعامله بلطف زائد. أدخلته تحت مظلتها وشبكت ذراعها بذراعه وسارت به نحو السيارة. رافقها طائعا مشتت الخاطر متجنباً التفكير بما حدث. تعاقبت على مخيلته خلال تلك المسافة القصيرة الكثير من المشاهد والأحداث التي حصلت في الماضي. كانت المشاهد تتراءى له وهو يعبر ممرات ويصعد أدراجا ويحاذي أشخاصا فلا يلحظ وجودهم وكأنه يسير في ليل تباعدت فيه المرئيات كلها باستثناء دلال التي أنس وجودها. سألته:

- كيف تشعر الآن؟

لأول مرة منذ سنين طويلة، ومنذ أن قال لأمه بالله عليك كفي عن معاملتي كطفل بعد أن نهض من رقدة مرض طويلة، سمع صوتا دافئا حانيا يسأله كيف تشعر الآن. رد عليها:

- بخير. أشعر بسعادة تغمرني لأن خطتي نجحت. على الأقل عرفت مكان أخيك.

قالت:

- لا، صحيح، هل تشعر بألم؟

أجابها:

- لا تكترثي فهذا جرح تافه لا يضير رجلاً.

قالت:

– ولكنك بحاجة إلى طبيب. هنا كثير من أطباء الأنف والأذن والحنجرة. انظر إلى الجهة المقابلة. هناك عيادة طبيب. دعنا نقطع الشارع.

أخذته إلى الطبيب الذي كان على وشك مغادرة عيادته ولكنه عاد معهما وعالج أنف جلال وأعطاه حبة دواء وترك له باقي العلبة ليأخذ منها ثلاث حبات في اليوم. شكر الطبيب ونقده أجره وخرج، ليس بجرح أوقف نزيفه فقط، بل بفرح طفولي غامر وانفتاح كلي على المدينة بأضوائها الخافتة وعاصفتها وشدة بردها. عادا إلى السيارة. قالت وهي تشغل محرك السيارة:

– الحمد لله.

أسبل عينيه هانئا، مستعيدا الرعشات اللذيذة للمسة يدها الحنونة واشتباك ذراعيهما وتلامس كتفيهما تحت مظلة واحدة واستعاد بشغف كلماتها الرقيقة الحانية. سألته:

– هل تذهب إلى منزلك لتغير قميصك؟ هل تحتاج أشياء أخرى؟

قال:

– ما أريد هو أن يظل عجل السيارة يدور ويمضي في الشوراع. كأنني ما عرفت عمان من قبل، وهذه العاصفة التي بدت لي مبعث كدر في الصباح تثير نشوتي الآن.

قالت:

– ولكنني مضطرة للعودة إلى أمي. اعذرني، فقد مضى وقت طويل على خروجي من المنزل.

أفاق من نشوته على واقع لا يمكن تجاهله، فرفع جذعه وقال:

– معك حق. فلنذهب فورا. هذه واحدة من لحظات طيشي التي حدثتك عنها.

نظرت اليه وأشارت إلى قميصه الملطخ بالدماء ثم قالت:

– آخذك إلى منزلك، غير قميصك على الأقل. لن يأخذ منا وقتا. منزلك في الطريق من منزلنا.

قال:

– لا، ما دامت أمك في نزاع الموت. لا حاجة لتغيير قميصي الآن، اطمئني على أمك أولاً ثمَّ تعيدينني إلى مسكني إذا كان الوضع مطمئناً.

قالت:

- أمي في حالة غيبوبة منذ الأمس، وقد تعيش أياما على هذه الحال وقد لا تعيش. لن نعرف ماذا ينتظرنا هناك. غير قميصك وخد ما شئت: فرشاة أسنان، أداة حلاقة، كتب الدراسة، تقول إنّك منظم في كل شيء وتخطط لما تفعل وها أنت تتصرف بدون مبالاة.

عندما توقفت السيارة أمام مسكنه، فكر أن ينفصل عنها الآن ما دامت أمها في حالة غيبوبة قد تستمر أياما، فهو بحاجة ماسة إلى خلوة قصيرة مع نفسه، بحاجة إلى أن يعيد التفكير بدعوتها والقرارات التي اتخذت في لحظات مربكة وليس بوسعه أن يأخذ فرصته هناك. سيكون للموت الحضور الأقوى، السلطة الكاملة، حيث يتراجع الفكر وينحشر في زاوية ضيقة هي الموت.

رأى أن من حقه أن ينعم بقسط من الراحة بعد كل هذه الأحداث المثيرة وأن يقرر بنفسه بمعزل عن ذلك الفيض من النمنمات التي تبعثها فيه، من حقه أن يكون قراره صادرا عن سلطة عقله بعيدا عن المؤثرات. سألته بعد أن طال به السكوت في السيارة عما يفكر به:

قال:

- أعتقد أنني سأبقى الليلة في منزلي. أشعر أن ذهني مشتت وأنني بحاجة إلى الخلوة بنفسي.

قالت برجاء، باستغاثة يائس بحاجة إلى من يعضده ويشد أزره:

- الوقت ما زال مبكرا. الليل في أوله، أقض وقتا قصيرا في منزلي، أنا وأنت نحتاج اليه. أعرف موقع المنزل على الأقل، لتزورني فيما بعد. ألست ترغب في ذلك. ألا تود أن تراني مرة أخرى أم أنك كرهت صحبتي وما سببت لك من أذى؟

صمتت قليلاً ثم تابعت بصوت متشنج:

- أعرف أنَّني مؤذية. لا يأتي مني سوى الأذى. ولكنك أول من وثقت به في حياتي وأكثر من أحتاجه الآن.

صمتت مرة أخرى حتى هدأ روعها وتابعت:

- تعال معي. شاهد الغرفة التي سأخصصها لك. دع عمتي تتعرف عليك. إنها لن تبادلك الكلام، غير أنها بفراستها ستعرف أي صنف من الناس أنت. لا تكترث للطريقة التي ستتفحصك بها وتجاهل وجودها تماما. كل ما أريده أن تراك وتعلم أنني اخترتك إلى جانبي.

سوف تنسحب حينئذ إلى غرفتها. أنا لا أحب أن أتوزع بين أمي وبينها. لا أريد أن أحقد عليها أكثر مما فعلت الآن. فلقد سامت والدتي الكثير من العذاب ﴿ السابق.

كان ينظر إليها آنذاك ويراقب انفعالها ويود لو يعلن استجابته ﴿ الحال، غير أنه تركها تلملم عباراتها وتستعيد سكينة نفسها وفكر لو أنّها ما ألحت عليه، لكان ﴿ ذلك ما هو أفضل له، فما يرغب فيه الآن هو أن يترك وحده ويستلقي على سريره ثم يجمع شتات أفكاره. فحجم الأقوال وردات الأفعال كان أكبر من أن يستوعبه الآن ولكنها من لحظة طرقها لبابه، ما تركت له خيارا. إنَّها تجذبه نحوها، جذبا حثيثا لطيفا، لا يستطيع معه فكاكا، تجذبه بنعومتها وقوة شخصيتها وانكسارها واحتياجها له وحدبها عليه وفيض عطرها وروعة جمالها وبرموز وايحاءات كلامها، سألته:

- بماذا تفكر الآن؟ هيا بنا.

أجاب وهو يدرك صعوبة الانفصال عنها:

- لا أفكر بشيء. سأعود حالا.

تركها واتجه بسرعة إلى غرفته. كانت المدفأة مشتعلة والغرفة ﴿ أفضل حالات دفئها، وروح شفيفة تسود المكان وتحط على كل قطعة فيه. ها إنَّ كل شيء ﴿ مكانه، ﴿ انسجامه الأليف مع غيره من الأشياء. إنه انسجام رهيف لا يدركه إلا هو ولا يرضي أحدا غيره. فما الذي يدعوه الآن لأن يختلي ولو لليلة أو بضع ساعات عن المكان الذي يجد راحته فيه؟ وماذا تريد هي منه؟ لماذا تلح على دعوته؟ أتراها وجدته أداة طيعة، لتنفيذ مآرب أخرى؟ما الذي تبقى من المهمة التي جاءت من أجلها؟ لقد تسببت له بأذى شديد، حتى أنه على وشك خسارة هذا المكان اللطيف. أتراها تشعر بالأسف والندم وترغب حقا ﴿ إيجاد البديل، هو منحه حق الانتقال إلى مسكنها إذا نفذ صاحب الملك وعيده؟ وهل سيجد راحته هناك؟وأية راحة هذه ما دامت أمها ﴿ حالة غيبوبة نهايتها الموت المحتم. الموت يلقي بظله الكريه هناك. فكيف سيستسيغ العيش ﴿ ظل الموت؟

إنّه ليفضل أن ينتهي معها عند هذا الحد، فهل يعود ويعلمها بقراره ويتركها تذهب ﴿ سبيلها أم يتركها تنتظر وتنتظر ثم تنصرف يائسة، حاقدة؟ لن يكون تصرفه لائقاً ولن يرضى عن نفسه لو فعل ذلك. لقد سبق له أن أهمل ﴿ لحظة إنسانية شديدة الدفء رغبة صديقة

دعاها إلى منزله وتركها تتجرع الألم بموقفه غير المبرر. لماذا يورط نفسه أحيانا في علاقة ثم يخشى عاقبتها فينكص في الوقت غير المناسب. لماذا لا يقدر سلفا الحد الذي ينبغي عنده ان يتوقف ولماذا لا يستطيع ان يقرأ في عيون الآخرين إلى أي مدى يرغبون في المضي معه؟ لماذا لم تمده تجربته كمدرّس وثقافته التي تتنامى باضطراد في فهم النفس البشرية، فلا يخطئ في سلوكه خطأ يؤذي به غيره ويجرح مشاعره، ثم يصيبه الندم بعد ذلك على ما بدر منه، ويعتذر حيث لا يفيد الاعتذار. إن قراءاته كلها لا تسعفه في كثير من الأحيان في اتخاذ القرار الإنساني الصائب، لأنه يتعامل وحسب مع كل ما هو نظري وعام ولا يلتفت إلى الاحتياجات الإنسانية البسيطة والطبيعية التي توجه في أكثر الأحيان سلوك الإنسان. أنه سجين قراءاته بل موروثاته التي ما انفصل عنها، ويستصغر شأن تفاصيل إنسانية صغيرة ولكنها ذات أثر كبير في حياة الانسان. إنه يترفع عن التعامل مع الاحتياجات الطبيعية للانسان ولا يقر الإنسان على ضعفه وميوله ورغباته التي قد تنبثق في لحظة مفاجئة من رحم الطبيعة ومن تواصل الاحتكاك الذي يولد كهرباء الجسد. إنه يستعيد أحياناً بأسف شديد اللحظات التي توقف فيها عند لحظة الزخم الإنساني وترك فتيات يتلظين بنار الشهوة وخيبة الأمل. ليست هذه طهارة فيه بل جريمة إنسانية سببها الإغراق في القراءات المعزولة عن الإنسان. هل كان "ناظم حكمت" يفعل مثل هذا؟ إنه ليلمح في طيات قصائده غير هذا، يلمح احتراماً كبيرا لحاجات الإنسان في أدق تفاصيلها.

لماذا هو خائف الآن مما قد تقوده إليه الفتاة. أليس لديه من الرجولة والإدراك ما يجعله قادراً على التصرف الحكيم؟ ولماذا يهمل احتياجها إليه حتى لو لم يدرك سبب تلك الحاجة. إذاً سيخرج إليها من دون شك ويتخذ لأول مرة في حياته قرارا صائباً، شجاعاً لا يأسف في ما بعد لعدم اتخاذه.

فتح الخزانة ونزع مخاوفه وقميصه وارتدى قميصاً جديداً ثم أعاد ارتداء سترته، وأطفأ المدفأة لأنه لا يعرف متى سيعود ثم اطفأ الضوء وخرج.

كان الليل موزعاً بين الرياح والأمطار وكانت الرياح وحدها آنذاك سيدة الموقف، رياح صرصر، عاتية. أسرع نحو السيارة واستقر داخلها.

قادت السيارة من فورها باتجاه الدوار الثالث واسترخى هو في مقعده راضياً عن قراره من غير رغبة في التفكير بالذي ينتظره هناك. فليترك الأمور لسياقها الطبيعي.

قالت:

- لقد تأخرت. خشيت أنك لن تأتي.

ربت على كتفها وقال:

- أهذا معقول. أتركك تنتظرينني ثم أدخل ولا أعود. لقد اضطررت لدخول الحمام. هذا كل ما في الأمر.

- كنت أعتقد أنك ستأتي بأشيائك التي تحتاجها.

قال بحزم:

- هذا أمر اتفقنا عليه. أقضي بعض الوقت عندك ثم تعيدينني إلى مسكني، أليس هذا ما اتفقنا عليه؟

بلغت الدوار الثالث ثم انعطفت باتجاه رأس العين ثم ما لبثت وأن أخذت يمينها في إحد المداخل الفرعية المغلقة وأوقفت سيارتها أمام مبنى متقشف لا يتفق في مظهره مع مظهر دلال الارستقراطي.

ترجلا من السيارة واتجها نحو البناء، غير أنها لم تقصد الباب الذي بدا له أنه باب المسكن، بل اتجهت يميناً وحدرت درجاً يؤدي إلى ممر يلتف حول البناء. يقع باب المسكن في منتصف واجهة البناء المطل على الممر. فتحت الباب وأفسحت له المجال للدخول. وجد نفسه داخل صالة تتوزع على جنباتها مقاعد جللت جميعها بدثار أبيض يبعث الرعشة في الجسد. كانت دلال بقوامها الممشوق المنتصب ومعطفها الأسود وسط ذلك البياض مصدر الدفء وسبب الحياة في هذا المكان المهمل المتجرد من كل ما يمت للحياة بصلة. سارعت إلى رفع الأدثرة متعللة بعدم احتياجهم للصالة هذه الأيام ثم دعته للجلوس. اختار مقعداً في صدر الصالة، يتيح له أن يتابع من خلال النافذة المواجهة مظاهر العاصفة. وجلس.

وفيما استأذنته دلال لتدخل غرفة أمها، راح يتأمل محتويات الصالة. في الوسط منضدة كبيرة يحيط بها ثلاث مناضد أصغر وفي إحدى الزوايا آلة خياطة ولا شيء آخر. أخذ يفرك يديه ليستمد من احتكاكهما بعض الدفء. عادت دلال وقالت إنَّ أمها ما تزال على قيد الحياة وإذ لاحظت احتياجه للدفء أحضرت مدفأة غاز وأشعلتها ووضعتها أمامه ثم جلست إلى جانبه وقالت:

- هنا الصالة وهي لا تستعمل كما ترى، فليس لنا أقارب أو أصدقاء يزوروننا وصديق العائلة الوحيد الدكتور الذي يتابع حالة أمي، يجلس في الغرفة حيث ترقد. إنه يعرف تاريخ العائلة ولا يزعجه أن يجلس هناك. وهذا باب المطبخ وإلى جانبه غرفة صغيرة قد تصلح مكاناً تقيم به إذا اضطررت لذلك وفي المقابل لهما الحمام. ومن هذا المعبر إلى يمينك ممر يفضي إلى غرفتي نوم، واحدة كبيرة التي ترقد بها أمي واخرى خصصت لعمتي.

هز رأسه وكأنه استوعب خارطة المنزل دون أن يظهر استحساناً أو استياء. سألت:

- أتتناول قهوة أم شاي؟

أجاب :

- أرجوك لا ضرورة إلى ذلك.

قالت:

- شاي أفضل. يبدو أنك تحب الشاي؟

ثم نهضت وذهبت إلى المطبخ. وفيما كان يشعر بالرثاء لرق الحال المباغت، برزت امرأة مديدة القامة، عجفاء، نحيلة، ووقفت تتأمله بعينين قاسيتين بعثتا فيه رهبة وضيقاً. اكتفت بكلمة تحية تخلو من الود وجلست قبالته وتابعت التحديق به. حاول أن يتجاهل تحديقها به بالنظر إلى بلاط الغرفة، غير أنه في قرارة نفسه كان يعرف أنها ما زالت تحدق به، حيث أنه شعر بالندم الشديد لأنه طاوع دلال ورافقها إلى منزلها حيث وقع تحت سياط نظرات هذه المرأة القاسية. لقد استغرب من دلال وهي التي جاءت بأبهى مظهر كيف تجرَّأت على كشف واقع حياتها بدون رتوش. قرر أن يشرب الشاي ويستأذن في العودة إلى مسكنه فليس ثمة ما يفعله هنا.

عادت دلال بصينية مستديرة وضعت عليها إبريق شاي معدنياً وكوبين ووعاء سكر. وضعت الصينية فوق المنضدة الكبيرة ثم حملت واحدة صغيرة ووضعتها قربه وسألته كيف يفضل السكر. أجاب وهو يشعر بالضيق:

- القليل منه.

أحضرت له كوب الشاي وفق طلبه وواحداً لها وتجاهلت وجود العمة. شرعا في احتساء الشاي وهما مغرقان في صمت مجحف ثم انطلقت منها ضحكة صغيرة أثارت ريبته واستغرابه.

قالت:

- تذكرت الملازم في مركز الشرطة وكيف صدق حكايتنا.

هز رأسه مؤيداً.

تابعت:

- تلك المقاهي. ما أشد قذارتها. كيف ينحدر الناس إلى هذا الدرك. إنهم جرذان يعيشون في جحر كريه.

رد عليها:

- إنني أكتشف كل يوم أنني ما عرفت من عمان سوى مظهرها وما عرفت البشر وكيف يعيشون إلا منذ وقت قصير. تصوري الشارع الذي أعيش فيه يعتبر مكاناً للذة المحرمة، حيث تعيش عدة أسر في أوكارها الخفية على تقديم المتع الجسدية مقابل المال. لقد نبّهني البقال إلى هذه الظاهرة، حين لاحظت امرأة تدخل حانية الرأس تأخذ حاجتها وتخرج حانية الرأس. وها أنا أدخل مقاهي وأرى مخلوقات شوهاء.

علقت:

- ومع ذلك فإنك تظل أسير الحديث عن الفوارق الطبقية. وهؤلاء لا يكترثون.

أجاب:

- غير أن سبب حياتهم على هذا النحو المبتذل هو الفوارق الطبقية.

كانت العمة لا تكترث بحديثهما ولكنها تتابع التحديق في جلال الذي كان يتجنب النظر إليها. التفتت إليها دلال وقالت:

-عمتي. أذهبي واجلسي قرب أمي. إنك تزعجين جلال.

استغرب منها كيف تخاطب عمتها بدون احترام ولاحظ أنها نهضت فعلاً وانسحبت دون أن تتفوه بكلمة واحدة. قال لنفسه، "هذا أيضاً يحدث في عمان. أي قسوة وفظاظة يتعامل الناس فيها في ما بينهم"؟

حين خلت الغرفة منها قالت دلال:

- لقد ازعجتك دون شك. انس أمرها، ستدخل غرفتها بعد قليل وتغلق الباب على نفسها.

ما رغب في التعليق فقد آذاه سلوك دلال معها كما آذته هي بتحديقها المستمر به.

تابعت:

- هي امرأة حقود. حقدت على أبي وعلى أمي وعلى الناس جميعاً لأنها لم تحظ بزوج. لم تفعل شيئاً طيباً في حياتها. والآن اكتشفت فجأة أهمية حياة أمي، إذ إنها لا تعرف بعد وفاتها ماذا يمكن أن أفعل بها. ربما أرسلها إلى مأوى للعجزة. إنها تعرف ذلك ولهذا تراها تقضي الساعات في غرفة أمي، تتمنى أن تعود الحياة إليها. ألا تريد رؤية أمي؟ أمي الإنسانة الوحيدة التي أحببت في حياتي.

أجاب:

- لم لا.

قالت:

- هيا بنا.

نهضا ورافقته إلى الغرفة حيث ترقد الأم على سرير عريض، ذي فخامة واضحة. قدمت له مقعداً ودعته للجلوس وجلست على طرف السرير، والعمة تجلس على المقعد الآخر الوحيد. كان الجو مكرباً في الغرفة فثمة امرأة يسري الموت في جسدها وامرأة أخرى قاسية العينين عادت لتلاحقه بعينيها. اتجهت دلال بكليتها صوب أمها ودخلت في غياب كامل بائس وبدت له كتمثال شديد الشبه بالإنسان. غير أن لاحياة فيه.

نهضت العمة وغادرت الغرفة مع أن أحداً ما طلب منها ذلك. راح يوزع نظره في الغرفة، لأن ما من شيء آخر يمكن فعله الآن. على مخدة عند رأس السرير لاحظ وجود حمالة صدر وقميص نوم شفيف، ما اكترثت دلال برفعهما. وإنه استاء من مثل هذا الإهمال الذي لا يدلل على حسن التصرف. وإلى جانبه أيضاً منضدة صغيرة وضع عليها هاتف. وفي زاوية الغرفة مشجب علقت عليه بعض قطع ملابس دلال وفي مواجهة السرير، خزانة من ذات النسق والفخامة، لقد وجد في السرير والخزانة تذكاراً بعظمة بائدة مندثرة، بزخرف باذخ انتهى مجده ولا يتفق بأية حال مع هذا المنزل المهمل والذي يبدو كأنه يجمع ما لا يمكن جمعه. ولقد ذكره ذلك أيضاً بالمصاغ الجميل الذي يزين معصم وأصابع دلال وأذنيها. وبمعطفها الذي نسج وحده في خياله صورة لها أظهرتها كأنها تنتمي إلى عالم آخر.

إنها مثل كل أميرة فقدت عرشها وحشداً هائلاً من الخدم، تحتاج إلى من يمدها بذكرى عظمتها الغابرة إنها تحتاج إلى حارس، يظل إلى جانبها ورهن إشارتها، وإلى حارس ليس له شأن آخر سوى حراستها. إن هذا ضرب من العبث والزيف وخداع النفس، فقد ذهبت تلك

العظمة إلى غير رجعة ولم يتبق من عرش الأميرة سوى السرير ومن نفائسها سوى مصاغ تحمله معها أينما ذهبت. فماذا يكون دوره الآن؟ سوى دور ذلك الحارس. وماذا يفعل سوى خداعها وإشعارها بأنها الأميرة التي لا زالت تملك العظمة والسطوة فالتفت إليها حينئذ متبرماً بهذا الدور الذي فرض عليه وقال:

- أشعر أن لا ضرورة لوجودي هنا، فليس لي نفع، أرجو أن تأذني لي بالعودة إلى مسكني.

بهتت وكأنها ما توقعت منه هذا الكلام، ما توقعت من حارسها أن يتخلى عنها في وضع مؤلم كهذا. قالت:

- أتنصرف وتتركني؟ أيرضيك ذلك؟

اذهب إذا شئت. فلن أمنعك. الساعة لم تبلغ السابعة والنصف بعد وأنت تريد تركي منذ الآن. أما عدت تحتمل وجودي معك؟ الوقت مبكر. بوسعك أن تبقى بعض الوقت. ولكن إذا شئت اذهب فأنا على استعداد لإعادتك فوراً.

تلبث مشتت الخاطر، محبطاً وعاجزاً عن الدفاع عن حقه في الخروج ومغادرة هذا المكان الذي ليس هو إلا مسرحاً للموت والعواطف القاسية والنوازع المبهمة وليس إلا الشاهد على انهيار أسرة ودمارها، أنَّ كل ما يحيط به من خراب كامل، دمار للروح. فأي اسوداد اعتراه هنا وأي كرب داخله. ورغم ذلك فقد وجد أنه فقد قراره الخاص وشلت إرادته وأصبح في عداد من حكم عليهم بملازمة هذا المكان الأكثر بؤساً بين كل الأمكنة التي مر بها والذي يؤدي بالنفس لأن ترى بالموت وحده سبيلاً إلى الخلاص. وهو لا يريد الموت، لا يريد أن تهيمن عليه فكرة الموت. إن جسده اليافع يرفض الاستكانة إلى مشاعر سالبة مثل هذه. وإنه ليشغف بالحياة ويود أن ينهل منها بقدر ما يستطيع. إن العاصفة الآن لتأخذ مظهراً آخر غير الذي أخذته من قبل وتتبدى له في إيحاء مختلف، إنها ما عادت كارثة، بل نداء حاد لرفض الموت وإطلاق طاقة الحياة على مداها الأوسع. لهذا فإن ما يتوجب عليه الآن هو أن يشيح عن دلال وأن يتخلص من سحرها ويفك قيده ثم يهرب طالباً النجاة، لأنه ما أن ينظر إليها حتى يدرك أنه لا يملك الفرار منها. أنها الأميرة التي فقدت إمارتها وتحطم كل ما يحيط بها. وهي تحتاجه الآن، فتقبل حينئذ فكرة أن يبقى ويتريث قليلاً.

أدركت أنه باق، فقالت:

- ربما تشعر بصداع وبعض التعب سأعطيك حبتي "بندول".

نهضت لتأتي بهما وتركته وحيداً للحظة قصيرة من الزمن.

حين صار وحيداً الآن اكتشف هزيمته وأنه خسر المعركة وأنه لن يجرؤ على مبارحة هذا المكان حتى يؤذن له. ومثل سجين يجد نفسه بحاجة إلى ممارسة نشاط جسدي في الحيز القليل الممنوح له، نهض وفرد ذراعيه ثم ضمهما. ولأن الغرفة كانت شديدة الدفء رغم برودة الموت الزاحف ببطء، فقد نزع سترته وعلقها على المشجب فوق ملابس دلال وعاد ثم ألقى في طريقه نظرة إلى الجسد الذي نضبت منه الحياة، فما بعث فيه أية مشاعر خاصة، لاحزناً ولا خوفاً من الموت، فبالنسبة له فإن الموت بعيد عنه. إنه لا يراه ولا يعترف بقدومه.

جاءته بحبتي بندول وأعطته كأس ماء ووضعت راحة يدها على جبينه، فأحس بدفء وحنان ملمسها، فقال:

– شكراً. ليس لدي حرارة. إنني في أحسن حال.

ظلت تحدق به بادية القلق. شديدة الحنو ثم ابتعدت ونزعت معطفها وعلقته على المشجب فظهرت محاسن ومفاتن جسدها البديع الصقل. كانت ترتدي ثوباً قصيراً بعض الشيء، فاتح الحمرة بثلاث زهرت سود فوق الصدر فتحة عند الصدر تدعو إلى الالتفات إلى ذلك الصدر الناهد الناضج. إن هذا الجمال الذي يقارب الإعجاز في قوة كماله، يثير مرة أخرى في نفسه ذلك الأحساس المبئس، إن مكان دلال ليس هنا وليس وسط هذا الخراب ليس إلى جانب الموت. إنها تمثل الحياة في أفضل وأروع تجلياتها.

نزعت فردتي حذائها وجلست على طرف السرير ثم ثنت ركبتيها فوق السرير، فانحسر الرداء أكثر ليكشف فخذيها ولأنها ما أدركت أثر ذلك كله على جلال ما اخذت بعين الاعتبار تأثيره عليه، ظلت على جلستها تلك، كاشفة عن مفاتن الجسد الذي لا تنكشف عادة إلا في وضع شديد الخصوصية كهذا. ولها عذر في أن تسهو عن ملاحظة ذلك.

غير أن الوضع صار أصعب من أن يحتمل حين رفعت ولسبب ما أدركه، يديها إلى أعلى وشبكت أصابع كفيها وأسندت رأسها بشبكة يديها. فاندفع صدرها وبرز نهداها من فتحة الصدر.

ولما طالت بها الجلسة على هذا الوضع المثير للغرائز والذي بدا له مبتذلاً وكأنها تجلس أمام مصور ليلتقط لها صورة مما تنشر في المجلات التي تروج للجنس، حتى لو ما قصدت ذلك، نهرها قائلاً:

- دلال انتبهي إلى طريقة جلوسك.

أنزلت يديها إلى ركبتيها وسألت بدهشة:

- ما بها؟

قال:

- تنقصها الحشمة واللياقة.

استغرب من نفسه كيف جرؤ على مخاطبتها بمثل هذه القسوة والفظاظة، غير أن كيله كان قد طفح وما عاد بوسعه أن يلغي أحاسيس ذكورته ورغبات جسده.

امتقع وجهها امتقاعاً شديداً، وبدل من أن تغض بصرها، لاحظ أن عينيها الخضراوين تحولتا إلى فصي ماس مشعين، ينفثان شرراً، ثم قالت بلهجة محذرة:

- ما كان لك ان تخاطبني هكذا. أنا ما فعلت شيئاً استحق عليه تأنيبك واتهامك لي بانعدام الحشمة واللياقة. إن عقلك المريض يرمي إلى شيء آخر. لقد حذرتك من قبل من شر ما قد أفعل بك؟ إنك لا تعرفني على حقيقتي بعد.

نهض مغضباً وقال:

- ما دام أنك تعدينني بإيقاع العقاب والأذى بي فخير لي أن أنتهي عند هذا الحد. سأخرج الآن.

صرخت به:

- أخرج الآن. أخرج ولا تعد. لا تنظر وراءك وإلا لحقت بك الكوارث وحلت عليك اللعنات. أخرج الآن. أنج بنفسك ولا تنظر خلفك.

غير أنه ما اتبع نصيحتها، فلقد التفت إلى الخلف بعد أن سار بضع خطوات نحو الباب ووجد أن تلك القوة القاسية الصلبة التي ظهرت في عينيها، قد انحلت الآن وذاب الفصان الماسيان وتخصبت عيناها وامتلأتا دمعاً ثم انخرطت في نحيب نازف يجتاح الفرائض، فما جرؤ على متابعة خطاه وتلبث في مكانه ثم وجد نفسه يعود إلى مقعده مرة ثانية.

فرفعت رأسها وقالت:

- لقد عدت إذاً؟ أما قلت لك أن لا تنظر خلفه؟... ألم أحذرك؟

ما وجد لديه تعليقاً. حنى رأسه وفكر.

"ها أنت يا جلال لا تحسن التصرف مرة أخرى. ها أنت يا جلال تقلب المائدة على رأس

جليسك. دون منحه فرصةواحدة للدفاع عن نفسه. إنك المفسد دائماً لكل اللحظات، وأنت وحدك الآثم ولا آثم آخر غير ما لديك. إنك المترفع المتجاهل لأدنى الحاجات الانسانية وأنك الحاكم الظالم الذي يصدر حكمه بمصادرة كل الرغبات الإنسانية وتحتفظ برغبتك أنت في داخلك وكأنك ليس من هذا العالم.

ولماذا عدت الآن إذا كانت غاية ما تتمناه الهرب والعودة إلى منزلك؟ لقد عدت لهذا السبب وليس لأنك أشفقت عليها. لقد أخطأت بحقها دون شك ولكن لم يكن ذلك هو السبب في عودتك. أنه ذلك المخزون من الرغبات المكتومة، فاتعظ الآن وأهدأ واسلك السلوك الذي يليق بك".

في تلك اللحظة المركبة تركيباً بالغ التعقيد، دخلت العمة بسرعة وألقت على الاثنين نظرة حاقدة، كأن هاتفاً خفياً دعاها لدخول الغرفة الآن. أو أن ارتفاع الأصوات دفعها للمجيء. ثم ما وجدت مسوغاً لدخولها الغرفة إلا بالتوجه نحو جسد الأم. في الوقت نفسه التفتت دلال وأدركت ربَّما بوصل الرحم الذي صعب فصمه، أن أمها ماتت، فصرخت أمي.. أمي... ثم ارتمت على السرير.

قال كلاماً ما سمعته أي منهما:

- الرحمة لها.

وخرج من الغرفة.

كان عليه وقد امتلك حريته الآن أن يغادر المكان من فوره ويمضي في سبيله إلى ملاذه الآمن، ناجياً بنفسه من هذا الكابوس المبهم، نائياً عن لحظات الجنون وهوس الشبق والوعيد بإيقاع الأذى به. غير أنه تلكأ تلكؤاً سيحمل الندم إليه طوال حياته، فقد فكر أن مصاب الموت أكبر جللاً من أن يدع للمشاحنات مهما بلغت من سوء أن تصرفه عن واجب العزاء الكريم، فليس هو أولاً وآخراً إلا من بلدة يتناسى الناس فيها أحقادهم عند الموت ويشاركون أهل الميت العزاء، أفضل وأكرم مشاركة، وهو لن يهرب الآن، لن يغادر مباشرة، سينتظر قليلاً إلى أن تهدأ، فيعزيها بوفاة والدتها ثم ينصرف كريم النفس، لا انصراف الهارب الممجوج.

شعر بحاجة ملحة إلى دخول الحمام الذي عرف مكانه، فدخل إلى الحمام وأضاءه وقضى

حاجته، ثم غسل يديه، وحانت منه التفاتة إلى حوض الاستحمام فرأى ما أثار اشمئزازه، فلقد كانت السراويل ملقاة بإهمال في كل مكان. هذا الإهمال يثير النفور ويكشف عن عيب في سلوكها ويشير إلى تناقض حاد في شخصيتها، ففي حين أنها على هذا القدر من الإهمال وقلة الاحتراز وتقبل القبح، تخفي عيوبها داخل معطفها الوثير السابغ وأنفتها المبالغ فيها التي لا تلبث وأن تتحول إلى حالة انكسار مذل. لقد فقدت بنظره مرة واحدة ذلك الجلال، ورأى في جمالها خداعاً للبصر ليس إلا. خرج من الحمام فإذا به يلتقي وجهاً بوجه دلال التي دخلت الصالة. قالت وكأن شيئاً سيئاً ما دار بينهما، وكأن الأمور بينهما على أفضل حال والوئام متصل لم يخل به عارض.

قالت:

- شكرا لأنك لم تذهب، كنت على ثقة بأنك لن تتركني.

كانت وادعة، جمة الهدوء، لا تظهر هذا الجزء الذي كانت عليه قبل حين، فثمة في ملامحها ما هو أكبر من الحزن وما هو مختلف عن القنوط، وكأنها انتزعت من داخلها كل مشاعر الألم وتفوقت على عاطفة الحزن وجاءت لتتيقن من وجوده.

لقد تضافرت الأنفة التي تميز ملامحها مع مشاعر الألم الدفينة فاكسبتها هيئة فريدة عصية على الإدراك. إذ بدت واحدة من نساء الأغريق اللواتي ينتظرن بصبر وعناد وكبر لا مثيل له عودة رجالهن من معارك ضارية، تجري في ساحات بعيدة، فلا يستأنفن الحياة إلا بعودتهم مظفرين أو مقتولين. وكأنّما كان هو الرجل بعينه الذي أرادت أن تتيقن من وجوده.

لم يشأ أن يخدش هذا الهدوء الرصين، فسار بهدوء وخفة إلى منتصف الصالة ووقف هناك، مبدياً قدراً كبيراً من الاتزان والاحترام، غير أنها قالت بهدوء فيه من الحكمة الموشاة بالحزن أكثر مما فيه من الانحدار البائس أمام قوة الموت:

- انقضى أجلها.

خفض رأسه وقال:

- الرحمة لها، ولك طول البقاء. لا أعرف ماذا أقول غير ذلك. لا أملك الكلمات التي تعبر عن مشاركتي لك في همك، غير أنك كنت تتوقعين مجيء الموت في أية لحظة. تجملي بالصبر.

قالت بكثير من الرقة والكياسة:

- هل ستبقى واقفاً، اجلس وأرح جسدك. لقد عانيت هذه الليلة أكثر ما تستطيع احتماله.

جلس وخفض رأسه وجلست هي الأخرى وخفضت رأسها أيضاً، فالموت سيد الموقف الآن والمهيمن على العواطف والأفكار.

استغرب من نفسه تبدلات طبائعه على نحو لم يألفه في نفسه من قبل، فقد كان شديد الثقة بنفسه إلى حد الإفراط، يستجيب للحظة غضبه بعاطفة مندفعة لا تترك مجالاً للتروي وقد لا يكشتف أنه أسرف في الغضب، وإن الحق ما كان إلى جانبه تماماً إلا بعد ساعات أو أيام، فيضطرآنذاك إلى الاعتذار عن لحظة انفعاله وما صاحبها من الفاظ ما كان ليتفوه بها لولا لحظة الانفعال. أما الآن فإنه يغضب ويهدأ في لحظات، يعزم على الخروج ثم يعدل بعد لحظات. أكان جلال الحدث أكبر تأثيراً عليه من لحظة انفعاله؟ أم أنّه تأثير دلال في تبدلات عواطفها وانفعالاتها ؟إنها أيضاً تنفعل فلا تلبث وأن تهدأ هدوءاً أعمق من هدوئه وينفرج صدرها انفراجا أكبر مما يحدث لديه وتنقلب من حال إلى حال أسرع مما يعتقد أن البشر قادرون عليه.

رفع رأسه عدة مرات ونظر إليها، كانت ذاهلة عنه، منشغلة بهمها الخاص، مستغرقة بألم يفوق في شدته قلقه الراهن.

اضطره الصمت الطويل الثقيل إلى النهوض والخطو في الغرفة وتفقد رقة حاله في تأمل المقاعد الرخيصة وآلة الخياطة التي لا بد أن استعمالها يتجاوز احتياجات المنزل إلى استثمارها في إيجاد دخل مالي يضاف إلى دخل دلال. وتساءل من هي، تلك التي كانت تقوم بهذا الجهد المضني، أهي الأم أم العمة؟فإذا كانت هي العمة فلماذا هي هكذا صموتة، حاقدة ومذلة في الوقت نفسه؟ لابد أنها الأم. إنه يعتقد أنَّها الأقدر على تحمل الشدائد وهذا ما يفسر تعلق دلال بها. وثمة أمر آخر يؤيد ما توصل إليه، هو ذلك الإهمال غير الحميد الذي لاحظه في الحمام، إذا كانت دلال لا تجد الوقت الكافي للعناية بالمنزل فلماذا لا تقوم العمة بهذه المهمة التي لا تكلفها شيئاً؟

اقترب من دلال بعد أن ضاق بالصمت وألح عليها السؤال، اقترب منها كثيراً، فما شعرت به

ولا أولت اقترابه منها أية أهمية، فنطق باسمها مرة ثم أعاد الكرة. التفتت إليه ورأى في وجهها الجميل تعبيراً ما أمكن له رصده، كانت كمن تحولت إلى قطعة مرمر، لا تبصر ولا تسمع ولا تتكلم. وضع يده على كتفها. فلم تزعجها تلك الحركة أو تؤثر بها. ابتعد عنها ثم عاد وربت على كتفها وقال:

- دلال انتبهي. إن الوقت يمضي بلا طائل.

التفتت إليه مرة أخرى وظهر له وكأن الحياة دبت في ذلك المرمر من جديد ولاحظ في عينيها تساؤلاً.

تابع:

- ثمة ما يجب أن نفعله. لا يمكن ترك جثمان أمك هكذا. لا بد من فعل شيء هو من الضرورة بحيث يتطلب منك قليلاً من الصحو.

سألت:

- مثل ماذا؟

أجاب على الفور:

-استدعي طبيب العائلة. لا بد أن يعطي شهادة بوفاتها.

اتسعت عيناها دهشة وسألت:

- أهذا ضروري؟

هز رأسه وأجاب:

- إنه ضروري للموافقة على الدفن. ألا تريدين أن توارى أمك التراب غداً؟ هل ستتركينها على حالها؟

قالت:

- إنك تفكر عني. شكراً لك.

قال وقد سره أنها استجابت:

- انهضي إذاً وهاتفي الطبيب ثم عليك الاتصال بالأقارب.

انتفضت فجأة وقالت محتدة:

- من قال لك أن هذا ضروري أيضاً؟ من أوحى لك بهذه الفكرة؟

امتقع وجهه وما عرف أين الخطأ فيما قال.

أجاب بصوت متعثر:

- هذا ما يحدث عادة. أليس كذلك؟

ردت عليه:

– وهل تجد في سلوكي ما يحدث عادة؟ ألم تجد فيّ من غرابة الأطوار والنزوع إلى الاستقلال ما يغنيني عن الأقارب. ألم أقل لك إنّنا لا نستعمل الصالة لأن لا أحد يزورنا.

رد في اعتذار الغافل العاجزعن الملاحظة:

– كنت أحاول المساعدة فقط.

نهضت منفعلة وابتعدت عنه ثم التفتت إليه وقالت:

– لا أريد عوناً من أحد. حتى منك أنت. بإمكانك العودة إلى منزلك مرتاح الضمير. أعرف لماذا تريد الأقارب. تريدهم حتى يعفوك من ملازمتي، حتى تجد سبباً للانسلال والعودة إلى منزلك. عد إذا رغبت. لن أحتاج إليك.

ثم تهاوت على أقرب مقعد واجهشت في البكاء.

قال:

– ربما أكون قد أخطأت، غير أنني ما قصدت ذلك. لقد فهمتني خطأ. لن أتركك وحيدة ولن أعود إلى منزلي. كنت أحاول المساعدة فقط وكان بإمكانك أن ترفضي اقتراحي وحسب.

قالت:

– إذا كنت تريد مساعدتي ابق إلى جانبي فقط.

رد:

– قطعاً سأبقى.

قالت:

– لو كنت أريد أحداً منهم لما لجأت إليك.

أدرك آنذاك فداحة المهمة التي رتبت لتكليفه بها، فالأمر يتعدى جهلها بانتقال أخيها من المسكن وسؤالها المبرأ من كل قصد عنه، ويتعدى دعوتها له للإقامة في منزلها تعويضاً عن فقدان منزله. إنها خطة محكمة للاستيلاء عليه وإجباره على ملازمتها. تساءل عندئذ بقولة، لماذا هو بالذات؟ لماذا وقع عليه الاختيار؟ أكان ذلك أمراً محتماً منذ أن أخطأ وأخذ مكان أخيها وحل فيه ؟ أم أنه قرار طارئ أوحت به استجاباته التلقائية لطلباتها وإذعانه لأوامرها. قال لنفسه سأصل إلى هذا من دون شك. لا بد أن أصل إلى هذا السر، ثمة وقت، ثمة وقت طويل. الوقت كفيل بكشف كل الأسرار. قال:

– اتصلي بطبيب العائلة على الأقل أو غيره من الأطباء، فهذا أمر لا يمكن استبعاده.

نهضت. وكالسائرة في نومها، منتصبة القامة، مضت وئيدة الخطو نحو الهاتف.

سره أن يترك وحيداً الآن، فقد عادت الأسئلة تلح عليه وفكر في أن يجمع التفاصيل، تفاصيل ما فعلت وما قالت. غير أن العمة ما تركته يرتاح، فقد جاءت إلى الصالة وجلست وأخذت تحدق به. وصار همه الآن أن يهرب من نظراتها. فكر أن يخاطبها على سبيل المجاملة. قال:

- البقية في حياتك.

ردت بجفاء.

- كلنا إلى هذا المصير.

بترت إجابتها تلك كل محاولة لإيجاد صلة معها، لإجراء حوار يريحه من عناء صمتها وتحديقها به. جلس وأشاح عنها في انتظار غير صبور لعودة دلال التي أخذت وقتاً أطول مما ينبغي.

تساءل حين عادت:

- أكل هذا الوقت في محادثة الطبيب؟

ردت عليه بعتاب مماثل:

- إنه أكثر من طبيب. إنه طبيب العائلة وصديق أيضاً.

نطق بدهشة ودون إرادة:

- صديق؟

قالت:

- نعم صديق.

عاد السؤال يلح عليه ثانية. لماذا أنا إذاً؟ لماذا؟طالما أن الطبيب صديقها؟

سأل سؤالاً يحمل كل شكوكه:

- لماذا لم تستغيثي به من قبل؟

أجابت باقتضاب:

- هذا أمر يخصني وحدي.

أغضبه جوابها وأراد أن يفجر في تلك اللحظة كل ما خامره من شكوك، غير أن العمة كانت تجلس هنا وكأنما تقف له بالمرصاد. كانت العثرة في وجه محاولته الثورة على هذا الوضع وإجبارها على كشف سرها. فالتفت إليها بغضب، كأنه يقول ماذا تفعلين اتركينا وحدنا. لقد آذتها نظرته فبادلته نظرة الحنق بمثلها ثم نهضت وانسلت من الغرفة.

علق:

- هذا أفضل.

سألت:

- ماذا قلت؟

قال:

- هذا أفضل. لأنها أخلت لي الساحة، لأن لدي ما أحدثك به. لأن لدي أسئلة تبحث عن إجابات صريحة.

ردت عليه وكأنها لا تخشى تلك الأسئلة:

- لا وقت الآن.

قال محتداً:

- لماذا لا وقت الآن. الآن أريد أن أقول لك ما يجول بخاطري.

كررت:

- لا وقت الآن. لأن الدكتور أحمد سيكون في طريقه الآن. ربما يصل قبل أن تطرح سؤالاً واحداً.

سال:

- كيف بربك تعرفين. أم أنك تتحكمين به أيضاً؟

أجابت:

- أن مسكنه قريب جداً من هنا. لا يحتاج إلى أكثر من خمس دقائق. إنه جاهز ومستعد للخروج. كان يشارك ابنته مشاهدة التلفاز وعلى وشك الخروج.

ما أن انتهت من كلامها، حتى سمعا طرقاً على الباب، نهضت بتثاقل ومضت نحو الباب وقالت له في طريقها:

- أما قلت لك.

فتحت الباب، فاندفع الهواء البارد وأمكن سماع صوت الريح العاصفة في أشد أوراها الآن.

اندفع الطبيب بسرعة إلى الداخل وقال:

- اللعنة، ما مرت عليّ عاصفة أسوأ من هذه.

ثم ألقى تحية بالغة التهذيب على جلال واقترب منه وصافحه ثم اعتذر منه وعبر مسرعاً

إلى الداخل.

بدا الدكتور أحمد في عيني جلال رجلاً جهماً، مديد القامة، عريض المنكبين، غير أنه بالغ التهذيب. واستغرب أنه ما دهش لرؤيته هنا وهو الذي على دراية كاملة تامة بأوضاع العائلة. لقد أدرك من دون شك أن دلال أخبرته عنه وأعلمته بوجوده.

غاب دقائق قليلة ثم عاد. وبدا متأثراً. جلس بهدوء وصمت لحظة ثم وجه كلامه لدلال:

- يجب أن أرسل لك سيارة لنقل جثمان أمك إلى غرفة الموتى في مستشفى البشير.

دمعت عيناها وقالت:

- ألا يمكن إرجاء ذلك.

حدق فيها ثم أجاب:

- إلى متى ستحتفظين بها؟ألا تدركين؟لقد ماتت ولا يمكن ترك جثمانها هنا. دلال أنت لست طفلة، لقد انتهى الأمر وهذا قضاء الله. يجب أن تتقبلي هذه الحقيقة.

تساءلت بصوت غلبه الحزن:

- ألا يمكن تأجيل نقلها ساعتين، إنها أمي، شريكة عذابي ووحدتي، أعطني وقتاً حتى أمرن نفسي على قبول الحقيقة.

خفض رأسه وبعد صمت خيم على الجميع رفعه وقال:

- اسمعي أني لا استطيع البقاء الآن. إنني مدعو إلى العشاء سأعود بعد حوالي ساعتين وسأتصرف آنذاك. كوني عاقلة. ثم توجه إلى جلال وخاطبه كأنه لا يجهله:

- اعتن بها من فضلك. أنت شاب طيب. تحمل منها نزواتها أقول ذلك في حضرتها، لأنني أعرفها جيداً.

ما نبست بكلمة واحدة رداً على ما قال:

نهض الدكتور أحمد ومد يده ليصافح جلال الذي نهض مودعاً وضم دلال إليه بعد أن نهضت أيضاً وربت على كتفها ثم تركها وقال وهو يتجه نحو الباب:

- ما أشد لعنة هذه الليلة. كأن الشياطين أنطلقت من عقالها، أراكما على خير. سوف أعود.

تابعه جلال بنظره إلى أن خرج وأغلق الباب. علق قائلاً:

- إنه يبعث على الراحة.

ما أدلت دلال برأيها، غير أنها قالت بعد صمت:

- إطرح ما شئت من الأسئلة الآن.

وجد نفسه غير راغب في مفاتحة قد تفضي بهما معاً إلى شجار، وبدلاً من إزعاجها بطرح شكوكه ود لو تحدثه قليلاً عن الدكتور أحمد، غير أنها أعادت السؤال.

فكر قليلاً وابحث عن صيغة ملطفة تفي بالغرض ولا تتهم. قال:

- تساءلت، كيف خطر ببالك أن تثقي بي وتجدين بي شخصاً موائماً لمرافقتك والإقامة في منزلك، مع أنك ما عرفتني من قبل؟

قالت:

- اصغ إلي جيداً الآن. سأفض الليلة كل ما في صدري. لن أكذب أو أخادع، سوف أقول لك الحقيقة مهما بلغت من القسوة. وربما تلعنني بعد ذلك وتخرج من هنا طالباً النجاة. لن أغضب آنذاك ولن أتوسل إليك كي تبقى.

لقد شدت انتباهه. فانجذب إليها مستنفراً. تابعت:

- ما كان وجهك غريباً وما كانت سيرتك بخفية. كنت أمر بالشارع في طريقي إلى المنزل. وقد رأيتك أحياناً تخرج أو تدخل إلى المنزل. لقد نفرت من مرآك لأنني اعتقدت أنك من أصدقاء خالد وعلى شاكلته ولهذا تشاركه السكن. وفي إحدى المرات توقفت عند البقال لشراء علبة تبغ مارلبورو. إنه يخالف القانون أيضاً ويبيع التبغ المهرب ولكنه رجل فاضل فيما عدا هذا. سألته عنك وأنا على ثقة بأن لديه الجواب، فهو لا يهمل صغيرة أو كبيرة. إنه مؤتمن أسرار الحي. وقتها قال لي إنه يعتقد أنك جديد على الحي وأنك سكنت مكان خالد. لقد أشاد بك كثيراً. لن تعرف أبداً أي وقع حسن تركته في نفسه. قال لي: "شخص من هذا القبيل، ينبغي ان لا يسكن هنا في هذا الحي. وفي مسكن يملكه أبو هويمل". ما اكترثت في حينه، فما كانت لي حاجة بخالد وما كان ثمة ما يدعوني للاهتمام بشأنك أكثر.

وفي هذا المساء ضاق بي الحال وأنا لا عمل لي إلا مراقبة أمي في غيبوبتها وبدأت أفقد صوابي، فصرخت بعمتي وطلبت منها أن تترك الغرفة فلم أعد أطيف رؤيتها ثم أمسكت الهاتف واتصلت بالدكتور أحمد وسألته برجاء أن يقول لي إلى متى ستبقى والدتي على هذه الحال، فأجاب بأنه لا يعرف فقد طالت غيبوبتها ويرجح أنها ستموت في أية لحظة. وطلب إلي أن اتصل به إذا حدث شيء. أغلقت الهاتف مستاءة. فها هو صديق العائلة والشخص الذي أولاني من الاهتمام أكثرمن أي شخص أخر، الشخص الذي أشعرني أنه يهتم بي شخصياً،

وتبعث زيارته لي براحة النفس، يجيبني بقليل من المبالاة. نظرت إلى وجه أمي وقلت أنها ستموت الليلة. ستموت وأنا وحدي لا شريك لي في همي. وآنذاك خطر خالد ببالي. قلت أمسكه من أذنه وآت به إلى المنزل. هو الآخر ابنها وقد أخذ منها الكثير. أترى آلة الخياطة هذه، أتعرف لماذا هي هنا؟كانت أمي تخيط ملابس للنساء مقابل أجر، حتى إذا ما جاء خالد وطلب نقوداً وجدت لديها ما تعطيه، كنت أعرف أنه يأتي إلى المنزل في غيابي وعندما أواجه أمي بهذه الحقيقة وأعاتبها، تقول: "لا تنسي أنه ابني"، فأصرخ محتدة وأقول لا إنه ابن زوجك الذي ما ترك لك سوى العذاب. لقد انقطع منذ مدة عن المجيء إلى المنزل وما عرفت أنه في السجن إلا هذه الليلة. قلت لنفسي، سآتي به مهما كلفني الأمر من جهد فلقد طفح كيلي. لقد انتابتني حالة هستيرية، فصرت أصرخ، أطلق صرخات مدوية ثم أخذت مسدس خالد، كنت قد سرقته منه قبل وقت طويل وأخفيته، وضعت المسدس في حقيبتي.

وقفت فجأة وأسرعت إلى غرفة النوم وعادت بالحقيبة وأخرجت منها المسدس.

– حملت معي هذا المسدس وقلت سأقتل الليلة أحداً. أقتل أبا هويمل أو أقتل خالد ثم نفسي.

أصابه مرأى المسدس برعب، عقد لسانه وما جرؤ على الإضافة أو القول.

– أو تقتليني أنا.

– وحين دارت السيارة، تراخى عزمي واستعصت علي فكرة القتل، غير أن فكرة إحضار خالد استخوذت علي ووجدتني أفكر بك. فأنت وسيلتي لسؤال أبي هويمل عنه. أنت الوحيد المتوفر، فأنا لا أعرف أحداً يمكن أن يفعل ذلك سوى أبي فؤاد وهو يغلق بقالته يوم الجمعة.

أعادت المسدس إلى حقيبتها وصمتت قليلاً ثم تابعت:

– لا بد من قول الحقيقة مهما كان الثمن. سوف تحقد علي لأنني خدعتك وسوف تسأل لماذا لم أذهب إلى أبي هويمل بنفسي ولماذا استخدمتك أنت. كنت سأقتل أبا هويمل لو قابلته فهو بالنسبة لي مصدر كل الشرور ولكنني استبعدت فكرة القتل، فضلت أن استعين بك، وهنا خطر لي أن ألجأ إلى الخديعة، إذ كيف يمكن أن أقرع بابك وأقول لك هذا بدون مقدمات، من فضلك اخدمني واخرج من منزلك، وأسأل أبا هويمل إن كان يعرف أين ذهب أخي، دون أن يثير استياءك. كنت ستنظر إلى طلبي بعين الازدراء وتصرفني. ولذلك كان لا بد من ذريعة. أتذرع بها، كي أحملك على الانقياد لما خططت له.

صرخت به فجأة :

– ما بك تنظر إلي مكتوم النفس ولا تعلق على ما أقول؟أم تعتقد أنني أكذب عليك الآن، وما عدت تعرف متى أكذب ومتى أصدق؟أم أنك خفت من المسدس؟أرح بالك. ليس هذا أوانه ولن يوجه إليك. لقد أعدته إلى الحقيبة. انطق. قل شيئاً أيها الرجل. أنعتني بأي وصف سيء، فأنا لا أحتمل صمتك وهدوءك. كنت تنفعل لأي سبب من قبل، فماذا حل بك الآن؟

قابل غضبها بابتسامة رقيقة فما استثارته، فقد كاد يقترب من فهم الأحداث على هذا النحو وإن تشكك قليلا ، وها هي تفض السر من تلقاء نفسها ولا تحوجه إلى طرح أسئلة، كانت ستظهره غبياً مغلق الفهم لو طرحها. قال:

– اسمعي، أنت ما جئت بجديد، لأنك قد عبرت عن ذلك بطريقة أو بأخرى. قلت كلاماً أفصح عن غير قصد ولو بطريقة مقتضبة عما قلته الآن. لقد كونت فكرة عما حدا بك إلى فعل ذلك ولم أكن متأكداً تماماً. وها أنت تعلنين بكل صراحة أنك خططت لكل ذلك. شكراً لك، هذا لم يعد يغضبني الآن، فأريحي نفسك من هذا العناء.

قالت:

– أنت شخص غريب، أنت شخص نبيل، أنت لست من البشر، هذا الصفح والسماح لا يفيدك، لن يحميك من شر الناس، اتعظ يا رجل وعد إلى رشدك.

رد عليها:

– أنا راض عن نفسي ولن أتغير إلى الأسوأ بسبب هذه التجربة التي حملتني إليها أو اخترتها أنا لا فرق، إنني ما أن أظن بك السوء حتى اكتشف سوء ظني، أنت أكثر براءة نفس مني وأطهر.

قالت:

– أنت مخدوع، لقد خدعتك، لقد أوقعت بك بسحري.

وقفت فجأة وتشنج جسدها ومدت يدها باتجاه النافذة وأخذت عيناها تلتمعان لمعاناً غريباً، كأن روحاً غريبة متطيرة سكنتها الآن، وعاثت فيها فساداً فإذا بوجهها الجميل يفقد جماله فقد برزت عروق عنقها وظهرت أسنانها وقالت:

– أتسمع نواح الريح؟تلك الأرواح الشريرة المعذبة تطوف في الفضاء، تجري مع الريح، أية

أصوات هذه التي أسمع ؟إنها صرخات الشيطان الغاضبة وتتبعها صرخات الساحرات بنات الشيطان، إن قلبي لينفتح الآن لاستقبال نداءات الشر، فليتق شري الناس ويرتجوا رحمتي.

مذهولاً ومآخوداً بما رأى أخرج علبة تبغه واستل لفافة ثم أشعلها، التفتت بغتة إليه وقالت بحدة:

- أنا أحتاج لواحدة.

حمل علبة التبغ والقادحة واقترب منها، كانت في حالة انفعال خارج نطاق المألوف، كانت في حالة فقدان الرشد الكامل، أخذت اللفافة ثم أشعلتها ثم استكانت فجأة بالسرعة التي ثارت فيها ثائرتها، تراخت اليدان أولاً ثم الجسد وصفت العينان واستعادتا رونقهما. وكمثل ممثل أدى دوره الصعب، جلست على المقعد وأرخت جذعها وتابعت نفث دخان لفافتها، سألته:

- هل أتقنت دوري؟

التبس الأمر عليه، فما عرف بماذا يجيب، أكانت تمر في حالة من حالات الفزع والتطير، أم تؤدي دوراً مسرحياً صعباً ومتقناً إلى حد الإقناع. ظل يحدق بها مستغرباً دون أن يجيبها على سؤالها. كررت السؤال:

- ماذا تقول ؟هل أتقنت دوري؟

كانت جمة الهدوء آنذاك. لا تشي بأية غرابة أطوار.

أجاب بعد أن استقر رأيه إلى إنها أدت دوراً مسرحياً:

- أنت ممثلة بارعة، تعطين نفسك للدور بكليتك حتى أشكل عليّ الأمر.

قالت:

- إنني أحب المسرح، لقد لعبت دائماً أدواراً على خشبة مسرح المدرسة، إنني عادة أندمج في الدور الذي ألعبه فلا أعود أنا نفسي بل الشخصية التي أتقمصها. أطلق ضحكة من غير إرادة ولما نظرت إليه متسائلة، قال:

- الآن أدركت كيف تمكنت من إقناعي، أذكر الآن نظرتك إلي من علو وكأنني لا استحق منك شرف مخاطبتي، شاركته الضحك إلى أن جاءت العمة وأصلتهما بنار عينيها المتهمتين المؤنبتين، فهما في حضرة الموت الرهيب ولا ينبغي لهما أن يستهينا به إلى هذا الحد المسف دون احترام أو اعتبار لحرمته.

شعر جلال بحرج شديد وتوقف عن الضحك، أما دلال فقد تمادت في الضحك ثم انفجرت في بكاء مرير، فقد عاد الموت بقوة شكيمته ليذكرها بمصابها. انسحبت العمة من فورها وخفض جلال رأسه، آسفاً، متألماً وعاجزاً عن قول أو فعل شيء يوقف نزيف بكائها.

ومع أن موت أمها ما كان مفاجأة لها، إذ إنّها كانت تعرف أنها مصابة بسرطان الكبد وكانت تنتظر بقلق تلك اللحظة التي ستضطرها إلى هذا الفراق الصعب، إلا أنها جزعت حين حل الموت واستل منها الحياة.

كانت أمها ملاذاً طيباً وفر لها الراحة والأمان وجنبها الوحدة والذكريات السيئة وفصل بينها وبين عمتها التي صارت تكرهها بعد أن كانت لها في الماضي أفضل حام وخير مستمع، لقد كرهتها بسبب نضوب عاطفتها الآن وتدخلها الفظ من خلال نظارتها القاسية في شؤونها وإهمالها شأن المنزل واعتمادها الكامل على خدمات أمها حين كانت في صحة جيدة ولجوئها إلى الصمت في كل الأحوال والمناسبات ثم استمرارها على إهمال شأن المنزل حتى بعد مرض أمها. لقد كرهت وجودها غير النافع والثقيل على النفس.

كانت أمها لا تحوجها شيئاً، فهي التي كانت تعنى بالمنزل وتحيك لها الثياب الجميلة وتعد لها ماء الحمام الساخن ووجبات العشاء الشهية. وفيما بعد وهي ترقد على فراش الموت، كان يكفيها أن تجدها حية مفتحة العينين، ترنو إليها بحب وحنان حتى تذهب عنها الوحشة، كانت تقول: "مسكينة أنت كيف ستعيشين وحدك بعد موتي؟" لو أن أخاك يعود إلى رشده لاطمأن قلبي. ألم يعرض عليك الدكتور أحمد الزواج. إنه ليس مسناً ولن يجد أفضل منك. كفي عن مناكفته، أعطه فرصة.

كان لدخول العمة على ذلك النحو ونظرتها القاسية المؤنبة الأثر الحاسم فيما آل إليه الوضع، فقد دخلت دلال في طور من الألم والذهول انتزعها من الحاضر وأعادها إلى تلك الأوقات السابقة، حين كانت تتقاسم مع والدتها الأوضاع السيئة وصعوبات الحياة بعد انهيار الأسرة وتغير الأحوال. لقد تحسست على نحو فاجع الفراغ الناجم عن فقدان شريك كامل الشراكة ولهذا لم تول في غمرة هذا الحزن والذهول وجود جلال أية أهمية وذهلت عنه تماماً.

وتحسس جلال بدوره ثقل الموت، فرغم أن المرأة الميتة لا تمت له بصلة إلا ان الموت، موت أي

كائن، بحد ذاته كريه، ثقيل الوطأة يعم تأثيره على الجميع، إلا أن دخول العمة ترك فيه رهبة وأشعره أن الموت يستلزم امتثالاً وتأسياً أكبر عبر عنه الاثنان. ولقد حاول جاهداً أن يبقى نفسه في دائرة الموت لكي يبدو في وضع لا يجلب له الملامة، غير أن الوقت الذي أخذه في ذلك الإذعان ليتقي عيني العمة اللاذعة الآمرة جعله يتلفت بين الحين والحين، فيرفع رأسه وينظر تارة إلى دلال وتارة إلى النافذة حيث رأى بصورة جلية مظاهر اشتداد العاصفة وضاق ذرعاً بالوضع برمته بكل ما فيه من استلاب لمنطق الحياة.

كانت دلال كل ذلك الوقت حانية الجذع، خافضة الرأس، إلا أن الجسد الموفور الصحة دفعها لأن تغير في جلستها، فقد رفعت رأسها تنظر إلى فراغ فضاء الغرفة، فبرز نهداها مترعين، انجذب إليها رغم عدم مواءمة الحال ورغم التهديد المسلط عليه فيما لو دخلت عمتها فجأة ورأته يتأمل دلال في غفلتها عنه. لقد تذكر أيضاً كيف أنه نهر دلال لأنها سمحت من دون قصد لمفاتنها أن تبرز ولام نفسه الآن على استئناف النظر إليها. ثم فكر أنه أخطأ في السابق وأنه ما دام يجلس هكذا هنا في مواجهة ذلك الحضور القوي لجمال الجسد ولفتنته، فإنه لا يرتكب إثماً إذا أخذ ذلك بعين الاعتبار، فالموت يفسد المشاعر ولكنه لا يلغيها، بل يذكر بأهمية الحياة، بكل ما فيها من جمال وتلاوين رائعة، إنها غريزة الحياة التي تجند طاقات الجسد كلها لمتابعة العيش وإلا كيف استمرت البشرية قائمة منذ مئات آلاف السنين، تذهب أجيال وتأتي أجيال أخرى من رحم الأجيال السابقة، الآن أو بعد قليل ستصحو دلال من ذهولها ويطرح عليها السؤال الذي كان يخاطره عن علاقتها بالمسرح، والذي علق في حلقه مع دخول العمة وستحدثه عن ذلك عن طيبة خاطر، ولن يحول الموت بينهما وبين إدراك أن ثمة غداً آخر سيعاش.

وفيما كان يطوف في هذه الأفكار وفيما كانت دلال في ذهولها الشديد، سمع رنين الهاتف وجاءت العمة لتأخذ دلال من ذهولها وتعلن لها أن الدكتور أحمد يطلبها.

نهضت دلال وألقت على جلال نظرة ما استوعب قصدها ثم دخلت إلى الغرفة.

وجد في ذلك فرصة سانحة لأن يقف على رجليه وأن يحركهما فمضى إلى النافذة، ما كان بوسعه أن يرى شيئاً ولكنه سمع بكل تأكيد أصوات الريح في اندفاعاتها المحمومة.

عادت دلال بعد قليل وجلست. نظرت إليه وقالت:

– إنه الدكتور أحمد، قال إنه سيتأخر قليلاً وأعطاني رقم هاتفه هناك إذا ما احتجت إليه.

قال لها قبل أن يبرح النافذة ويعود إلى مكانه:

- كأن العاصفة ستقتلع المدينة من جذورها.

قالت:

- قال الدكتور أحمد إنّ الوضع مفزع وإنه سمع أن الأردن ما عرف مثل هذه العاصفة منذ سبعين سنة.

كاد أن يقول شيئاً يعيد الحديث عن المسرح، غير أنه لاحظ أزمة ما تحرك مشاعرها، فقد راحت تعض أصابعها.

سألها قلقاً:

- ما بك؟

قالت:

- لا أحب هذا، لا أحب هذا الاتصال، مجموعة من الرجال الذين كانوا في طريقهم إلى السلطة ثم تركوا هناك، فلا هم وصلوها ولا عادو إلى مواقع الناس العاديين، يجتمعون كل مساء يتلذذون بالطعام الجيد والشراب والسخرية من كل شيء، سيسألون الآن عني والله وحده يعلم ماذا سيقولون، إنهم يعرفون والدي، فقد انضم إليهم في فترة ما قبل انهياره الحاد الأخير وأنا أعرف عنهم كل شيء، إنهم يتخذون من السخرية درعاً للدفاع عن أنفسهم، فلا أحد بمنأى من سخريتهم، مجموعة أشخاص من منابت مختلفة، منهم من بلغ مكاناً رفيعاً في السلطة ثم خرج منها، ومنهم من تاجر واكتفى بما لديه، ومنهم سياسيون غدرت بهم أحزابهم أو غدروا بها فتحولوا إلى التجارة. ليس بينهم أي تشابه سوى انصرافهم إلى السخرية من الجميع ولأسباب كامنة في نفس كل منهم، والدي مثلاً كان يسخر من الذين تحلقوا حوله حين انهالت عليه الثروة، والدكتور أحمد يسخر من رجال الحكم لا لسبب إلا لأن ماضيه منع وصوله إلى سدة الحكم.

قال:

- هو طبيب أليس كذلك؟

ردت بغضب:

- وما الفرق ما دامت سلطة الحكم تثير شهيته. كان والدي يسخر منه، فلقد عرف ضحالة كل من احتل مقعداً وزارياً، فقد كان نفوذ ماله أكبر من نفوذ سلطتهم وما رأى في إيلائه كل

ذلك الاهتمام لرجال الحكم إلا دليلاً على رغبته في أن يكون واحداً منهم.

سأل:

- أهو تافه إلى هذا الحد؟

أجابت بعد أن أخذت وقتاً في تحضير إجابتها:

- لا أدري. في حضرتي يبدو شخصاً مختلفاً، متألماً، مفتقداً للنقاء الإنساني، إنه يحب إعانة الناس، يحب أن يرى فضله على الناس ربما كان هذا سبب رغبته في أخذ مكانه في الحكم، لديه مشكلة ما، لا أعرف ما هي على وجه التحديد، لقد تزوج امرأة ولدت له فتاة ثم توفيت وبقي بدون زواج فترة من الزمن إلى أن انتابته حمى الاتصال برجال المال والحكم، فتزوج فتاة من أسرة ثرية، مادام زواجه إلا أربعة أشهر، فقد كان الاختلاف بينهما بيناً والمنازعات على أشدها.

لاحظ اهتمام دلال بسيرته وما رغب في أن يسمع المزيد الآن فقد يفضي الحديث عنه إلى شجار بينهما، فله من سلوك الناس موقف ربما يختلف من موقفها، بتر الحديث عنه وسأل:

- أبوك يثير اهتمامي. حدثيني عنه.

فتحت حقيبتها وبحثت عن علبة التبغ فوجدتها فارغة. ألقت بها وقالت:

- نسيت أن أشتري، أعطني لفافة من فضلك.

اتضح له أن الحديث عن الوالد أصعب من الحديث عن الدكتور، فهي من صلبه والكارثة التي حلت عليها من فعله، أعطاها لفافة أشعلها لها ثم جلس صامتاً بانتظار حديثها. قالت بعد ترو:

- والدي من يافا. هجر والده يافا عام ٨٤٩١م، كان جدي تاجر أقمشة نسائية أخذ والدي عنه تجارته. وبسبب تجارته كان كثير السفر إلى لبنان وهناك تعرف على والدتي، كانت من أسرة تتاجر أيضاً بالأقمشة النسائية وملابس النساء.

استأجر والدي الطابق الثاني من بناء أبي هويمل وهو يتألف من ثلاث حجرات وصالة واسعة، أخذ جدي وجدتي حجرة، ووالدي حجرة وعمتي حجرة، وكان ذلك الوضع مريحاً للجميع. توفي جدي ثم تبعته جدتي بعد أشهر وأتى والدي بزوجته من لبنان، فأثار حفيظة عمتي التي فاتها قطار الزواج، فهي تكبره بسنوات وكانت قوية الجسد شديدة البأس، ولكن مركزها تضعضع بعد زواج والدي. في ذلك المنزل ولدت أنا وخالد. وفي وقت لاحق اشترى

والدي قطعة الأرض التي أقام عليها مسكن العائلة، المسكن الذي تعرفه والتي تحتل أنت حيزاً من باحته، لقد أدخلني والدي أفضل مدرسة للإناث في جبل عمان وكذلك خالد. ولكنني.... ولكنني....

وهنا لسبب خفي عليه في حينه لاحظ ذلك التغيير المرعب الذي طرأ على ملامحها ولاحظ أنها نهضت متشنجة الأطراف ومضت نحو النافذة وعادت ثم جلست وتابعت وهي لم تهدأ تماماً بعد:

– ولكنني تابعت دراستي في لبنان عند أهل أمي.

ثم نهضت مرة أخرى واندفعت نحو غرفة النوم، مكثت هناك برهة ثم عادت ووجهت له سؤالاً غريباً منبت الصلة بموضوع الحديث:

– هل تخاف الموت؟

تقلصت عضلات وجهه وداهمه قلق شديد جراء هذا التحول، قال:

– بالطبع أخاف الموت؛ فأنا في مقتبل عمري، إنني في السابعة والعشرين وأحب أن أعيش.

قالت:

– وأنا في الرابعة والعشرين ومع ذلك أشعر كأنني عشت حياة كاملة، الموت لا يخيف، لو شاهدت أمي الآن، إنها ترقد بسلام.

ارتدت إلى الخلف وشخصت ببصرها إلى سقف الغرفة وبدا وكأنها خرجت عن طورها تماماً، تمتمت:

– إنه سلام كامل ونهائي.

قال محتجاً:

– ولكننا سنعيش، سنتابع الحياة أليس كذلك؟الحياة جميلة جداً أما الموت فبغيض.

اعتدلت في جلستها ورأى فصي الماس يلتمعان في عينيها من جديد. وقالت:

– تقول ذلك لأنك ما رأيت من شرور الدنيا، ما طعنت في مؤخرتك. وها أنت تقع في أول مصيدة تصادفك. عش، استمر في الحياة وسوف ترى كم من المصائد في انتظارك.

حنى رأسه وفكر، رغم أنه أتى هنا بفعل ترتيب ما اختاره هو، بفعل مصيدة كما تقول، إلا أنه حظي بتجربة على غاية الأهمية لأول مرة في حياته، ستمضي هذه الليلة على ما فيها من سوء وجمال وتبقى التجربة، إنها تجربة فريدة ما كان ليحصل عليها بدون هذا الترتيب. فأي ضير في ذلك؟

أجابها:

- ومع ذلك، فإن الحياة تستحق أن تعاش، إنها غريزة الحياة. إن الجسد الحي النشط يرفض الموت. إن جسد الإنسان يرفض الموت حتى لو كان يرقد في المستشفى، فإنه لا يملك إلا أن ينظر من النافذة ويبتهج بمرأى الأشياء الجميلة، الأشجار أو الشفق وحتى غروب الشمس، إنها الحياة في الخارج.

قالت بنزق:

- تستطيع أن تقول ذلك دون أن تدفع ثمناً. إنك ما عرفت الألم المتواصل ولا إزعاج القيح الذي ينز من جرح لا يندمل، تستطيع أن تقول كلاماً جميلاً عن الحياة للتعساء وتغض طرفك عن تعاستهم ثم تدفن رأسك في الرمال بعدئذ. أما أنا فلا تقل لي شيئاً من هذا القبيل. فما عدت أكترث.

كان توترها على أشده وخشي من مغبة ما ينجم عنه. فما أفاد معها حديثه المتلطف عن جمال الحياة وما أنقذ الموقف إلا سلسلة البروق التي تلامعت فجأة ثم هدير الرعد. أسرعت نحو النافذة وقالت:

- هذا انفجار الغضب. آن الآوان... آن الأوان...

تتابعت البروق والرعود وهي تقف إلى جانب النافذة وهو يراقبها ويستمع إلى هدير الرعود، مفكراً بهذا الشخصية المركبة تركيباً بالغ الصعوبة والتعقيد. وتساءل: أي ظلم حاف بهذا الزهرة المتفتحة أجمل تفتيح، وأية شرور أراقت طيبتها ورقتها وملأت جوفها بهذا التطير والفزع والكره.

وفيما كان منشغلاً بطرح تساؤلاته عادت وجلست هادئة وقد تخلصت من لحظة انفعالها وتوترها. سألته إن كان يرغب في سماع بقية القصة، فأجاب وهو ما زال مأخوذاً بتحولات حالها:

- طبعاً أرغب.

- كان منزلنا يكتظ بالزوار من أقارب والدي. هم قلة في عمان ولذلك كانوا يتجمعون في منزلنا معظم الأحيان، وتقوم والدتي على خدمتهم. كانت هي التي تولم وتكرم الأقارب. كانت تفيض بهجة وحيوية فتعم بهجتها وتشمل الجميع، وكان الأقارب مرتاحين لحسن ضيافتها،

فيأتون في أوقات مختلفة، سواء أكان والدي موجوداً أم لا. يأتون ثقال الظل يبعثون الضيق في نفسها أحياناً خاصة حين تجد نفسها موزعة بين أعباء المنزل وبينهم. هي الوحيدة التي تحملت مسألة استضافتهم، أما عمتي فكانت تنظر إلى الأمر كأنه أمر يخص أخيها وزوجته وليست هي إلا واحدة ممن تستحق عناية والدتي لا مشاركتها في أعباء المنزل. صحيح أنها كانت تخصني بمحبة خالصة، إلا أنني كنت آخذ عليها ذلك الاتكال الكلي على والدتي.

صمتت قليلاً ثم قالت:

- أتعرف كيف رد الأقارب جميل والدتي؟لقد روجوا حولها الأقاويل فيما بعد في الوقت الذي أخذ والدي يعاني من المصاعب. لقد صدتهم عمتي وتصدت لهم ولكنها ما فعلت أكثر من ذلك، لهذا السبب لا أريد أحداً منهم ولا أريد أن يذكرني أحد بهم.

قال فجأة:

- أريد أن أرى وجه أمك. أريد أن أرى تلك المخلوقة الرائعة التي أنجبتك وتلك المخلوقة التي تسعت في حياتها.

سألت باهتمام؟

- أحقاً تريد رؤيتها؟

نهض وقال:

- كأنك بعثت فيها الحياة، كأنني أراها الآن تتحرك في المنزل، رافعة الجذع تقوم بواجباتها بصمت وتبتسم برفق إذا لزم الأمر.

مضى معها إلى الغرفة ووقف بخشوع، الآن يتأمل الوجه الميت وكأنه يتعرف من خلاله على تلك الحياة التي وصفتها له. تمتم:

- كأني أراها ترتعش ارتعاشة صغيرة أو أنّها خلدت الآن إلى الراحة بعد عناء النهار.

اقتربت منه حتى تلامس كتفاهما وتساءلت:

- أحدث هذا معك أيضاً، إنني أنظر إليها فأراها تكاد تنطق، تريد أن تبلغني شيئاً ما فيعجزها الوهن.

قال:

- لقد سكبت روحها فيك. هي تمضي الآن وأنت تتابعين الحياة. تمتمت:

- كنت سأحتفل بعيد ميلادها الرابع والأربعين.

كانا يقفان بجلال وقد تلامس كتفاهما عند أول السرير والجثمان بأكمله أمامهما ولا يرى منه إلى الوجه الذي ما ذهب جماله بعد. وكانت العمة تجلس في الزاوية، ترفع قامتها المديدة ولا يعرف أحد منهما ماذا يجول بخاطرها. تطوع جلال وخاطبها:

- أيتها العمة. استريحي قليلاً. لقد ماتت ولن تعيديها إلى الحياة.

تحولت إليه ورأى في عينيها امتناناً ثم نهضت وذهبت إلى غرفتها.

افترقا بعد قليل. أخذ جلال مكان العمة وأخذت هي المقعد الآخر. صار بوسع جلال أن يعتبر موت الأم يهمه وأن أمر دلال يهمه وحتى العمة أخذت مكاناً في نفسه. وأراد الآن منها أن تتابع سرد تاريخ العائلة ليتعرف على حياة الأسرة في تحولاتها وانقلاباتها في نجاحاتها وانهدامها. قال:

- هل تودين أن تتابعي كلامك. إنك أدخلتني عتبة البيت وأريد أن اعرف المزيد.

قالت:

- أصاب والدي نجاحاً مفاجئاً في تجارته. ليست تجارة الأقمشة النسائية فحسب بل جميع أنواع الأقمشة وأصبح بين عشية وضحاها المورد الوحيد لبعض أنواع الأقمشة ثم صار يستورد السكر والأرز ويجني أرباحاً طائلة، فتغيرت عاداته وتبدل أصدقاؤه وصار لا يتحدث إلا عن الصفقات الكبيرة وعلاقاته برجال الحكم وأثرياء البلد، واشترى أحدث سيارة وأغلاها ثمناً وترك سيارته القديمة - مع أنها سيارة فارهة - لخالد واشترى لي سيارتي هذه ومن حسن الحظ أنه سجلها باسمي مباشرة فسلمت من الحجز عليها ضمن ما حجز وبيعها بالمزاد. ثم اشترى قطعة أرض جديدة وأقام عليها قصراً لا يضاهيه قصر في عمان. وكنت قد عدت من لبنان. عدت لأشاهد هذا التغير الكبير الذي طرأ على العائلة. وكانت السيارة هي أول الهدايا لي.

غير أن منزلنا الكبير الذي ضم خادمتين وبستانياً وسائقاً ما عاد كما كان. لم أعد أرى أقاربي إلا في أوقات متباعدة فقد صار والدي أكثر تبرماً بهم. ولم أعد أرى خالداً في المنزل فقد ترك له والدي منزلنا القديم الذي عشت فيه أيام طفولتي، لم أجرؤ على زيارته رغم رغبتي الملحة في ذلك. فقد عاث خالد وأصدقاؤه به فساداً. وقد احضر هو الآخر خادمة وحول المرآب إلى شقة مستقلة لها.

فرش قصرنا بالسجاد الفاخر والمقاعد الوثيرة وتدلت من أسقف صالوناته الثلاث الثريات الفخمة، امتلكت عمتي سلطة إصدار الأوامر للخادمتين والبستاني وما عاد لوالدتي دور في حياة المنزل، فكانت تجول فيه وحيدة، حزينة النفس، تعالج سأم هذا التحول الذي أخذ منها كل شيء تقوم به وتركها تتجول في الصالات وبين المقاعد الوثيرة بدون عمل، بالاهتمام بجانب من الحديقة خصصته للورود وأبعدت عن ذلك المكان سلطة العمة.

في ذلك الوقت أكثر والدي من السفر وأكثر من الهدايا التي يجلبها معه ويوزعها على كبار القوم، لقد عاد مرة من إحدى رحلاته مهموماً وما عرفت السبب في ذلك إلا فيما بعد، فقد خسر في صالات القمار مبلغاً كبيراً، ثم تتالت خسارته وصار حاد المزاج يسيء إلى والدتي بدون سبب، ثم أدمن شرب الخمر وكثر شجاره مع والدتي ثم مع عمتي، لقد انكشف السوء مرة واحدة، فأبي ما عاد ذلك الأب العطوف الحنون، وأمي ما عادت وردة المنزل الجميلة، وعمتي امتلكت روحاً شيطانية وعزلت نفسها في غرفتها ولاذت بالصمت وصرت حين أراها أرتجف من قسوة عينيها. ومع ذلك ما كنا عرفنا أن والدي جازف كثيراً وخسر كل ما يملك واستدان من البنوك، وأنه عجز عن سداد ديونه التي تراكمت، لقد تمادى في الإساءة إلى والدتي وتجرأ على ضربها وهذا أكثر ما آلمني. لم تعرف لحظات الفزع التي كانت تنتابني وأنا أسمع عويلها واستغاثاتها وأرى والدي كالثور الهائج يصرخ بها ويلطمها ويلطم الجدران. لم نجد عوناً من أحد آنذاك، فقد تخلى الجميع عنا، الأقارب والأصدقاء، باستثناء الدكتور أحمد، الذي أعجب في السابق بفضيلة والدتي ورقتها وذوقها في اختيار الملابس، كان يزورنا للحظات ولكنه ما عرف أي وضع عسير يمر به والدي، فقد كان وما زال قادراً على شراء الشراب الفاخر، وكان الدكتور يفضل أن يتناول كأساً من ذلك الشراب ثم يتوجه بالشكر لوالدتي التي أصرت أن تأتي بالشراب بنفسها، فقد هربت الخادمتان من المنزل بعد أن توقف والدي عن دفع راتبهما. وكان الدكتور أحمد قد انفصل عن زوجته الثانية وكنت أنا أنهي سنتي النهائية في المدرسة. فكان يجاملني ويسألني عن الدروس ومشاكل الدراسة ثم ينصرف متمنياً لي النجاح، وصار والدي يغضب بعد خروج الدكتور أحمد لأنه يعود آنذاك وحيداً، وكانت ثائرته تثور أحياناً إذا ما تجرأت والدتي وشاركته الجلوس، فيفتعل معها شجاراً بعد خروج الدكتور ثم يضربها. وكان لا بد من ردع والدي ومنع أذاه عن والدتي التي ما كان لها ذنب في كل ما جرى. لقد اضطررت للدفاع عنها ومناصرتها، لقد امتلأت حقداً جديداً زاد في أحقادي وامتلكت بسبب هذا الحقد قوى شيطانية ما عرفت مصدرها، إذ إنني تجرأت ونهرت والدي فهابني، كان يقول لي أحياناً

مداعباً: من أين لعينيك هذه القسوة، كأنهما عينا ساحرة. وأخيراً حلت الكارثة. صدرت عدة أحكام من المحاكم لصالح البنوك وطرحت القضايا للتنفيذ ثم بيع كل شيء بالمزاد العلني، القصر الجديد والمنزل القديم والمتجر وأثاث المنزل برمته سوى غرفة نوم الوالدين وهذا المصاغ الذي نجحت في إخفائه عن والدي، لانه باع قبل ذلك الكثير، مصاغ الوالدة وما حصل عليه من مصاغي، كما باع سيارة خالد الذي رد عليه بالانفصال الكامل عنا. لقد حصل أبو هويمل على منزلنا القديم بسعر بخس، وإيغالاً في إذلال والدي، أجَّر الشقة الصغيرة لخالد. ثم سخره لأغراضه الدنيئة.

انتصبت فجأة واتقدت عيناها ذلك الاتقاد الذي يبعث الرهبة في النفس، فقد عاد فصي الماس إلى اللمعان.

قالت:

- آن أوانه.

سأقتله بأسرع وقت.

اضطرب حين نظر إليها ونفد شواظ عينيها إلى داخله. كان ذلك اختلافاً آخر. قال:

- إنك غير جادة. فمثلك لا تقتل.

ردت بانفعال:

- كيف تعرف؟كيف تحكم علي وأنت لا تعرفني جيداً؟

عادت إلى الصالة وجاءت بحقيبتها ثم أخرجت المسدس وصوبته نحو الجدار.

نهرها قائلاً:

- دلال، اتركي المسدس، لا يجوز العبث بسلاح قاتل.

كانت في حالة استثارة تامة، لاتصغي إليه ولا تعرف ما تريد. ألقت بالمسدس بغيط، فسقط على الأرض وانطلقت منه رصاصة وأحدثت دوياً شديداً وثقباً في الجدار.

تلبثت في مكانها وكأنها ما أحدثت شيئاً ولا أوقعت الرعب في نفس جلال، تاركة المسدس على الأرض، دخلت العمة ورأت المسدس على الأرض وما سألت عما جرى فما أصاب أحداً سوءٌ ثم عادت من حيث أتت.

التفتت دلال بغتة وقالت له:

- ما بك، مضطرب؟ألم تعرف الحقد؟ما السوء في أن أحقد؟

علا صوته وقال:

– لماذا الكره؟يجب أن نحب بدلاً من أن نكره، الحقد لا يفيد لأننا بالحب وحده نتزوج وننجب، نزرع ونحصد بالحب وحده، نعمل على إشاعة الفرح حتى يعم الناس أجمعين.

زادها قوله غلواء:

– ربما تستطيع أنت أن تحب وليس أنا، أنت ما زلت طفلاً لم تر شرور العالم بعد، أبو هويمل جارك ولا تعرف عن شروره شيئاً وتنام قرير العين، إنه مزرعة للشر، الناس جميعاً أشرار، والدي كان شريراً وأخي شرير وأقاربي أشرار وعمتي ما عادت تعرف سوى الشر ومدير الشركة شرير والرجال الذي يعتقدون أني لقمة سائغة أشرار، كل ما يحيط بي شرير فماذا أفعل أنا؟هل أفتح لهم أحضاني وأعانقهم؟

أجاب وما كان بوسعه أن يجيب بغير ذلك؟

– بالطبع لا.

ثم استدرك:

– غير أن هناك أناساً طيبين، أنا مثلاً أعتقد أنني طيب، وذلك الدكتور أحمد يبدو طيباً هو الآخر. وحتى عمتك هذه ربما لا تنقصها الطيبة، غير أنك لا تريدين أن تري فيها ذلك.

ردت ساخرة:

– ابو هويمل أيضاً رجل طيب لأنه أجرك مكاناً حقق لك الخلوة.

غضب آنذاك غضباً شديداً وقال:

– إنك تسخرين من كلامي ولا تجدين فيّ سوى ذلك الطفل، وهذا ما سوغ لك فكرة استدراجي.

ردت عليه :

– أدركت الآن أنني استدرجتك، هذا أمر جيد، تابع، فكر، لماذا استدرجتك. ما الذي أريده منك؟

رد من فوره منفعلاً ودون منح نفسه فرصة التفكير، لأنه ما كان وصل إلى هذه النتيجة بعد:

–وما يدريني لأي غرض استدرجتني؟لكن ما دام الأمر كذلك فسوف أخرج الآن.

قالت محتدة:

- أخرج.. أخرج إن استطعت، أنني أحكم السيطرة عليك، لقد أحطتك بسحري.. جرب واخرج الآن.

رد ساخراً وغاضباً:

-الوداع أيتها الساحرة.

وقف على رجليه وتأكد أنه ثابت في وقفته، ممتلىء عزماً وثقة، خطا نحو الباب وحين بلغه، قال:

- إنني خارج ولن يفيدك السحر.

مضى في طريقه نحو الصالة، فلحقت به متوسلة باكية:

- أتنصرف وتتركني هكذا؟أليس لك قلب؟ أتصدق حماقاتي عن السحر، لا تتركني أرجوك. لن تعرف ماذا يحصل إذا تركتني. سأقتل نفسي دون شك، أرجوك لا تدعني أموت. لا أريد أن أموت الآن.

تلبث في مكانه مولياً إياها ظهره، فماذا يفعل الآن؟إنها تعسة دون شك، ليس لأنها فقدت والدتها في ليلة شتائية عاصفة وليس لأن شقيقها، ضل واختار طريق السوء وانتهى إلى السجن، وليس لأنها ستكون وحيدة إلا من عمة لا حيلة لها سوى الصمت والتحديق الآثم بالآخرين، ليس بسبب هذا كله فحسب، بل لأن تاريخها الشقي الذي كشفت عنه يستقر في ذاكرتها كصخرة كثيرة النتوء ويقلق مضجعها. وهذا كله يدفعه للحنو عليها وتخفيف قسوة لحظاتها، غير أنها مع ذلك عنيدة ولا ترى الحق إلا في جانبها وهذا ما يسوؤه.

خطت نحوه حتى صارت خلفه تماماً ثم حنت رأسها على كتفه، فارتج بدنه وأمسك بذراعيها التي تدلت إلى جانبها وأبعدها عنه، وقال:

- حسناً، سأبقى ولكن هنا، لا أريد أن أجلس هناك لأن الموت يبعث إليك بأكثر الأفكار شراً، انظري إلي، أنا أمثل الحياة وأنت ترفضينها. وما دمت تتعلقين بوجودي فإنك إنما تتعلقين بالحياة.

توجه إلى مقعد وجلس. اختارت مقعداً مواجهاً له وجلست.

قال:

- اعتقد أنك الطفلة، الطفلة المجرحة العنيدة.

ما عقبت.

- أنت تنظرين إلى الحياة من زاوية واحدة فقط. يجب أن تخرجي نفسك من المأزق الذي

وضعت نفسك فيه، يجب أن تسمحي للهواء النقي أن يدخل رئتيك. أنت جميلة إلى حد الإعجاز، فلماذا تريدين إفساد هذا الجمال؟وأنا لست طفلاً لأنني سايرتك. لقد ألقيت على كاهلي عبئاً شديداً، فخففي الحمل عني أرجوك.

لاذت بالصمت وفرغ هو من الكلام. لاحظ أنها ترنو إليه بإعجاب ورضى. فتحاشى أن تلتقي عيناهما، غير أنه امتلأ زهواً. التفت إليها والتقت عيناهما فتبسمت وابتسم. قالت:

- أنا سيئة، هذا صحيح فلا تكن سيئاً مثلي.

غض بصره إثر ابتسامته، ووجد أنه لا يحمل في نفسه أي ضغينة ولا يرغب في الإساءة إليها، ثم رفع رأسه فإذا بها تحدق به فلم يملك نفسه من الابتسام مرة أخرى. قالت:

- هل تعطيني لفافة؟

مد يده بحركة تلقائية سريعة وأخرج علبة تبغه ورآها تنهض وتتقدم نحوه بكثير من خفة الحركة ولينها، وكانت في اقترابها منه تبعث فيه رعشة ما توقعها، فخفض رأسه وفتح علبة التبغ وأشعل القادحة. تناولت اللفافة ووضعتها بين شفتيها ثم دنت بوجهها من شعلة القادحة ولامست كفه وهي تلتقط الشعلة ثم رفعت رأسها وقالت بغنة واضحة:

- حدثني عن نفسك. ستحدثني أليس كذلك؟

ثم استدارت وعادت إلى مقعدها بمثل اللطف الذي قدمت به. تابعها إلى أن أخذت مكانها، توجهت إليه، فسألها:

- ماذا تريدين أن تعرفي؟

أجابت بثقة وحبور:

- كل شيء عنك، منذ طفولتك وحتى مجيئك إلى عمان.

هز رأسه ثم زم شفتيه وقال:

- إنها قصة طويلة مملة.

قالت:

- ومع ذلك أريد أن أعرفها.

اعتدل في جلسته وحول بصره إلى يد المقعد ثم أخذ ينقر عليه بأصابعه وقال:

- ليس في طفولتي ما يستحق الذكر، فالحياة في بلدتي بسيطة تخلو من الإثارة.

ثم رفع رأسه وواجهها وأضاف:

- أنا من أسرة تعتاش من الزراعة وتتشابه مع بقية الأسر في تكوينها النفسي والاجتماعي، ولدت في ذلك المناخ البسيط الهادئ وعشت حياة سائغة بسيطة.

قالت وطيف ابتسامتها ما زال عذباً رقيقاً :

- أنت تتحايل علي وتتباخل كذلك.

ابتسم وفكر في ماضيه مستعرضاً المراحل التي قد تصلح كفاتحة للحديث ولما وجدها تنظر إليه مشرئبة العنق مهيأة للإصغاء. قال:

- أنا أصغر أشقائي. ولدت بعد أربعة أشقاء وثلاث شقيقات، في يوم سعد كما يقولون.

ابتسم بفخر ثم تابع.

- ولهذا حظيت بما لم يحظ به أشقائي وشقيقاتي من عناية ورعاية، خاصة وأنني أظهرت تفوقاً في دراستي.

صمت قليلاً إلى أن أخرج علبة تبغه وتناول لفافة وأشعلها ثم نظر إليها وقال:

- لكن لطفولتي الأثر الحاسم في تكوين شخصيتي.

أخذ نفساً من لفافته ثم تابع:

- توفي شقيقي الرابع، أصغرنا بحادث سيارة، صدمته في طريق عودته من المدرسة في بلدة مجاورة، وقتها كنت في السابعة من عمري. لفت هذا الحادث على ما يبدو اهتمام أسرتي إلى خطورة السيارات، وكنت قبلها أخرج مع شقيقتي التي تكبرني بعامين للعب مع أطفال آخرين دون اعتراض من أحد، غير أن الوضع تغير بعد موت شقيقي، فلم يعد مسموحاً لنا اللعب خارج المنزل، خاصة وأن ساحة منزلنا فسيحة، ولكي أتقبل هذا الانتقال من الخارج إلى الداخل أحضر لي شقيقي دراجة استخدمها للعب في ساحة المنزل.

توقف قليلاً ثم نظر إليها ليرى أن كانت تهتم بما يقول ثم تابع:

- كان لتلك الدراجة ولتلبية كل رغباتي أثر سيئ في حياتي، فقد ارتضيت العزلة عن باقي الأطفال وصرت أتقبل وحدتي وأجد ما أتلهى به، وحين أكتفي من اللعب أبحث عن أي مكان أختلي به وأجلس فتتوارد علي أخيلة. وفي ذلك الوقت اقتطع والدي من منزلنا غرفة كانت تستعمل للخزين وأسكن فهيا مدرسات جئن من بلدات أخرى للتدريس في المدرسة الابتدائية المجاورة لمنزلنا. وهكذا عرفت في سن مبكرة حلاوة العلاقة مع النساء، كنت أدخل غرفة المدرسات. كن ثلاثة وكن يسعدن بزيارتي، فيداعبنني ويسألن عن دروسي وعندما أتلو الدرس

عليهن يسبغن علي إعجابهن وإطراءهن، فأزهو، وهذا ما حفزني على الدراسة أكثر حتى أحظى دائماً بإعجابهن، وهكذا صارت غرفة المدرسات مكاني المفضل.

ندت عنها ابتسامة، لاحظها على الفور فتضرج وجهه بحمرة خفيفة، صمت قليلاً ثم تابع:

- أحياناً كانت تبقى مدرسة واحدة، فتسعى هي إلي لأن الوحدة تكون شديدة الوطأة عليها، حتى أنها كانت تطلب الإذن لأنام معها في الغرفة. نعم هذا يحدث في بلدتي، فالناس هناك طيبون ويحدبون على الغريب ولا يجدون في مبيت طفل في غرفة سيدة ما يعيب.

غير أنني منعت عن هذه الزيارات حين صرت في الصف السادس. كان في ذلك المنع ما سلبني متعة سرية كنت أحس بها، فصرت التجئ إلى الأماكن المعتمة وحيداً واستعيد كثيراً من ذكرياتي في غرفة المدرسات.

توقف عن الحديث وقال:

- أرأيت أنها قصة طويلة مملة؟

هزت رأسها نافية. وقالت:

- أبداً، إنك تثير اهتمامي.

هز رأسه متفكراً وزم شفتيه ثم أطفأ لفافته وتابع:

- في المرحلة الثانوية حدث تبدل هام في حياتي، فقد دخلت في علاقات طيبة مع زملائي في المدرسة وكانت مدرستي في بلدة أخرى مجاورة لبلدتنا، كنت أذهب إليها سيراً على الأقدام زاهياً بملابسي وانتصاب قامتي، فأمر بالفتيات والفلاحين وأشعر بالسعادة تغمرني.

وفي المدرسة كنت أبز زملائي في اتساع خيالي وحسن حديثي، وأقصر عنهم في ممارسة الألعاب الرياضية، كنت لا أشاركهم اللعب كثيراً لأنني كنت لا أستطيع مجاراتهم ولكنني أجمعهم حولي لساعات، أقود الحديث وأوجهه وأثير فضولهم.

توقف ونظر إليها. كانت تراقبه باهتمام. لاحظ ذلك، قال:

- ليس هذا بالوضع الطبيعي لأنني بذلك كنت مختلفاً عن أقراني في المرحلة الابتدائية أو الثانوية ولعل هذا الاختلاف ما أرقني ودفعني بعد سنوات إلى ترك بلدتي والمجيء إلى عمان.

في خلوتي كنت أفكر في هذا الكون الشاسع وأحار في غموضه، أطرح أسئلة على نفسي ولا أجد لها جواباً وفي دار المعلمين جاءنا مدرس، طرح علينا الأسئلة ذاتها التي كانت تدور في

رأسي ثم أجاب عليها بوضوح ويقين. كان لا يكف عن طرح الأسئلة والأجوبة. لقد أثار اهتمامي بحيويته وإشراقة وجهه وسعة معرفته، علمني كيف أعمل عقلي في كل أمر فلا أكتفي بالموروث المقيم فينا منذ زمن بعيد، بل أبحث عن مدى تطابقه مع المنطق والعلم. لم يمكث هذا المعلم بين ظهرانينا طويلاً فقد عاد إلى عمان، أما أثره فباقٍ فينا.

نهض وسار بضع خطوات صوب النافذة ثم وقف وأخذ يصغي إلى صوت الريح وهي تلاحقه بنظرها، استدار استدارة رجل عسكري ونظر إليها ثم أردف:

– ما عاد إلى عمان بطوعه، فقد اعتقل، ليس هذا فحسب، فأنا سائر على درب أستاذي كما يبدو، وسأواجه نفس المصير، لقد اعتقل واحد من زملائي قبل فترة وجيزة وقد يأتي دوري في أي وقت، إننا ندفع ثمن وعينا وثقافتنا وعزمنا على أحداث تغيير في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمنحنى السياسي ومع أنني لست فاعلاً، لست منضوياً إلى التنظيم، إلا أن ذلك قد يعتبر خطراً بحد ذاته.

قالت وقد بدت جزعة:

– يا إلهي... يا إلهي أما قلت لك أنك محفوف بالخطر. لقد تهيأ لي ذلك، غير أنني ما اعتقدت أنه بهذا القرب. إنك شاب وديع لا تؤذي نملة. لماذا يفكر أحد باعتقالك. لماذا يترك أبو هويمل يعيث فساداً وتعتقل أنت؟

نهضت محتدة وقالت:

– احذر أنت، الغدر يتربص بك، إنك لست بحاجة إلى أصدقاء يقودونك إلى السجن، ابتعد عن هؤلاء الأصدقاء، إنهم مغرمون بأن يكونوا ضحايا. ومن أجل ماذا؟قل لي كيف سيغيرون من وضع حي الإسكافية، لن يفلحوا في ذلك. فمن أجل ماذا إذاً يذهبون إلى السجن؟

قاطعها محتداً:

– لا تسرفي في الحديث عن أصدقائي، إنني أحبهم جميعاً، أحبهم واحداً واحداً، وهذا خياري أنا. إنني وأصدقائي ندفع ثمن خطيئة تاريخية... ثمن جريمة تاريخية لأنه ومنذ بداية المجتمعات البشرية، ارتكب الإنسان خطأ قاتلاً، حيث سيطرت الأقلية على الأغلبية وجارت عليها، حدث ذلك في مجتمع الرق والإقطاع وفي المجتمع الرأسمالي الأكثر بشاعة. إنني أدفع ثمن خطيئة شخصية، فلقد استغل والدي الفلاحين البسطاء واستولى على أراضيهم. قالت

والدتي إنه يأخذ الأراضي مجاناً، إنه يشتريها، يشتريها هذا صحيح ولكن بأثمان بخسة لأنهم وقعوا في براثن الفقر. الفقير يزداد فقراً والغني يزداد غنى. وهذه هي القاعدة السائدة.

كادت أن تقول شيئاً فمنعها بحركة من يده.

– لا تضربي لي أمثالك. فما حصل مع والدك ليس قاعدة لأنه بذر أموالاً أكثر مما جنى، سقط والدك وسوف يسقط آخرون ولكن ذلك لا يغير من القاعدة، من الشروط الموضوعية. من النهج الذي لا يسير إلا بهذا الاتجاه.

استدار مرة أخرى جهة النافذة، كمدرس ألقى محاضرته وفرغ منها وآن له أن يستريح، غير أنها كانت له بالمرصاد فما تركته وشأنه. قالت في شبه استغاثة:

– أرجوك. ابتعد عن السجن. لا أريده لك، أنت مجرد شخص مسالم واهم، لأن المرض كما قلت يكمن داخل الإنسان وما لم تتطهر النفس من شرورها وآثامها فلن تنجح أنت وأصدقاؤك بإحداث أي تغيير. يا إلهي أنا أعرف جيداً، أعرف أكثر منك. أنك كناسك تنظر إلى هدف بعيد المنال وتغفل عن واقعك، أنت لا تعرف الواقع. سلني أنا الذي ابتليت به.

استدار مرة أخرى وقد تفتح كيانه كله، إدراكاً لما تقول وشغفاً بها:

– أنت ايضاً تفكرين... أنت أيضاً تقرأين، من أين لك هذه المفردات والقدرة على الإقناع؟ كيف تمكنت من صوغ الكلام البارع؟أنت رائعة... أنت رائعة.

ردت:

– بل أنا شقية.. شقية تعسة.

أنت تنظر إليّ كمن ينظر إلى رسم جميل ولهذا تفاجأت بكلامي. ربما لأنني عادة لا أتحدث بهذه الطريقة ولكنني اتبعت طريقتك، أنا أيضاً أقرأ، ولي أسبابي الخاصة، لا أقرأ لأنني أريد تغيير المجتمع بل أقرأ لأنني أهرب منه، والقراءة تملأ فراغي فحسب.

اقترب منها أكثر، أقترب حتى ما عاد بينهما إلى مدى ذراع، حيث يكفيه أن يمد ذراعيه فيحتضنها، تمتم وهو يحدق بها مبتهجاً:

– أنا وإياك نفعل الشيء نفسه، أنا وإياك نهرب من الناس، أنت لأنك تأذيت وأنا لأنني أخاف الأذى. هذه الليلة أنفع لي من كل الليالي، إنك جعلتني أرى ما كنت غافلاً عنه.

جلس إلى جانبها وقال:

– كلمات... كلمات، من قال إنّ الكلام كله هراء، ليس كل الكلام هراء. ليس كلامك

هراء.

ما عقبت على كلامه. كانت وصلة الحديث هذه غير كافية لانتشالها من شعورها بالمرارة والتعاسة فعادت إلى صمتها وألمها. واندفع هو مفكراً بصمت بما دفعته لأن يفكر به، أراد أن يقول لها، كل ما قلته صحيح غير أن ذلك لا يعني التخلي عن قناعتي وأصدقائي، ولكنه لاحظ إيغالها في الغياب فلم ينبس ببنت شفة. انفصل الواحد منهما عن الآخر وانشغل بما توارد على ذهنه من خواطر وأفكار وما عاد أمامهما غير امتصاص الوقت والانتظار المقيت، ينوسان في جلستيهما ولا يتبادلان الحديث.

كانا في تلك الغرفة المنزوية، كائنين صغيرين مستسلمين لحالة من الإحباط وفساد المشاعر وكان بوسعهما سماع هدير الريح وانفجارات الرعد، فيرفع كل واحد منهما رأسه ويعطي قليلاً من الانتباه ثم يعود إلى ما هو عليه.

يبدو أن العاصفة أفزعت العمة، فما عادت تطيق الاحتباس في غرفتها فجاءت فزعة، ثم أخذت مقعداً بعيداً عن الاثنين وجلست ثم توجهت بالكلام إلى دلال:

- ماذا سيحل بي؟ماذا ستفعلين بي؟

رفعت رأسها وكأنما تكابد كي تستعيد حضورها فلم تجب في الحال:

- سترسلينني إلى مأوى العجزة. أليس كذلك؟

أجابتها:

- عمتي، دعينا من هذا الكلام الآن.

قالت:

- أريد أن أعرف ماذا ستفعلين بي؟

كررت:

- عمتي دعينا من هذا الكلام.

قالت:

- ليتني أنا التي ماتت، لكنت أرحتك واسترحت، أنت تكرهينني، لماذا ؟أما أحببتك أنا؟أما دافعت عنك وأنت صغيرة؟ أما أخذتك إلى المدرسة، أما انتظرتك عند باب المدرسة؟ أما ذدت عنك أذى خالد؟ أما كنت تلجئين إلي، من كان يصغي إليك، حين كنت تعيدين نص الدور المخصص لك على مسرح المدرسة؟ما كنت لتجدين غيري. فلماذا كرهتني؟

تشبثت دلال بالصمت، فارتفع صوت العمة:

- حدثيني، قولي شيئاً، ماذا فعلت لتكرهيني، حدثيني، أنا أفضل من هذا الغريب.

هذا الغريب؟كأنما اكتشف فجأة أنه فعلاً هذا الغريب، الغريب الذي حشر في عالم لا يخصه، الغريب الذي يسهل إهماله، الغريب الذي يجب أن لا يسمح له بالاطلاع على أسرار الأسرة وإلا حظي بمقت الأسرة أو أحد أفرادها.

هذه العمة التي ظلت صامتة حتى الآن، نطقت وحين نطقت أشعرته بالخلل، فوجوده هنا، ليس وجوداً متأصلاً، بل طارىء.

أجابتها دلال بحدة:

- عمتي، أتركيه وشأنه، لقد عانى الليلة على يدي أكثر ما يستطيع احتماله، فلا تزيدي الأمر سوءاً. إنه بمثابة أخ.

هذه العجوز العجفاء تثير الشفقة أكثر مما تثير الأستياء، إنها ترصد تعابير دلال وتواجهها بهلع من قل نفعه وهزل جسده وتهدد أمنه، إنها تتشبث، تشبث اليائس وتحول حقدها نحوه وكأنه المسؤول عما قد يحدث لها، ولذلك ترميه بشواظ غضبها عازمة على انتزاع تلك الألفة اللذيذة التي التحف غلالتها وتشرخ تلك الوشيجة التي جمعت بينه وبين دلال، وها هي دلال تندفع بحمية تمنع عنه الأذى. ما أحب هذا الحدب الأمومي الذي يظهره ضعيفاً محتاجاً لمن يحميه، فهذا شعور مذل.

الآن أخذ السؤال معناه، ماذا يفعل هنا؟ كيف يفعل في هذا المكان الأكثر بؤساً من كل الامكنة؟ هناك في غرفة النوم جثمان. هناك الموت بكل دمامته، هناك الموت الذي يترصدنا ولا نحب أن نواجهه أو نلتقي به أو أن نتذكره بمثل هذه القوة. هنا هذه العجوز العجفاء الحاقدة المرتعبة، إن التفكير بمصيرها وحده ينتهك أمان الإنسان، وهو محشور بينها وبين دلال، ودلال هي الأخرى مشكلة بحد ذاتها، تتنازعها عواطف متضاربة فتنقلب من حال إلى حال، تثير رعبه وغيظه وتستدر عواطفه. وفي الخارج عويل رياح والتماعات بروق وانفجارات رعود.

إنها ليلة تدافع فيها الغضب من كل فج، فماذا يفعل الآن ولأي سبب ينبغي أن يبقى هنا وأي معنى لوجوده. إذا كان وجوده ضرورياً لتهدئة دلال وإسنادها والتسرية عنها فقد فشل في ذلك، فهي ما أن تهدأ حتى ينفجر غضبها. وإذا كان وجوده ضرورياً للفصل بينها وبين عمتها فقد فشل في ذلك كذلك. ها هي العمة سيئة الحضور تنفث حقدها نحوه وتزعج دلال برجاء

يقطع نياط القلب، إنها تختفي لحظة ثم ما تلبث أن تعود. ليقف الآن، لتنتصب قامته وليلقي تحية الوداع، إن استطاع، لأن دلال كانت في تلك اللحظة تتألم.

انفرجت شفتاها وقالت في شبه همس ورجاء حزني:

– عمتي لن أسيء إليك. أطمئني، لن أتخلى عنك.

واتته الفرصة آنذاك لكي ينهض ويقرئها الوداع. وقف فتحول نظر الاثنتين إليه. قال:

– المعذرة، أعتقد أنه ينبغي عليّ أن أنصرف وأترككما.

وإذ كاد يخطو، صرخت دلال به:

– قف. أين تذهب الآن؟

استدار وحاول أن يقول شيئاً فانحبس الكلام في حلقه، غير أنه ما أبدى استعداداً للعدول عما عزم عليه. قالت:

– أرجوك. إنني بحاجة إليك والعمة كذلك. هل تريد منها أن ترجوك كذلك؟

قالت العمة:

– طيب خاطرها يا ابني.

ثم نهضت وانصرفت.

سألته دلال:

– لماذا تريد أن تتركني، كنا نتواد. كدنا أن نقترب من التفاهم أنا وأنت أكثر. أنا في شقائي، وأنت في راحتك. كنا متباعدين ولكننا كنا نتواصل.

نظر إليها بعين الرضى، فليس ثمة كلام أكثر إقناعاً من هذا. وليس ثمة كلام أرق وألطف من هذا. أيجب أن يسيء إلى هذا الود، ويجرح بفظاظته هذا اللطف لكي يثبت أنّه قادر على اتخاذ قراره المستقل. تضرج وجهه ثم خفض رأسه وعاد إلى مكانه دون محاولة تفسير لحركته الرعناء.

غطت وجهها براحة يديها وقالت:

– أخشى أن تشعر أنك مكره على البقاء؟

ما عقب في الحال فليس ثمة أطيب من هذا الإكراه. كان بوسعه أن ينظر إليها بحرية أكثر وأن يفكر بذات الوقت، ثم قال حتى لا يترك لديها انطباعاً بأن سكوته تأكيد لمخاوفها:

– أستطيع أن أقول وأنا على ثقة ويقين أن لقائي بك هو أجمل حدث مر في حياتي كلها.

- ألست آسفاً إذاً؟

رد:

- بل ممتن.

باعدت بين راحتيها ورأى العينين الخضراوين المخضلتين. قالت وهي تنظر إليه:

- ليتني أجنبك السوء.

- أي سوء، ماذا تقصدين؟

أجابت:

- للأسف سوئي أنا، أخشى من سوئي أنا، أخشى أن أسبب لك ما يؤذيك. لا أريد لك الأذى.

رد عليها من فوره:

- إنك تبالغين في الحرص، هذا مبعث مشاعر ودية، لن يأتيني أي سوء من جانبك، فأنت طيبة القلب، رقيقة، حانية، وما يظهر منك أحياناً، ما هو إلا تهيؤات نفس مضطربة معذبة وإني أتفهم ذلك.

دفعت يديها بعيداً عن وجهها وقالت بكثير من الأسى:

- إنك ما رأيت شيئاً بعد، فما خرج شيطاني بعد، ولا أريدك أن ترى ما يسلبك راحتك مدى حياتك. يكفيك ما بلغته من سوء.

تساءل:

- أوتريدينني أن أذهب إذاً؟

ردت:

- لا... لا.... أريدك أن تبقى ولكنني أخشى عليك من سوء نفسي.

ما كانت هازلة في قولها، كانت لهجتها تحمل صدق مخاوفها ونظر إلى هذا التحذير بشيء من الجدية، فما رأى منها حتى الآن ما يجعله غير قادر على معرفة لحظتها القادمة، إنها كثيرة الانفعال متقلبة المزاج، وما مضى وقت طويل على عبثها بالمسدس. حاول أن يبتسم رغم تجهمه، تابعت:

- ستحقد علي آنذاك؟ستلعن اللحظة التي رأيتني فيها.

كان عليه أن يقول شيئاً يطرد مخاوفها ومخاوفه أيضاً، شيئاً يعيدها إلى صفاء النفس ويسر التعامل. قال:

- أنت واهمة. تتوهمين حدوث أشياء لا تحدث، ترتكبين هفوات صغيرة مما يحدث عادة

ثم تحاكمين نفسك بقسوة. من قال لك إنَّ الأنسان لا يرتكب هفوات ولا يخطئ، إنني - حسب ما رأيت منك - أجزم أنك بالغة الطيبة. أنت تغضبين لأسباب قد أجهلها ولكنك سرعان ما تهدئين. هذا كل ما يحدث. ماذا لو انفعلت قليلاً؟ كل الناس الأسوياء ينفعلون.

أصغت إليه ووضعت كلا مرفقيها على فخذيها وهي تتابع الإصغاء وحنت جذعها، فانبثق نهداها المترعان من خلال فتحة الثوب فجذبا انتباهه، فأشاح عنها لعله يجد ما يسليه عنها بالنظر إلى النافذة. ردت عليه:

- للأسف، أنا لست سوية، لقد خرجت عن طوري منذ سنوات وأصبحت حادة المزاج، لا أقبل من شخص أن يتجاوز حدوده معي. منذ أسبوع مثلاً، صفعت أبن مدير الشركة براحة يدي على وجهه.

التفت إليها وعقب:

- لا بد أنّه أساء إليك.

زمت شفتيها وقالت:

- لقد داعب مؤخرتي هذا الخنزير.

عقب:

- إنه خنزير فعلاً، ماذا يعتقد؟ هل يعتبرك متاعاً من متاع الشركة؟

تابعت:

- ليت أني صفعته فحسب، بل خطفت سكيناً كانت أمامه وصرخت به "حاول مرة أخرى".

اعتدلت في جلستها ورفعت جذعها ثم ضمت يديها إلى صدرها وكفته شر شبقه. ليس هذا فقط، لقد ضحكت أيضاً وجعلته يحدق بها بدهشة مسروراً بهذه النقلة. تابعت:

- لو رأيته كيف انطوى آنذاك على نفسه كقنفذ. صرخت به مرة ثانية "حاول". لاحظت أنه يرتعش خوفاً وما عاد بقادر على النطق ثم ألقيت السكين على المنضدة وخرجت مندفعة إلى غرفتي، وهناك حين جلست لاحظت السكين الشبيهة على مكتبي، إنها مما يستعمل لفض الأغلفة، قد تؤذى ولكنها لا تقتل ولا تجرح. تمثلت لحظة ارتعابه فانتابتني موجة هستيرية من الضحك. فذلك الجبان ما عاد يفرق بين سكين وسكين.

ضحك آنذاك وضحكت هي ثم وقفت وقالت:

- هل أعد لك كوب شاي؟

سعد بهذا العرض وشكرها. وذهبت إلى المطبخ وتركته وحيداً، فنهض وأخذ يذرع الغرفة ويفكر بهذا المخلوقة التعسة، الطيعة والطيبة والحصينة أيضاً والتي لا تطلب سوى الأمان لنفسها، إنها تمتلىء عاطفة رقيقة وقسوة في آن واحد، ولا سند لها إلا قوة بأسها وشكيمتها. لقد اضطرها ظرفها إلى أن تجمع قواها في استنفار كامل للذود عن نفسها والدفاع عن كرامتها. إنها لتستحق منه كل الإعجاب.

كانت العمة قد انسلت إلى الصالة دون أن يلحظ انسلالها. وكان هو ينطق أفكاره في تمتمة علنية آمن الجانب. وحين بلغ النافذة وعاد رآها تجلس هناك، كشيطان فظ، مفسد لكل روح طيبة ولكل مجلس مريح، فما أحب وجودها وبادر إلى الجلوس بعيداً عنها. ولكن أي بعد هذا، فالصالة بحد ذاتها صغيرة لا تزيد مساحتها عن عشرين متراً. ضاقت العمة كما يبدو بوحدتها وصمتها فأرادت أن تجري حديثاً مجاملاً معه، يجعل من وجودها سائغاً مقبولاً. قالت:

- مسكينة دلال. لقد نالت ما فيه الكفاية من العذاب.

رفع رأسه آنذاك وتوجه إليها باهتمام.

- لقد ظلمها أخي سامحه الله. لقد حملها أعباء جسيمة منذ طفولتها. كان يحب الطب وأراد لها أن تدرس الطب. كان يكلفها منذ الطفولة بإتمام واجبات المدرسة ويترك خالد يمارس هواية اللعب وحين أقول له إنّك تقسو على البنت وتفسد خالد، كان يجيب "دلال ذكية ومجدة وستدرس الطب حين تنهي المدرسة، أما خالد فمصيره العمل في متجري". كان منزلنا القديم يعج بالأقارب وكان عليها أن تتصرف كسيدة كبيرة وتبتسم في وجه الضيوف وتساعد في تقديم القهوة والعصير وغير ذلك. وعندما شبت عن الطوق وأخذت هذا الطول الفارع وهذه البنية الجميلة وصار بإمكانها أن تجاري بنات جنسها في الزينة واللهو البريء، كان أخي قد انهار وصار يضرب زوجته، وتوجب على دلال أن تهمل كل شأن وتجلس في البيت لحماية أمها، وحين توفي ما ترك لنا شيئاً، فاضطرت دلال إلى العمل. هل أنت زميلها في العمل؟هل حدثتك عن نفسها؟

قال:

- لا.

وهنا أدرك أنه أخطأ فما عرف كيف يتملص من جوابه، غير أنها ما انتبهت وما عنى لها

ذلك شيئاً، فرغبتها في مواصلة الحديث كانت أقوى من ملاحظة أمر كهذا.

- لقد عرض عليها عدة أشخاص الزواج ولكنها رفضت بإصرار وعناد، فلمن تترك أمها وتتركني؟

عن على باله أن يسأل عن فترة إقامتها في لبنان، فقد فهم أنها تابعت دراستها هناك، فكيف يتفق هذا الحديث عن تحملها تلك الأعباء منذ صغرها سأل:

- ألم تمض وقتاً طويلاً في لبنان؟

وهنا امتقع وجه العمة امتقاعاً شديداً وسألته:

- أحدثتك عن ذلك؟

أدرك أن ثمة أمراً وراء الأكمة، فأجاب:

- قالت فقط إنها تابعت دراستها في لبنان.

هزت رأسها:

- لا قضت هناك ثلاث سنوات فقط لقد أنهت دراستها هنا في عمان.

هنا دخلت دلال فصمت الاثنان.

قالت

- أنت هنا. لقد أحضرت لك كوب شاي كنت سأدخله إليك. لا أظن أن أمي تشرب شاياً.

قالتها بدون تكلف أو انفعال ولكنها دمعت في تلك اللحظة وسرت العدوى إلى الاثنين.

فكر وهو تحت تأثير تلك اللحظة العاطفية بهذه الشخصية الفذة المستضعفة التي كشفت له فراغات في تكوينه ربما لن يكشف الآن مداها. لقد أفادته أكثر مما كان يعتقد. سيعلم الآن أن لا يحكم على الإنسان من مظهره أو من مجرد تصرف أملته ضرورة معينة عليه.

احتسوا الشاي بصمت حزين وألفة شديدة وما عاد حينئذ يشعر بالغربة ولا بالنفي. أنهت العمة كوب شايها ثم نهضت من تلقاء نفسها وغادرت الصالة. سألته دلال:

- أحقيقي لن تحقد علي مهما رأيت مني؟

قال:

- دون جدال. لقد تجلت لي مزاياك الرائعة بكل سطوع، أنت صعبة المراس ولكن هذه الميزة تحسب لك ولا تؤخذ عليك.

علقت:

– لكم أكره هذا في نفسي. لكم كنت أود لو أتيح لي العيش ببساطة دون أن أضطر للقتال دفاعاً عن نفسي. ماذا أفعل؟هل يتوجب عليّ أن أشوه وجهي وأن أسربل نفسي بملابس حتى أخمص قدمي.

قال:

– صحيح. ولكنك تعيشين في مجتمع اعتاد رؤية القبح ويجب أن تأخذي ذلك في حسبانك، لابد من مراعاة ظروف الناس.

سألته بغضب:

– أتشير إلى شيء معين. لقد نهرتني من قبل؟

قال:

– حاشا الله – أنا لا أشير إلى شيء.

قالت:

– بل تشير إلى قصر ردائي وفتحة الصدر. أنا لا أظهر هكذا أمام الناس ولقد غفلت هذه الليلة عن إدراك أنك شخص آخر من الناس، فيك كل ما فيهم من عيوب.

وقف غاضباً وقال:

– هذا صحيح. إنك تقولين الحقيقة فإنني أحمل عيوب الناس. هذا ليس خطأي. لقد درجت على ذلك دون انتباه كاف، ربما ينبغي أن أتغير. سأفكر في ذلك فيما بعد. لقد فتحت عيني على كثير من العيوب، أما الآن، وطالما أنني لم أبرأ بعد من عيوبي، فسأخرج وأعفيك.

قالت:

– أنت رجل، ألا يمكنك تقبل مصادقة فتاة والاكتفاء منها بالصداقة؟

رد عليها بغلظة:

– إنك تطعنين كرامتي الآن، لا أسمح لك بذلك. تصبحين على خير.

قالت برجاء:

– اجلس من فضلك. الآن فقط كنت تقول وتؤكد أنك لن تحقد عليّ وها أنت تخرج حاقداً. لماذا غيرت رأيك بسرعة؟

قال:

– أنا لا أحقد عليك. ولكنني لا أقبل أن تطعني كرامتي.

ردت عليه:

- اجلس من فضلك. إنني أعتذر إليك.

قال:

- سوف أجلس إذا وثقت بي. إذا احترمت مشاعري؟ لقد تحملت الكثير ولكن كرامتي فوق كل شيء. إنني رجل صريح وأعبر عما في نفسي دون خوف. إنني رجل وأقبل أن اعاملك كصديقة فقط. ولكن ماذا يمنعني من الإعجاب بجمالك؟

قالت:

- سأحترم هذا أيضاً. اجلس من فضلك.

جلس وسأل:

- هل اتفقنا؟

ردت:

- اتفقنا، ولكنني أطلب إليك أن تتقبل مني ما يروقك وما لا يروقك فأنا لا أملك زمام نفسي.

أجاب :

- سأفعل.

قالت بحبور:

- تمسك بهذا الرأي.

قال:

- أصبح من واجبي الآن أن أوضح لك أمراً. إنني أعرف أي مأساة ألمت بك وأي ألم تشعرين به، وهذا ما يبقيني إلى جانبك. وليس لأنك أنثى وليس لأنك جميلة وليس لأنك مشتهاة. فأنا رجل قبل كل شيء وأعرف حدودي ولست نهاز فرص.

ردت عليه:

- أقدر لك ذلك ولن أنسى جميلك، أقول لك وأنت أيضاً شاب وسيم، إنك تجذب أنظار الفتيات.

قال:

– شكراً على هذا الإطراء.

وقفت آنذاك ثم خطت إلى وسط الصالة ووقفت هناك ثم حنت جيدها الناحل الطويل حتى لامس كتفها وأخذت تنظر إليه وهي على هذه الحال، كانت في تلك اللحظة تمارس طقساً خارقاً متحرراً من كل قيد، أمسك أنفاسه وهو يتأملها منبهراً بهذا القدر من الجمال، مأخوذاً به، مختطف القلب. يرى فيه مثالاً للجمال الذي يكفي أن تحاذيه، حتى يسبغ عليك حلة من البهاء لا تود أن تنزعها عنك ما حييت.

لاحظت بأي افتتان نظر إليها، فأرخت ساعديها ثم عادت وجلست.

قال:

– هل أملك أن أعبر عن عاطفة رجل سوي، غير طامع؟

ابتسمت وقالت:

– هات ما عندك.

قال:

– كنت في وقفتك تلك وعلى ذلك النسق كأنك تخلقين نموذجاً للجمال المتقن.

ردت عليه :

– شكراً لأنك ما أسأت فهمي، شعرت للحظة أنني حرة وأردت أن أعبر عن حريتي بحركة ما، غير أنني حين صرت في منتصف الغرفة رغبت أن ألقي عليك نظرة تشعرك بنشوتي.

ما مضى على حالها وقت طويل حتى غاض بريق وجهها، وذهبت نشوتها. لاحظ هذا التحول وخشي أن يكون ما قاله السبب فيه، غير أنه اكتشف أن لا علاقة لما قال بهذا التحول:

– سأقول لك شيئاً لا يسرك.

تكمش على نفسه كقنفذ داهمه الخطر. تابعت:

– هل تعرف لماذا أتيت بك إلى هنا؟ هل تعتقد أن دعوتي لك كانت بريئة تماماً؟

أطرق ولم يجب.

سألت محتدة:

– لماذا لا تجيب؟

قال:

- مهما كان قصدك فإن ذلك لن يؤثر على ما اعتقدته فيك وقلته لك.

ردت عليه:

- تقول ذلك لأنك نقي السريرة. لأنك لا تعرف البشر، لأنك تعيش في صومعتك مع الكتب وليس مع البشر. أنت مخطئ تماماً. لقد جئت بك لأجرعك شيئاً من الألم، فصفحة وجهك الرائقة وخلوتك الآمنة، أثارتا استيائي، فأردت أن أعرضك لوضع يفسد عليك راحتك ويبعث فيك شيئاً من الألم. كانت أمي تلفظ أنفاسها الأخيرة ولا أحد غيري يشاركني همي، لا أحد يسندني، إلا عمتي التي تحتاج لمن يسندها والتي تثير غيظي بجزعها وصمتها. فخرجت والحقد يوغر علي صدري، كانت العاصفة في الخارج توغر وغراً أشد، والشوارع مقفرة والناس داخل بيوتهم آمنون سالمون. خرجت أبحث عن خالد مصممة على أن لا أعود إلى به، لأذيقه ألم الموت فكان أن تقابلت معك. وجدتك نقياً آمناً ومطواعاً، تثير الغيظ. المدفأة لديك مشتعلة وإبريق الشاي على النار، والكتب على المنضدة في صفوف منسقة ولا ينقصك شيء، فعنَّ في بالي - آنذاك - أن أتحول إليك لأذيقك الأذى الذي ادخرته لخالد.

ما كانت ردة فعله كما شاءت أو توقعت، فما بدر منه سوى اتساع حدقتي عينيه في دهشة خرساء. فازدادت غيظاً. قالت:

- ما رأيك فيما سمعت؟

أجابها:

- هذا لا يهمني الآن.

تابعت موغلة في استفزازه:

- ولماذا لا يهمك الآن؟

أجابها بنبرة واثقة:

-أنت لن تنجحي في دفعي إلى الحقد عليك. فما بعثت بي ألماً، بل كشفت لي الكثير مما كان خافياً علي؟

دمعت عيناها وقالت:

- أقول لك ذلك ولا تحقد عليّ؟

أجابها:

- لا أحقد عليك أبداً.

- ألم يبعث فيك مرأى الموت رعشة بغيضة، ألم تنفث نظرات عمتي القاسية إلى أعماقك،

أما ساءك هذا الجو المتوتر البارد؟

أجاب:

– بلى، غير أنك كنت الدفء والحنان. لقد حنوت عليّ حتى قبل حضوري إلى هنا وهذا ما خفف عني قوة الصدمة.

– ذلك لأنني فشلت فيما أقدمت عليه، فيما عزمت على فعله وهذا لا يبرىء ساحتي.

رد عليها بنبرة عالية:

– لماذا تصرين على إدانة نفسك؟ لماذا تعودين وتكررين هذه المقولة. ما عاد يهمني ماذا جال بفكرك حينئذ، ما يهمني هو ما اكتشفته فيك فيما بعد. ما أراه فيك الآن.

قالت:

– أنت حر فيما ترى ولكنني سيئة.

علت نبرته وقال:

– إني لأحب فيك هذا السوء إذاً.

سألت:

– وأنت. أما دار بخلدك شيء سيء؟ أما وجدت في لقائي فرصة لكي تقيم علاقة مع فتاة بدت لك جميلة وكسيرة الخاطر ولا تبالي في دعوتك إلى منزلها. ألم يشكل ذلك لك كله حافزاً لتطمع بأكثر من رفقتي؟

نظر إليها ملياً قبل أن يجيب، كانت صفحة وجهها رائقة وقد انفرجت شفتاها ببسمة حذرة.

أجاب:

– اسمعي، سأكون صريحاً بقدر صراحتك. أنا لا أختلف عن غيري من الرجال في كوني بدافع جنسي أحب أن أقترب من الأنثى وأشم رائحة الأنثى، غير أنني مع ذلك من النوع العبيط كما يقولون، أضع بيني وبين الفتيات حاجزاً من الأخلاق التي تواضع عليها الناس. ولهذا انتهت علاقاتي مع الفتيات إلى الفشل عند نقطة معينة من الاحتكاك، حين أقرر فجأة أن الأمر تطور إلى أكثر مما توقعت وأنه لا يصح مني أنا صاحب المثل أن أفعل مع الفتيات كما يفعل غيري. ثم إنني أميل عادة إلى الفتاة التي تشعرني أنني الأقوى والأكثر فهماً والتي تترك لي حرية اقتراح أين نذهب وماذا نفعل. أما الفتاة المبادرة الجسورة، فإنني أحاذر أن أقترب منها. ولا أكتمك الآن أنك غاية في الجمال وأنّني ما التقيت في بحياتي كلها بواحدة في

مثل جمالك وأنني أحببت أن أقترب منك ولكن الحذر منك أرقني. كان مجيؤك إليَّ مغامرة مفاجئة ومبادرتك المستمرة أشعرتني بضعفي إزاءك وما أحببت ذلك في نفسي. ثم ساورتني الشكوك بأمرك، ثم اتضح لي أنك تقودينني إلى مغامرة وأنا ما عدت ذلك المغامر ولكنني قررت أن لا بأس في مغامرة الليلة، لا بأس في الخروج من عزلتي واكتشاف تجربة جديدة، ورأيت أنك قادرة على هزّ قناعاتي الغافية التي ما انبنت على أساس صحيح وقلت لا بأس في ذلك أيضاً، فلعلني أتعلم منك كيف أرى شيئاً آخر في الناس غير الذي كنت أراه عادة وأنا مستسلم لفكرة مسبقة ساذجة. قلت لنفسي إنك ابنة الحياة بكل قسوتها وفواجعها وأنا ابن الكتب التي كانت تمدني بلطائفها وتعزلني عن الناس. ثم أصابتني الرهبة منك من لحظات جنونك، من عينيك اللتين في لحظات غضبك تتحولان إلى فصي ماس مشعتين تنفثان غضباً. لا أعرف إن كان أحد أخبرك بذلك ولكنني أخبرك الآن. إنك تتحولين في لحظة إلى شبه ساحرة ممن وردت أخبارهن في الأساطير، فيختلط الأمر علي وتصيبني رعدة ثم لا تلبثين أن تهدئي وتصفي ويفيض منك الحنان، فأبعد عن مخيلتي تلك الصورة الشيطانية.

لقد أحببت لمسة يدك وأسرني عطرك وجذبني جسدك الكامل التناسق وقوة أنوثتك، فحذرتني من مغبة الالتفاف إلى هذا الجانب فيك أو إبداء عاطفة من هذا القبيل، فتقبلت رغبتك ليس بسبب الإيهام بإيقاع الأذى ولكن بسبب قوة شخصيتك ومزاياك الجيدة، فقررت احترام رغباتك وقنعت منك بهذا القدر من العلاقة التي أساسها احترام مشاعرك ولهذا ما عاد تحذيرك لي يفيد في إيقاع الرعب بنفسي ولا عاد اتهامك لنفسي يفيد في إيغار صدري عليك. فهل تقبلين صداقتي كما قبلت أنا صداقتك؟

نهضت مبتسمة واقتربت منه ثم مدت يدها مصافحة فنهض ومد يده مصافحاً. قالت:

- اتفقنا.

كرر قولها:

- اتفقنا.

قالت:

- أضيف إلى معلوماتك شيئاً، إنني حاولت أن أتقمص فعلاً دور ساحرة شريرة تبدي ضعفها لكي تسمح لضحيتها بأن تأمن جانبها ثم تنقض عليها. غير أنّني فشلت معك هذه الليلة ولم أقو على المضي في دوري.

قال:

- هذا أفضل.

حنت رأسها وهما ما زالا واقفين متقابلين ولاح في محياها قليل من الأسى ثم قالت:

- ومع ذلك. ليس الأمر كله تمثيلاً، فأنا أخرج عن طوري فعلاً، أتصرف بدافع أحقاد مستحكمة في نفسي ولا أعرف آنذاك ماذا يمكن أن يصدر عني. توقع مني مثل ذلك. فقد يحدث لأي سبب ولكن اطمئن لأن شواظ غضبي لن ينصرف إليك، بل ربما يصيب من يتعرض إليك.

ثم ابتعدت عنه ورفعت رأسها، ورآها حزينة أكثر مما نطق به الوضع الذي بلغاه. قالت:

- أنت لست غريباً الآن. هل تسمح لي بزيارة والدتي؟

تركته وذهبت.

كان خروجها من الغرفة ضرورياً ومستحباً ليحظى بخلوة تسمح له بإعادة التفكير في كل ما جرى وإعادة محاكمة كل ما جرى. ولكن هل بوسعه أن يفعل ذلك بمنأى من تأثيرها؟ هل الوقت الراهن يصلح لمحاكمات من هذا القبيل؟هل اتضحت الصورة تماماً وزالت غشاوتها ؟ هل هدأت مخاوفه تماماً.

خطا باتجاه النافذة، ولاحظ سرعة الرياح وقوة اندفاعها وما تسببه من فوضى واضطراب. الوضع هنا. يختلف عما كان عليه في غرفته. هناك المساحة أكثر بكثير والأشياء التي تحيط به تقوم بينه وبينها ألفة محببة. هناك لا ينظر إلى الجدران البيضاء المساحات، البلهاء الخالية من الحياة، بل ينظر إلى قطع أليفة إليه، أما هنا فالمساحة الكبيرة نسبياً في مساواتها بمساحة غرفته لا تضم إلى هذه المقاعد وهي أربعة مفردة وتكفي لشخص واحد وواحدة تتسع لثلاث أشخاص ومنضدة وسط تحيط بها ثلاث أصغر، وجدران عارية وبابان وممر والنافذة. ليس لهذه الصالة خصوصية الغرفة حتى إنها مجرد مساحة استخدمت بالضرورة للجلوس.

نظر إلى المكان ورأى فيه ذلك الرأي الذي خطر بباله وهو متشبث بالنافذة بغير ما رغبة في الابتعاد عنها ومعاودة الجلوس. ومع أن العاصفة بحد ذاتها في انفصالها عنه واندفاعاتها المحمومة لا تجلب له أية متعة إلا أنها كانت أفضل من الجلوس هناك والتحديق في ذلك الفراغ أو محاولة التفكير في التفاصيل التي لا حصر لها، التفاصيل التي يصعب عليه تناولها بموضوعية

الآن. العاصفة أمامه والموت البارد خلفه، ترك النافذة بعد مكوث ما أسعفه بشيء وأخذ يخطو في الغرفة لمجرد تمضية الوقت، في انتظار عودة دلال.

ما كاد يجلس ويستعيد مشهد دلال الدافئ وهي تنهض وتمد يدها مصافحة، ليستعين به على هذا الفراغ القاسي، حتى سمع نحيبها. كان من القوة حتى يظن أن وفاة أمها حدثت الآن فقط. تواصل النحيب شجياً آسراً، يجرح الفؤاد ويثير الأسى. لقد انساح بقوته في أركان المنزل كله وأخذ في طريقه أثر كل تلك اللحظات العنيفة والحميمة والتي صادفت رضى في نفسه، المشاحنات التي لا تلبث وأن تزول لتحل محلها ملاطفات طيبة الأثر، تخفف من وحشة هذا الوضع المكرب الغريب. وكأن شيئاً من تلك اللحظات ما كان، فقد حل الحزن البغيض وطوف الموت في فضاء المكان.

أقلق نحيبها راحة العمة أيضاً، فخرجت من غرفتها ولجأت إلى الصالة عوضاً عن التوجه إلى دلال وتهدئة خاطرها. كانت فزعة أيما فزع، ترتدي قميص نومها وتضع شالاً على الكتفين. جلست على المقعد الطويل الذي على يساره في محاذاة الجدار المقابل للمطبخ ورفعت ساقيها على المقعد كأنها تهم بالنوم هنا، غير أنها سرعان ما نهضت واندفعت إلى المطبخ وعادت ساخطة.

قالت:

- لا يوجد خبز.

ما استوعب كلامها وما أدرك علة اندفاعها إلى المطبخ وخروجها ساخطة، وما كان عليها من الملابس ما يكفي لاخفاء تشوهات جسدها، فقد بدت له هيكلاً عظمياً مفزعاً يثير قلقه وتوتره.

قالت وهي تلوب على ذلك النحو المزعج:

- لا يوجد ما يؤكل.

نظر إليها بازدراء شديد ثم أشاح عنها، غير أن إشاحته ما عفته من القلق والتوتر اللذين بعثتهما في نفسه، فنهض وفضل أن يذهب حيث دلال والجثمان، فاحتمال مرأى الجثمان وبؤس دلال أخف وطأة على نفسه من مشهد العمة.

وقف في الفجوة الصغيرة التي تفصل الصالة عن غرف النوم وأسند ظهره إلى الجدار عازفاً عن الدخول إلى غرفة الموت أو العودة إلى الصالة. خفت النحيب الآن وربما هدأت حركة العمة أيضاً فحل عليه في تلك اللحظة، وفي تلك البقة المحدودة ضئيلة المساحة سلام آني على قدر تلك المساحة من الضآلة. كان بوسعه وهو يسند ظهره إلى الجدار أن يمد ذراعيه وأن يلامس الجدار المقابل. كانت تلك البقعة، الملجأ والمخبأ الوحيد، المكان الفاصل والمفصول، الواصل والموصول، بؤس على بؤس وفزع على فزع، موت حال وموت سيجيء، هذا ما يخامره الآن ويتركه أسير تلك البقعة، فلا الشمس التي تؤنس ناظم حكمت في سجنه ماثلة الآن ولا باقة الأزهار التي استنفدت آخر قرش في جيبه والتي بعثت في زوجته بهجة أخرى ماثلة الآن. العالم الآن أكثر ظلاماً وانخسافاً، أكثر بؤساً، العالم الآن موزع بين موت امرأة وبين امرأة في طريقها إلى الموت، تتشبث بالحياة دفعاً له.

وهنا شابان، فتى وفتاة، في غضارة العمر، في أوج ازدهاره حبيسان بين الموت وانتظار الموت. أية لعنة هذه؟

اكتشف قطعة سجاد عتيقة كشفها الضوء الآتي من غرفة النوم. سحبها وجلس فوقها ومد قدميه، فبلغا الجدار المقابل، مكث على هذه الحال. قدماه تستندان إلى الجدار المقابل وراحتاه فوق ركبتيه وجذعه محني في شبه قوس.

هذه لحظة عابرة وأبدية في آن واحد، قد يختلف الأمر نهار غد، غير أنه لا يملك استطلاعه الآن، فيا للتعس. إن أنشطة جسده حبيسة الآن وإنه لينوس، إنه لينوس.

يبدو أن دلال اكتفت بما نزفت وآن لها أن تغادر الجثمان، خرجت من الغرفة ورأته على هذه الحال، يسد الطريق ودون سؤال أو حيرة جلست على طرف قطعة السجاد، كتفها ملاصق لكتفه وساقها ملاصق ساقه. أحس بوجودها، تدفق الماء في شرايينه وعاد دفق الحياة إليه، غير أنه ما نطق ولا تحرك ولا رغبت هي في قول شيء. مكثا على هذه الحال فترة ما طالت كثيراً، فقد جاءت العمة ووقفت فوق رأسيهما كشيطان بغيض، كعنقاء الأساطير التي تحمل الشؤم. قالت:

– أنا جائعة ولا يوجد خبز.

رفعت دلال رأسها حانقة، وقالت:

– ماذا أفعل. غفلت عن شراء الخبر احتملي هذه الليلة. من أين أجيء لك بالخبز الآن؟

أدرك جلال أن طلب الخبز أمر ضروري وقد يحس هو بالجوع أو دلال.
نهض ووجه كلامه لدلال:
– لدي خبز في المنزل. دعينا نذهب ونأتي به.
كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة التاسعة والنصف تماماً حين قررا الخروج لجلب الخبز وما بدر من أي منهما ما يشير إلى أبعد من ذلك.

غير أن الرغبات المكبوتة تعلن عن نفسها دون سابق إشعار أحياناً، لدى أدنى إشارة خارجية، فحين أغلقا الباب خلفهما وواجها العاصفة الشديدة البرودة التي أخذت عنوانها الآن، انبثقت من داخله رغبة محمومة في التعبير عن حريته المفقودة، في التماس مساعدة الطبيعة له في إخراج كل ما احتبس في صدره من قهر وفي إطلاق قيد حواسه. كانت ريح صرصر تجتاح المدينة وتضرب بشدة أسلاك الهاتف والشجر والصفيح والأوراق المهملة وتطلق عويلاً حاداً ومغن بائس الصوت يطلق حنجرته فيحمل الصوت جهاز يساعد في نشازه.

أحس بحريته في تلك اللحظة المجنونة التي خرج فيها وانفلت من أسر الموت ونزع رداءه القاتم، فتلبث في مكانه عارضاً صدره مستعذباً لذعة البرد. أما دلال فلم تحظ بمثل هذا الإحساس في تلك اللحظة، أسرعت إلى السيارة دون أن تعطي لبقاء جلال أية أهمية. أدارت المحرك وراحت تضغط على دواسة البنزين لتنشيط دورة المحرك وإعطائه الحرارة الكافية. ورأت نفسها تتجاوب ببطء مع ما يجري.

الريح سيدة الساحات الآن، تمارس جنونها وهبوبها المندفع لا إلى غاية، الريح تجري في المطلق والإنسان أسير الواقع، أسير الواقع الآني المحدود.
ترك نفسه نهباً للريح تأخذ منه اكتئابه وقهره وتمضي. ترك نفسه تخرج من آنيتها وتلامس المطلق. الفضاء أسود دون نجوم والريح تهدر وتجري فالتة من كل حد وحاجز.

طالت وقفته، فأطلقت صافرة سيارتها. لحق بها وأخذ مكانه إلى جانبها وقال:
– ما أجمل أن نكون أحياء، نتنفس الهواء الطلق، ما أجمل أن نعرف أن لنا غداً آخر، فنخرج لشراء قوت اليوم الآخر.
سألت:

- وإن لم يكن؟

-عندها أتمنى لو يتحلل جسدي إلى ذرات تتطاير مع الريح.

- وأنت ؟

أجابت:

- أنا لا فرق لدي.

- لا ينبغي أن تقولي ذلك. أنت في مقتبل العمر.

قالت:

- أنا في مقتبل العمر، غير أن بهجتي ماتت منذ زمن بعيد.

عالت عويلاً طويلاً مصاحباً لعويل الريح الذي كان يسمع بوضوح تام. نفثت غلها في عويل حاد متصل.

سايرها وعال أيضاً نافثاً ما رزح على صدره من ضيق.

عالت وضغطت على دواسة البنزين بشدة أكثر.

قالت:

- لكن أود الآن أن أنطلق بأقصى سرعة ممكنة، لا يعترض طريقي شيء ولا يسألني احد أين أنطلق.. أنطلق وحسب. ما رأيك؟

كان مهيأ لمثل هذا وأكثر. كان بحاجة إلى لحظة انفلات لحواسه، بالغة المغايرة ومتضادة مع ذلك الكبت الذي فرض عليه. دعك كفيه الواحد بالآخر في استجابة تلقائية واستنهاض لهمته ثم علق:

-إنها لفكرة رائعة، تتفق مع مزاج العاصفة وتستجيب لغوايتها.

لو كنت في ملجأ الأن، غافلاً عن هوجاء العاصفة ومنفصلاً عنها، لو لم تمسني بعبثها الرائع هذا، لو لم تفتني بعنفها، لرأيت في قولك ضرباً من العبث إن لم أقل من الجنون. أما الآن وبعد أن تعرضت لهجمة العاصفة وأثارت حواسي، تملكني إحساس مشابه. أود الآن أن أمضي معك في مغامرة غير محسوبة النتائج. دعينا نذهب إلى البحر الميت، حيث الطريق يمتد ويمتد وحيث بوسعك الانطلاق بأقصى سرعة ممكنة.

تجاوبت مع الفكرة وعقبت:

-فإما أن نبلغ البحر أو نبلغ الموت.

تبعها في رؤية مشابهة وفي انسجام كامل.

- نسير على الحد الفاصل بين الحياة والموت.

سالت:

- أجاد أنت ؟أنا مهيأة لأكثر من ذلك.

أجاب:

- كل الجد.

- ولن تصيبك رجفة ولن تخاف.

- الليلة خرجت نفسي من جحرها وانفتح أمامها المدى الأوسع.

- أنت شريك كامل الشراكة إذاً. أنت رفيق ليلة رائعة. لكم أود أن ألقي نفسي في مياه البحر واغتسل بمياهه المالحة وأغسل تاريخاً من البغضاء والأثم والخوف.

التفت إليها وتساءل:

- أتخافين أنت؟ أتعرفين الخوف؟

أجابت:

- ألست أنا من البشر المحدودي القدرة، الضعفاء. إنني ممتلئة خوفاً حتى أخمص قدمي، أخاف من الناس أجمعين وأخاف من نفسي أكثر. آه لو أستطيع أن أنتزع الخوف من نفسي، إذن لعشت حياة سوية. وأنت؟ ألا تعرف الخوف أنت؟

أجاب:

- بلى، إنني لأخاف خوفاً مستديماً. أليس في سلوكي كله، أليس انضباطي وتزمتي إلا تعبيراً عن الخوف؟أحاول أن أبقي حياتي مبرأة من كل عيب، شريفة وطاهرة ولكن كيف وبأي مقياس؟ في تجنب الناس وبمقياس اعتباراتهم وأحكامهم، لذلك كنت أبتعد عن أية تجربة لا اعرف حكم الناس فيها، لا أعرف نتائجها مسبقاً ولا إلى ما ستنتهي إليه. أليس هذا خوفاً؟لقد وجدت نفسي مدرساً في وقت مبكر وأنا ما زلت في سن الطيش. الكل يعرفني ويبجلني ويشترط عليّ بدون لفظ صريح، أن أتجنب الطيش ونزق الشباب، فتمردت وتركت وظيفتي وجئت إلى عمان وفي عمان ومع أول انطلاقة لي في عالم الفكر، الفكر الذي استهواني وأجاب على أسئلتي، أدركت خطورة هذا الفكر. إنه ممنوع، مصادر، فحرصت على إخفائه وعدم إظهاره إلا في أضيق الحدود ومع من يتفق معي فيه، فجاء اعتقال صديقي ليهدَّ أمني ويبعث في خوفاً، حتى أنني هذا المساء حينما سمعت طرقك على الباب اعتقدت أنهم جاؤوا ليقبضوا علي. فارتديت

ملابسي فوق المنامة استعداداً لمجابهة لا بد منها.

وحين دعوتني إلى منزلك خفت وحين جلست على سريرك بتلك العفوية ولمحت أنوثتك الطاغية خفت. وتسألينني عن الخوف إذاً. لكن الخوف شيء والاستكانة لمتطلباته شيء آخر. لقد خاف الإنسان الطبيعة لجهله بها فقاوم مخاوفه باجتراح الأساطير واختراع وسائل الحماية. ولو بقي أسير خوفه لما زاد عن الحيوان بشيء.

أنا خفت واستكنت، حتى جئت أنت لتوقظيني من غفوتي واستكانتي ولتبعثي بي دفقاً جديداً.

كانت تصغي إليه وتضاعف من اهتمامها، فخاف من مغبة الاسترسال في الحديث. قال:

- انطلقي بربك. انطلقي الآن.

وضعت الغيار الأول واندفعت وعند بلوغ الشارع العام انحرفت إلى اليمين ثم وضعت الغيار الثالث وانطلقت بسرعة تنهب سيارتها الأرض نهباً.

قال:

- كم هذا رائع. كما لو أننا نسير على الحد الفاصل بين الحياة والموت.

علقت:

- وإذا متنا.

أجاب:

- في هذه اللحظة.. "طز".

رددت بعده:

- "طز".

ثم عالت وزادت في سرعة السيارة.

-عند عطفة الشارع باتجاه ناعور، كانت سيارة الشرطة تسد الطريق. تفاجأت دلال، فانحرفت يسار الطريق انحرافاً خطراً مستعملة الأغيرة العكسية وتوقفت بعيداً عن سيارة الشرطة.

قال جلال الذي كان في أوج نشوته:

- مجنونة. لماذا توقفت؟

أجابت:

- هؤلاء لا يجدي العبث معهم.

ترجل من سيارة الشرطة، شرطيان واقتربا منهما وتفحصاهما بريبة ثم طلبا أوراقهما الثبوتية. تفحص أحدهما أوراق السيارة بينما وقف الآخر يحدّق فيهما، باحثاً في تعابير وجهيهما عما يريب. سألهما:

- من أين قدمتما؟

أجابت دلال:

- من جبل عمان.

- وإلى أين تتجهان؟

قال جلال:

- إلى الجحيم. ماذا يهمك أنت؟

ضحك الشرطي ضحكة سخرية وأجاب:

- ستعرف عما قريب.

تهامس الشرطيان ثم عاد أحدهما إلى سيارته بينما وقف الآخر يراقبهما بعينين غاضبتين. شغلت دلال محرك السيارة، ظناً منها أنهما فرغا من مهمتهما، فقال الشرطي لها:

- أهدئي.

سألت جلال:

- لماذا؟

قال:

- لا أعرف.

علق جلال غاضباً:

- إنه لا يعرف وكفى.

طالت غيبة الشرطي الآخر دقائق بدت كأنها أطول مما ينبغي، ونفذ صبر كل منهما وهما مجبران على الوقوف وانتظار ما يجهلان. لقد أعيدا بقوة جبرية إلى واقع بائس، انفلتا من سطوته لدقائق معدودة فقط. دقائق ما كانت كافية للسماح لهما بممارسة نشوتها. انطلقا للحظة من كل من أساء لهما في هذه الليلة الدامية المريعة. قالت دلال:

- لا مناص. لا مهرب من الواقع.

ثم سألت الشرطي بانفعال:

- لماذا تجبرنا على الوقوف. ماذا حل بزميلك؟

قال:

- ستعرفان بعد قليل.

عاد الشرطي الآخر وقال لزميله على مسمعهما:

- سيذهبان إلى مخفر زهران.

سأل جلال بغضب:

-ولأي سبب؟

أجاب:

- لا أعرف.

- من الذي يعرف إذاً؟

أجاب:

- شرطة زهران، ستذهبان وستعرفان بنفسيكما.

ما هي إلا لحظات حتى جاءت سيارة شرطة أخرى وترجل منها شرطي، تحدث إلى زميله ثم طلب من جلال أن ينتقل إلى المقعد الخلفي وأخذ مكانه. قال لدلال بغلظة شديدة:

- استديري وسيري نحو مركز شرطة زهران.

سأله جلال:

-ولماذا هذا الأذى. ماذا تريدون منا؟

أجاب:

- لا أعرف. إنها الأوامر.

استجابت دلال دون ان تنبس ببنت شفة. وأدرك جلال بألم محض أن العبث مع هؤلاء لا يجدي فعلاً، فتكمش في مقعده وانتظر بقلق ما ستفسر عنه هذه الدعابة السمجة.

قال للشرطي:

- أأنت سعيد بهذه المهمة؟

لم يجب الشرطي.

- أتشعر بالزهو لأنكم انتصرتم في معركة غير متكافئة، حيث خصماكما ما أبديا مقاومة؟

لم يجب.

وجد جلال أن صمته أفضل له، فصمت.

وصلوا مخفر زهران. قال الشرطي:

- خذي يمينك وقفي.

أخذت يمنيها وأوقفت السيارة. ترجل الشرطي بسرعة وأمرهما بدخول مركز الشرطة. ترجلا وأتجها إلى باب المركز. دفع الشرطي جلال إلى الأمام فالتفت إليه وقال:

-لماذا العنف؟ماذا فعلت لك؟

ما كان دخل مركز شرطة من قبل ولا أحب الدخول. ما دخل مركز شرطة من قبل لا مكرهاً ولا بطوعه ولا يعرف كيف هو من الداخل وأي جو مشحون بالتوتر سيصادفه. كانت دفعة الشرطي له وحدها كافية لبعث أشد نوازع القلق فيه.

عبر باب المخفر كان المدخل خالياً من رجال الشرطة. أدخلهما أول غرفة إلى اليسار، حيث كان يجلس ملازم يتحدث بهدوء إلى جليسه. ورأى في ملامحه طيبة غير متوقعة دفعته لأن يأمل خيراً، لفت دخولهما انتباه الملازم وجذب انتباهه على وجه الخصوص دلال التي بدت أكثر رفعة وأنفة من أن تتقبل هذا المكان. ابتسم الملازم وهو يرى شخصين لا تشي ملامحهما بأية خطورة فالتفت من ثم إلى الشرطي مستفهماً.

قال له:

- سيدي جماعة راس العين.

أعد جلال على الفور خطبة بدت له تحمل وجهة نظر مقنعة، تزيل الالتباس وتدفع عنهما هذا الهم الذي حط عليهما من غير موعد.

أما دلال فقد أعاد لها دخول المركز ذكرى محنة قديمة أليمة، فتصدع تماسكها وتزلزل كيانها وما عادت بكافية كل تلك الشواغل التي أشغلتها عنها على مر السنين وجعلت منها نقطة صغيرة، يسهل تجاوزها، فأصابها الكمد والضيق وأخذتها رجفة شديدة.

أبتدأ جلال خطبته دون أن يوجه له أي سؤال غير أن الملازم لم يوله اعتباراً بل أشاح عنه وتابع حديثه مع جليسه.

لاحظ جلال توتر دلال، فقال:

- حضرة الملازم. إنني أتحدث إليك.

رد الملازم بتوجيه الكلام إلى شرطي دخل في تلك الإثناء وقال له:

- خذه وحقق معه واترك الفتاة هنا.

بهت جلال وامتلأ غيظاً. قال وهو يتفلت من قبضة الشرطي:

- أنا لست مجرماً.

رد الملازم.

- لا بسيطة. شروع في السرقة والقتل فقط.

خرجت دلال عن طورها تماماً وقالت:

- اتركه إنّه ليس مجرماً.

ابتسم الملازم وقال:

- ليس الأمر بهذه البساطة.

ثم قال للشرطي آمراً:

- خذه حالاً.

قال جلال:

-أطالب بقليل من الاحترام.

قال الملازم:

- دعهم يحققون معه باحترام.

التفت إلى جليسه وكأن ما حدث كان أمراً مألوفاً لا يستحق منه أكثر من الجهد الذي بذله. أهمل دلال أيضاً وصرف دقائق في محادثة جليسه الذي نهض وحياه مودعاً. خلت الغرفة إلا من الملازم ودلال فحدق بها وهي تجلس ناكسة الرأس محتقنة الوجه ولما أطال في تحديقه رفعت راسها ولمحت عينيه تلك الرغبة الجسدية التي تستفز غضبها وحقدها. نهضت وتقدمت منه حتى صار لا يفصلها عنه سوى المنضدة. صوبت إليه شواظ عينيها التي تحولتا إلى فصي ماس.

أخذ الملازم بشواظ عينيها فوجم. قالت:

-ماذا تريدون منا؟ أتريدون اللهو بنا؟

قال:

- معاذ الله.

ثم أشاح عنها بالنظر إلى قصاصة ورق.

- لماذا كنت تقودين السيارة بسرعة؟أهرباً من ملاحقة أحد؟

ردت عليه:

- بل هرباً من الموت. أمي هناك على سرير النوم، جثة هامدة، ماتت الليلة. الليلة. أتفهم؟ أتعرف معنى أن تموت أمك وأي حزن وجزع يتملكك، حين لا تستطيع دفع الموت عن أحب الناس إليك. قل لي أيها المطمئن المستريح. المحاط برجالك، أيها السيد المطاع الذي يأمر بالتحقيق والسجن والضرب.

قال وهو لا يجرؤ على مواجهتها:

- احفظي كلامك من فضلك.

قالت:

- ماذا يمكنني قول غير هذا حين تقبض علينا دون ذنب وتأتي بنا إلى مركزك، حيث القوة والسيطرة لك وتتهمنا بالشروع في السرقة والقتل.

قال:

- أنا لا أتهمك. أنتما موضع شبهة.

علا صوتها:

- موضع شبهة لماذا؟كيف يكون الإنسان وهو يسير في سيارته موضع شبهة؟

قال:

- لماذا كنت مسرعة إذاً؟ماذا كنتما تفعلان هناك؟

قالت:

- خرجنا لشراء الخبز لأن لي عمة جائعة وهي لا تطيق الجوع، فخرجت للحصول على خبز وأطلقت لسيارتي العنان. أين الجريمة في ذلك، إذا كانت جريمتي السرعة، فحرر لي مخالفة لكن لا تتحدث عن السرقة والقتل.

كانت درايته بالمجرمين تهيب به أن يأخذ كلامها على محمل الجد وأن يأمر بتركهما وشأنهما في الحال، غير أنه ما كان قادراً على ذلك، لانه تورط بإصدار الأمر بجلبهما ولأن ثمة جريمة، تستلزم الاشتباه بأي كان، فقد تسلق أحد اللصوص منزلاً في محاولة للسرقة وطعن رب المنزل بسكين ثم لاذ بالفرار وما نجحت بقية الأسرة في تعقبه لأن شخصاً آخر كان ينتظره في سيارة ورغم أن السيارة تلك كانت سيارة نقل على ما أكد أهل المجني عليه، إلا أن الحيطة لازمة والاشتباه يطال كل من تواجد في المنطقة في ذلك الوقت. ليس هذا فقط، فقد

لاحظ المحقق فيما بعد بقعة دم على سترة جلال أوجبت الشك فيه أكثر. وكان المحقق يتنقل بين غرفة التحقيق وبين غرفة الملازم ويطلعه على ملاحظاته. ثم أن دلال أساءت إليه وأراد أن يرد الأساءة إليها بإبقائهما قيد الحجز فترة أطول.

قالت دلال:

- هل يمكن أن أجري مكالمة؟

أجاب :

- لا. ممنوع.

احتدت دلال أكثر وقد بدا جلياً أنها خرجت عن طورها تماماً وأنها في حالة قد ترتكب معها فعلاً طائشاً ومؤذياً، مما سبب له إرباكاً لا يريده.

سأل:

- مع من؟

قالت:

- ما رأيك، مع شخص ألهو معه؟ مع الطبيب الذي سيرسل سيارة نقل الموتى لأخذ والدتي إلى غرفة الموتى.

قال:

- تفضلي.

أصغى إليها وهي تلقي تحية المساء وتسأل عن الدكتور أحمد ثم وهي تحييه وترجوه أن يحضر إلى مخفر زهران لأنها محتجزة فيه.

في غرفة التحقيق، حيث ترك جلال وحيداً لدقائق، واجه طيفاً من الاحتمالات، كان أقلها حظاً حسب توقعاته أن يساء إليه ولذا جلس مطمئناً وأحجم عن سرد تفاصيل ما حدث كما أهمل شأن الخطبة التي أعدها على عجل والتي ما حظيت باحترام الملازم واكتفى بنفي التهمة.

قال له المحقق:

- أذا لم تتعاون معنا سوى نريك نجوم الظهر.

رد عليه جلال:

- إنك توجه لي تهمة لا أساس لها من الصحة، فكيف تريدني أن أعترف بتهمة حقيرة

كهذه.

صار يسمع جلبة لا يعرف سببها واضطر لمواجهة عدد من رجال الشرطة كانوا يدخلون غرفة التحقيق وينظرون إليه ثم يخرجون. وبدت له غرفة التحيق بجدرانها البيضاء المتسخة سجناً للروح والجسد، وقف المحقق واقترب منه وأخذ يتفحصه جيداً ثم لاحظ بقعة دم جافة على سترته فكبرت شكوكه واعتقد أنه أمسك بالدليل القاطع الذي سيساعده على كشف الحقيقة بحيث لا يترك له مجالاً للإنكار. أسرع إلى غرفة الملازم واعلمه هامساً بما شاهد وأخذ تعليماته وعاد.

في خلال غيبته، طفرت دمعة من عيني جلال الذي أصابه قهر شديد، فجفف دمعه وقرر أن يتماسك وأن يرد الصاع صاعين ما دام الأمر بلغ هذا الحد من السوء.

دخل المحقق مبتسماً وقال:

- لا تخش شيئاً. لا أحد يتهمك بشيء. أنا معك تماماً التهمة لا أساس لها من الصحة. ولكن قل لي. لماذا يوجد دم على سترتك؟ هل تشاجرت مع أحد؟

ما كان يعتقد أن الدم سقط على سترته. باغته السؤال ووجد في بقعة الدم ما يعطي للمحقق فرصة إيقاع الأذى به، فصعب الأمر عليه، وما رغب الخوض مع المحقق في الحديث عن تفاصيل ما حدث معه والذي قد يسبب إساءة لدلال ولكنه في نفس الوقت ملزم على قول الحقيقة تجنباً للآثار السيئة، ثم أن المحقق يملك الوقت الكافي وهو في عجلة من أمره.

أجاب:

- نعم تشاجرت مع أحد.

زها المحقق وقال:

- هذه بداية طيبة. دعك من الخوف، نحن لا نستعمل الشدة هنا. تحدث على راحتك.

قال:

-ذهبت مع الفتاة إلى مقهى سيء السمعة لنسأل عن شقيقها هناك، فقد علمنا أنّه يجلس هناك وهي بأشد الحاجة إليه لأن أمها كانت تحتضر.

هز المحقق راسه أسفاً وعقب:

– إنه لأمر محزن. تابع:

قال:

– أساء إليها أحد الأشخاص بكلام جارح فتشاجرت معه.

كتم المحقق غيظه لأن الإجابة بدت له كاذبة ومراوغة، غير أنه أراد أن يمضي معه ويأخذ منه مزيداً من التفاصيل ثم ينقض عليه.

فكر قليلاً ثم أجاب:

– نعم، إنه منحرف على ما علمت. أنا لا أعرفه ولكنني أردت أن أقدم خدمة للفتاة.

بلغ الغيظ بالمحقق حداً كبيراً، فقال له:

– أنت تكذب وأنت تعرف ذلك. إنك تلعب لعبة خطيرة ستجعلني أغير من أسلوبي وألجأ إلى العنف، إذا لم تقل الحقيقة.

ابتسم جلال بوهن، فذلك آخر ما يتمناه، تبادر إلى ذهنه فكرة أنه يملك الدليل على صحة كلامه، فالملازم في مركز شرطة المدينة لا بد وأن يتذكر وجهه ويتذكر قصة الصحفيين اللذين عزما على إجراء تحقيق حول مقاه الحشيش والقمار، غير أنه ما أطمأن لسلامة هذا الدليل. قال:

– هذه الحقيقة بعينها.

هدأ المحقق من غضبه وقال:

– لماذا التجأت إليك؟ هل أنت من رواد هذه المقاهي ؟

أجاب:

– قطعاً لا، هل أبدو لك كذلك. أنا مدرس سابق وطالب جامعي الآن.

قال المحقق ساخراً:

– ذلك واضح على محياك. وهذا يدعوني إلى سؤالك أن تفسر لي لماذا تستعين بك الفتاة ما دمت طالباً جامعياً ولا تعرف هذه الأماكن؟

رد حانقاً ومحبطاً لعجزه عن إقناع المحقق بقصة يعرف كم هي عصية على الفهم:

– ذلك لأنني سكنت ذات المكان الذي كان يسكنه شقيقها من قبل. وقد جاءت تسأل عنه معتقدة أنه ما زال هناك وحين اكتشفت رحيله رجتني أن أسأل صاحب الملك. أنا أسكن شقة صغيرة في ملك محمد سلمان أبو هويمل وهو الذي أشار إلي بالذهاب إلى هذه المقاهي.

– إذا أنت تسكن في ملك أبي هويمل؟

أجاب:

- نعم وهل هذا يجعلني سيئاً مثله؟

رد عليه مغاليا ً في سخريته:

- لا أبداً... سلامتك... أنت شخص محترم. وما اسم شقيقها؟

اجاب:

- خالد تمر هندي.

همهم المحقق مرة أخرى. ثم تركه وذهب ليزود الملازم بهذا الاكتشاف وعاد. ابتسم وقال له:

- أرح أعصابك. دخن لفافة. لماذا أنت متشنج؟ كيف تنظر إلى هذه الأمور؟ أبو هويمل وخالد تمر هندي. أنت تسكن في ملك أبي هويمل وتذهب في صحبة شقيقة خالد تمر هندي للبحث عنه. دخن لفافة. فكر. لا تستعجل الجواب.. أمامنا متسع.

أجاب:

- ليس ثمة حقيقة سوى هذه.

رد عليه المحقق بغضب:

- أنت تكذب. أنت كاذب ماهر. هل تعتقد أنني مغفل؟

أجاب جلال:

- معاذ الله.

- إذن قل الصحيح مع من تشاجرت. إنس قصة المقهى هذه، التي لا يقبلها مغفل وقل لي مع من تشاجرت، سأعطيك فرصة أخيرة. سأتركك وحدك تفكر ثم أعود إليك.

تضاءل طيف الاحتمالات وأدرك جلال أنه بين فكي كماشة وراح بدون أمل في انفراج، ينتظر عودة المحقق، أما دلال فقد جلست في صمت مهيب تنتظر مجيء الدكتور أحمد. كانت تعرف أن له علاقات بذوي النفوذ من شأنها انقاذهما من هذا المأزق.

عنّ على بال الملازم وقد تزود بالمعلومات واستعاد رباطة جأشه أن يوجه لها أسئلة علها تساعد في التحقيق.

قال لها:

- أأنت شقيقة خالد تمر هندي؟

رفعت رأسها وحدجته بنظرة قاسية وأجابت:

- نعم.

- أتعيشان معاً؟ أعني يشاطركم السكن أم يعيش مستقلاً؟

أجابت :

- لا بد أنك تعرف الجواب.

ساءه أنه ما أضعف ثقتها بنفسها فسألها:

- أين هو الآن؟

أجابت دون أن تنظر إليه:

- في السجن.

وهنا التمعت في ذهنه خاطرة تعينه على الإيقاع بها.

همهم وقال:

- في السجن إذاً. حسن لماذا ذهبت للبحث عنه؟

حدجته مرة أخرى وقالت:

- لأنني ما كنت أعرف. أخذنا هذه المعلومة من نادل في أحد المقاهي.

وقفت وتابعت:

- اسمع. لا تتخابث معي. أنا أعرف أن أخي مفسد منحرف وقد كنت بحاجة إليه رغم ذلك لأنني وحيدة في المنزل وأمي تحتضر واحتجت لمساعدته. إنها أمه أيضاً.

سقطت حجة الملازم القوية وفقدت أهميتها وبدلاً من أن يبحث عن سؤال آخر ومصيدة جديدة، أدرك صدق قولها الذي تطابق مع ما نقله إليه المحقق جلال. هما في غرفتين منفصلتين ويقولان نفس الكلام، لكنه سرعان ما تشكك بصحة هذا الاستنتاج، فما يدريه أنهما اتفقا على تلفيق هذه القصة، ولكن متى وأين، فما أعطيا فرصة لذلك. أنه أمر محير.

ما عاد راغباً في احتجاز فتاة بريئة ذات أنفة ورفعة واضحتين ولا قادراً على أن يدعها تذهب بسلام. أرسل بطلب المحقق وفي حديث هامس، أفضى إليه بما يساوره من ظنون، تهيب به إلى قبول أقوالهما لما بينهما من تطابق وإخلاء سبيلهما، غير أن المحقق رأى خلاف ذلك، فقد تهيأ له أنه نفذ إلى صلب جلال واقترب من النجاح، فعز عليه أن يدعه يفلت من يديه دون أن يحقق الغنيمة التي رآها رأي العين. قال:

- أعطني عشر دقائق فقط. دعني أحقق مع الفتاة لاكشف الثغرة في اقوالهما.

أذن له الملازم وهو غير راض تماماً. قال له:

- جرب حظك، فقد تأخذ برأيي أو تجد ما يدعم ظنك.

نفذ المحقق خطته في الحال، فارسل جلال إلى مكان الاحتجاز ليوقع في ظنه أن التهمة ثبتت عليه سواء أعترف أم لا، وأجلس دلال مكانه.

مكان الاحتجاز أو الزنزانة، هو غرفة مغلقة بباب من الحديد المصفح، فوق نصفها بقليل فجوة صغيرة مغلقة من الخارج وتنبعث منها روائح عطنة والإضاءة فيها شحيحة. ثمة عدد من الأشخاص يتوزعون الأرض جلوساً ويبعث مرآهم مزيداً من الغم في النفس. لم يعرف ماذا يفعل بعد أن صار محشوراً داخلها، أيجلس كما هو حال الآخرين أم يظل واقفاً في رجاء عسير أن لا يطول بقاؤه؟

ما بذل جهداً في إحصاء الموجودين وما اكترث، كان كارهاً لكل شيء ولكل شخص. ظل على وقفته التي أثارت السخرية. قال أحدهم:

- أول مرة يفعلها أكيد.

ضحك الآخر وعلق:

- يظهر أنه غشيم الصنعة.

قال الأول:

- معك حق.

ثم نظر إلى الأرض وقال:

-ما لنا وله. مشكلتنا أكبر.

غير أنه سرعان ما عاد ينظر إليه. سأل:

- هل يعقل أن يظل واقفاً؟

قال الآخر:

- هو الذي يتعب. لماذا تتضايق أنت؟

رد عليه:

- "لك حرام". دعنا نعطيه درساً في السلوك داخل الزنازين.

أدرك جلال أن الحديث يدور حوله وود لو يغض الطرف عنه، غير أنه لم يستطع كبح فضوله فالتفت إليهما. انفرج ثغر الأول عن ابتسامة وأشار إلى فسحة بجانبه وقال:

- تعال واجلس. حبال الشرطة طويلة.

نظر إليه بتدقيق أكثر، فراقه سمرة وجهه الفاتحة وعينيه الخضراوين ووجده صريحاً، مباشراً في غير خبث. أجابه:

- شكرا. أعتقد أن بقائي هنا لن يطول.

رد عليه:

- من يدخل هنا، لا يخرج قبل الصباح. تعال وأرح نفسك.

سأل مرتاعاً:

- بشرفك صحيح؟

قال:

- صدقني.

ثم أشار إلى زميله وقال:

- اسأله فهو لا يخرج من هنا حتى يعود.

ضرب عرض الحائط بنصيحته وتحول إلى الباب فضربه بقبضة يده، غير أن أحداً لم يستجب ولم يسأل سبب الطرق على الباب.

خاطبه الشاب الأول مرة ثانية وقال:

- اسمع مني. إنهم لا يسألونك هنا عما تريد. إنهم يضربون من يسبب إزعاجاً.

وجد أن لا مناص من الاستجابة لنصيحته، فخطا نحوه وأخذ المساحة التي خصها له.

قال له الأول:

- استرح... اهدأ...

قال الثاني:

- آه لو معي لفافة أبي هويمل.

رد عليه زميله:

- ما أبرد دمك.

التفت إلى جلال وخاطبه كما لو كان بينهما وفاق.

- يلعن أبو الطمع. ثلاث سرقات ناجحة لثلاث منازل فقلت لنفسي يكفي. ولكنه أراد أن يسرق متجراً. أخونا مغرم بسرقة المتاجر. قال الطقس سوف يساعدنا. قلت له الوقت مبكر. تصور هل يحاول مغفل فتح متجر الساعة التاسعة؟

رد عليه زميله وقال:

- لماذا لا؟ اليوم هو الجمعة والأسواق مغلقة ولا أحد في الشوارع ولا شرطة حتى. يلعن سوء الحظ الذي جعل دورية تمر في تلك اللحظة.

سأل الأول:

- كم سنة باعتقادك سنسجن؟

أجابه بدون اكتراث:

- خمس سنوات.

ضرب الجدار بقبضه يده لطول المدة.

وقال:

- أتستهين بهذه المدة. لو أن ابنة الكلب تسجن معي في غرفة واحدة لكان الأمر أسهل.

ثم التفت إلى جلال وقال:

- دمه بارد. قل بربك هل تحتمل السجن خمس سنوات؟

ولما وجده واجماً قال:

- إن شاء الله يكون الأمر أخف عليك. "بسيطة هونها بتهون".

كان جلال قد حدس أنهما من حي الاسكافية. هذا الحي الذي كان مغلقاً في وجهه والذي انفتح له الآن على مصراعيه. كان مجرد حدس، غير أن ذكر لفافة أبي هويمل أكدت له صدق حدسه.

أحضروا شخصاً جديداً، كانوا يتبعونه بالضرب حتى داخل الزنزانة وهو يصيح ويستغيث. ضحك أحد الأشخاص بعد أن خلت الزنزانة من رجال الشرطة. فتلفت شزراً يبحث عمن أطلق الضحكة ثم قال متحدياً:

- من هو ابن الكلب الذي ضحك؟

ما أجابه أحد فشتم الجميع ثم صوب نظره إلى جلال فوجده منطوياً على نفسه، شديد الوجوم، فقال هازئاً:

- والله زبائن آخر زمان.

جيء بشخص جديد، رث الهيئة، مخمور فتوسد الأرض فور دخوله في الوسط تماماً.

قال اللص الذي فاتحه الحديث:

- أقسم أنه سيتقيأ.

في تلك اللحظة قاء فعلاً وانتشرت رائحة القيء العطنة في الزنزانة، تأفف الجميع من رائحة القيء، فنهض الشخص الذي نال من الضرب ما يكفيه وضرب الباب بقبضة يده. نهض آخرون وشاركوه الضرب على الباب. تطوع أحدهم وبال على السكير فزاد الأمر سوءاً. ارتفعت الصيحات وزاد الضرب على الباب عنفا. فتح الشرطي فاندفع منه عدد آخر وانهالوا ضرباً بالجميع ونال جلال نصيبه مع أنه ما تحرك من مكانه وما بدر منه ما يستحق بسببه العقاب.

في غرفة التحقيق جرب المحقق حظه مع دلال التي يئست من مجيء الدكتور أحمد ونفذ صبرها. فهاجمت المحقق بضراوة وما أفسحت المجال له لإظهارمقدرته على التحقيق، فهي كعادتها، صريحة ومباشرة ولا تخفي شيئاً ولا تخاف أحداً، غير أنها جازفت كثيراً لدرجة أن المحقق كان على وشك ضربها بقبضة يده.

وفي غرفة الملازم رن جرس الهاتف. كان المهاتف عميد سابق في سلم الشرطة وقد عمل الملازم في خدمته قبل إحالته على التقاعد ويكن له مودة كبيرة. حيا العميد الملازم وعرفه بنفسه ثم سأله عن الأحوال.

قال الملازم:

- بخير سيدي. وأنت كيف أحوالك؟

رد عليه:

- بخير.

قال الملازم:

- أية خدمة سيدي؟

قال له:

- ألديك فتاة تدعى دلال؟

أجاب الملازم:

- نعم سيدي. وبصحبتها شاب.

سأل :

-ما قصتهما لماذا هما محتجزان؟

أجاب:

- اشتباه سيدي. مجرد اشتباه. وردت أخبارية عن محاولة سرقة وقتل وفرار. لقد وزعنا دوريات في كل المنطقة ونحن نحقق مع المشتبه بهم.

- وهل فعلت الفتاة ما يستوجب التهمة حتى تكون موضع شبهة.

أجاب:

-كانت تسير بسرعة فائقة.

ضحك العميد وعقب:

-هذا يعني أن كل من يسير بسرعة موضع شبهة؟

قال:

- سيدي وجدنا على سترة الشاب بقعة دم ولما سألناه عن السبب في بقعة الدم قال كلاماً لا يصدق.

قال العميد:

- أسمع. أنا أعرف الشاب وأعرف الفتاة، أعرفها منذ كانت طفلة وأعرف عائلتها.

- إذا سيدي. تعرف أن أخاها من أصحاب السوابق؟

أجابه:

- أعرف. ولكن الفتاة تختلف عنه. إن والدتها ميتة وهي جثمان في المنزل الآن. أتركهما وأنا كفيل. بالمناسبة، الدكتور أحمد صديقي وهو يعرف ما حدث للفتاة فهو صديق العائلة أيضاً وطبيبها.

تناول السماعة الدكتور أحمد وحياه فرد عليه الملازم التحية. وسرد عليه ما سمع من الفتاة

عن قصة ذهابهما إلى المقهى.

وهنا أدرك الملازم أية إساءة ألحقها بشخصين ليسا بريئين فحسب بل يجتازان ليلة كالحة مؤلمة. قال:

- سأفرج عنهما فوراً.

أغلق سماعة الهاتف ودعا المحقق. قال له:

- أحضر الفتاة والشاب فوراً.

قال المحقق:

- لكن سيدي؟

قال له:

- أحضرهما فوراً. يكفي ما لحق بهما من إساءة. إنهما بريئان لقد تأكدت بنفسي.

استجاب المحقق. وأحضر دلال ثم أرسل من يحضر جلال.

رن جرس الهاتف، كان الدكتور أحمد. قال له:

- آسف على الإزعاج. هل يمكن محادثة الفتاة.

قال:

- طبعاً دكتور وأعتذر مرة أخرى ولكنها ضرورات الأمن.

ابتسم الملازم في وجهها وقال.

-المكالمة لك. البقية في حياتك.

تناولت السماعة وهي تحدجه بنظرة غامضة، فأشاح. كان جسدها كله ينتفض من الغضب والقهر. قالت:

- نعم.

بادرها الدكتور بالاعتذار، غير أنها ما قبلت عذره. قالت:

- بعد خراب بابل دكتور.

حاول أن يشرح لها السبب في تأخير الاتصال، غير أنها ما أبدت استعداداً لسماع أعذاره.

قالت:

- أنا في غاية الاضطراب. تصبح على خير.

دخل جلال زري الهيئة، ممتقع الوجه، فصرخت دلال:

-ماذا فعلوا بك. قل ماذا فعلوا بك؟

ما أجاب. ألقى بنفسه على مقعد ونكس رأسه.

قال الملازم:

- أعتذر إليكما.

رفع جلال رأسه وقال:

- حتى أنه ما سألني عن اسمي. ثم هز رأسه بأسى.

قالت دلال موجهة كلامها للملازم:

- والآن؟

قال:

- أنتما أحرار يمكنكما الذهاب ولكن بعد شرب الشاي.

قالت دلال:

-لا نريد شايك.

نهض جلال وكرر مرة أخرى:

-حتى أنه ما سألني عن اسمي.

ثم وجه كلامه للملازم:

- أهكذا تعاملون الناس دائماً؟

قال الملازم:

- أفهم سبب غضبك ولكن دواعي الأمن تسبب أخطاء أحياناً. إننا نرزح تحت ضغط كبير. اقبل اعتذاري أرجوك.

خرجا من غرفة الملازم وبنفس كل منهما أثر ومذاق مختلفان، ووقفا برهة على عتبة المركز مهانين مذلين وما أثار ظفرهما في إفشال مخطط المحقق أدنى شعور بالاعتزاز، فقد كان العراك تافهاً. خرج جلال مجروح النفس يرى العالم الذي ظنه جميلاً، تافهاً أسود وله رائحة كريهة. لقد طفح الكيل به وما عاد راغباً في شيء سوى الذهاب إلى منزله والاختلاء بنفسه. أما دلال فقد صارت على وشك الجنون من فرط غضبها لقد تفتحت جروحها ونزفت نزفاً

شديداً وما من قوة كانت ستعيد إليها هدوءها.

كانت تمطر في الخارج، مطراً غزيراً، عنيفاً، اندفعت دلال نحوالسيارة محمومة، ووقف جلال على رصيف الشارع تحت المطر وتركه يغسله من رأسه حتى أخمص قدميه.

تنبهت دلال وحملت المظلة ثم تركت السيارة ولحقت به. وضعت المظلة تحت رأسيهما وقالت:

- اسندني أرجوك ليس بين الموت وبيني إلا أنت. للحظة فكرت أن أقود السيارة بأقصى سرعة نحو أقرب جدار. أسندني أرجوك.

أحاط كتفها بذراعه ودفعها دفعاً رقيقاً نحو السيارة. في السيارة ظلا برهة دون حراك أو كلام. كانا محبطين ناقمين كارهين كل تفصيل مرّا به وكل جملة قول. لقد استعادا حرية منقوصة وليلة ما زالت تحمل في طياتها الكثير من السوء.

ساعة أو أقل بدقائق قضياها في ذلك الجحيم. ساعة أو أقل قضياها في معاناة عبثية، أفسدت مشاعرهما ودفعتهما إلى أكثر المشاعر اسوداداً.

قالت دلال وهي تضرب مقود السيارة بكلتا راحتيها:

- اللعنة على كل شيء.

ثم أدارت المحرك. وقالت:

- أعرف أنك ما عدت تحتملني. أعرف أنك تريد الذهاب إلى مسكنك. سآخذك إلى هناك. اعتن بنفسك أرجوك.

قال:

- وأنت؟أنت أحوج مني إلى العناية والرعاية. وضعت رأسها على كتفه وبكت.

فعل بكاؤها وانحناءة رأسها على كتفه أكثر مما فعل المطر. خففا من إحباطه وقهره. أحاطها بساعده، وقال:

- لن أتخلى عنك الليلة. فقط خذيني إلى مسكني لأغير ملابسي.

اعتدلت ثم أدارت المحرك وقالت:

- أنت شريك ليلتي. من غيرك سأقتل نفسي.

قال:

- دعيني. أقدم لك شيئاً مختلفاً.

سألت:

-مثل ماذا؟

- أن أدعوك للعشاء مثلاً.

سألت متوجسة:

- اقادر أنت على ذلك.

أجاب:

- نعم. الإنسان عجيب. لديه القدرة على تجاوز قهره أحياناً. ولضرورات معينة. الآن بوسعي أن أستعذب انهمار المطر، بوسعي أن أتحسس قربك. أنت عشت في لبنان وتحبين الطعام اللبناني. سأدعوك إلى مطعم لبناني ولكني لا أعدك بأكثر من عشاء متقشف وجلسة ودودة وزاوية تراقبين منها المطر.

رأى في استجابتها مفتتحاً لمسار مغاير وبدءاً في نهوض إنساني من كبوة فرضت عليهما، فليس هما من قبل ومن بعد إلا كائنين بشريين، شابين مقبلين على الحياة. إن في جسديهما وفرة من الحياة كافية لاستنهاض همتيهما من جديد.

أخذته نحو مسكنه، ما جرؤت هذه المرة على البقاء في السيارة وحيدة وفي انتظاره فدخلت معه. كانت المدفأة مشتعلة ما تزال ودفء المكان لطيف. تناول ملابس من الخزانة وذهب إلى الحمام.

أخذت دلال مقعداً وجلست واتجه بصرها مباشرة إلى المكتبة المترعة بالكتب. من بين كل الكتب وقع بصرها على مسرحية شكسبير ماكبت. كانت قد درستها في المدرسة وحفظت مقاطع منها. كان شغفها بالمسرح آنذاك شديداً، أمسكت الكتاب بتشوق شديد واستعادت للحظات أجواء مفعمة بعواطف عاشتها وهي تستعد للصعود على خشبة مسرح المدرسة. كان ذلك بخاصة في لبنان، حيث كانت بعيدة جداً عن أجواء عمان وعن تحولات الأسرة واتجاهها إلى الكارثة. وإذ استعادت تلك الأجواء وصلت إلى فهم، كيف يستطيع جلال أن يتعايش مع الكتب ولكن نقمتها على ما حصل معها الليلة جعلتها تفكر أيضا أنه لا يجوز له أن يظل على غفلته، جاهلاً كل هذه الأسباب الكامنة في تركيب المجتمع والتي تجعل الواحد عرضة في أية

لحظة لكارثة قد تشقي النفس إذا لم تصب الجسد.

وفيما كانت تمسك بالكتاب وتقلب صفحاته وتنتقل بين أجواء سابقة حميمة وحاضر مشوش، قاس، دخل جلال ووقف يتأملها وهي تقرأ:

- غداً وغداً وغداً

وكل غد يزحف نحو غد آخر بهذه الخطى الحقيرة

حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب

وإذا كل أماسينا قد أنارت للحمقى المساكين

الطريق إلى الموت والتراب

ألا فانطفئي أيتها الشمعة الوجيزة

ما الحياة إلا ظل يمشي، ممثل مسكين

يتبختر، ويستشيط ساعة على خشبة المسرح

ثم لا يسمعه أحد. إنها حكاية

يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف

ولا تضيء شيئاً".

وحين التفتت ورأته يتأملها بفيض من العاطفة خفضت رأسها. قال:

- أما زلت تحبين المسرح؟

قالت:

- لقد أخذت مني قسوة الحياة هذا الحب.

قال:

- لدي كتاب قد يعيد له تلك الصلة. إنها مسرحية "ست شخصيات تبحث عن مؤلف" للكاتب الايطالي بيرانديللو، حيث تختلط الحياة بالمسرح، حين طلبت عائلة بجميع أفرادها من المخرج أن يتيح لهم الظهور على خشبة المسرح، عندما أختلط الحابل بالنابل. المسرح بالحياة. هيا بنا سنتحدث عن هذا فما بعد. أطفأ المدفأة واستعد تماماً لقضاء الليل بكامله بصحبتها، فقد أمن جانبها الآن كما تهيأ له وصار تقاربهما أكثر والأحاديث تجري بتلقائية ودونما عناء.

كان سيل الماء يهدر في الشارع حتى يصعب القفز من الرصيف إلى الشارع دون أن يغرق

الواحد بالماء المتدفق، غير أن دلال كانت قد ألصقت سيارتها بالرصيف مما يجعل دخولها آمناً.

فتحت باب السيارة جهة مقعدها وقالت لجلال:

- ادخل من هنا.

جاهد جلال كي ينتقل من مقعدها إلى المقعد المجاور ولكنه كان راضياً لأنه بذلك اتقى تجمع المياه. أخذت دلال مجلسها أيضاً وأدارت محرك السيارة ثم وضعت الغيار وسارت ببطء في سيل من المياه. راقب جلال بانبهار المطر والشارع، البنايات والأشجار المغتسلة بالمطر، كان رائق النفس لدرجة تسمح له بهذا الانبهار. أما دلال فلم ترق بعد ولم تستعد توازنها، فقد كان لديها من الأسباب ما يجعلها دائمة التوتر، ناقمة، أما الآن فقد أضيف إلى أسبابها سبب جديد.

سألته:

-ماذا فعلوا بك؟

قال:

- وضعوني في الزنزانة مع المجرمين، زنزانة عطنة شحيحة الضوء.

- وماذا أيضاً... ؟ لقد حدث لك ما هو أسوأ؟قل لي لا تخف شيئاً أرجوك.

قال:

- لا شيء أكثر مما يمكن أن يحدث في زنزانة.

ردت بغضب:

- لا أنا ولا أنت نعرف ماذا يحدث عادة في زنزانة. قل ماذا حدث؟

قال:

- لقد جاؤوا برجل مخمور وقاء في الزنزانة، فزاد الأمر سوءاً. حاول أحدهم أن يعلم رجال الشرطة بسوء الحال فضرب الباب بقبضة يده فما استجاب أحد، وهنا نهض عدد من الأشخاص وأخذوا يضربون الباب وتعالت الصيحات فدخل رجال الشرطة بعد هذا التمرد وضربوا الجميع.

قالت:

- بمن فيهم أنت؟

أجاب:

- نعم.

- وأنت أعزل ومسالم. هل شاركت في الضرب على الباب؟

أجاب:

- لا.

قالت:

- لن أغفر لهم ذلك.

عندما بلغت الدوار الأول سألت:

- أين أذهب الآن؟

قال:

- ها قد وصلنا.

أشار إلى مطعم الدبلومات المضاء وقال:

- ها هو.

اتجهت إلى المطعم وأوقفت السيارة عند بابه مباشرة فقد كان المكان خالياً وما كان في الداخل أحد أيضاً فمثل هذه الليلة تلزم الناس بطلب النجاة والاحتماء بمساكنهم.

كان أبو خليل صاحب المطعم على وشك المغادرة أيضاً. استقبلهما ببشاشته المعتادة وقال بلهجته اللبنانية:

- هلق جاي. الجماعة ظهروا من زمان.

قبل أن يغادر جاءهما أبو خليل بزجاجة وكأسين صغيرين. سكب سائلاً ذهبياً وقال:

- هذا لطرد البرد. أترككما على خير.

جاءهما النادل بعد لحظات وحيا جلال وأشار إلى ساعته. كان في تلك الإشارة ما يكفي لإقناعه أن الوقت متأخر. قال جلال:

- لا تلمني... نأكل ونخرج.

شعر النادل بالحرج وقال:

- لا. صحن فول كالعادة وحمص ممكن.

قال:

- إذا نقبل.

تركهما وذهب.

خلت الصالة تماماً إلا منهما وصوت فيروز. علق جلال:

- أليس هذا كله جميلاً؟

ما أجابته على سؤاله. فقد بدا لها كم هو مدهش هذا التحول السريع من أقصى حالات الخذلان والإحباط إلى لحظة الانتشاء.

أخذت تتأمله، تتقرى ملامحه، تتعرف عليه من جديد في وسط يبدو مألوفاً إليه، يتيح له أن يتفتح وتشرق نفسه وألحت عليها فكرة أنها أساءت إليه إساءة بالغة، حين استغلت فيه هذه الطيبة والدعة، وزينت له فكرة أن يقدم لها خدمة صغيرة لا تكلفه شيئاً. أحقاً ما كلفته شيئاً؟ أثمة ما هو أكثر من ذلك؟؟أثمة ما هو أسوأ؟ كان يمكن أن يجلس الليلة هنا، بين اصدقائه آمناً، في ألفة وطيبة بعيداً عن كل هذه المتاعب. لاحظ بأي دهشة كانت تنظر إليه. عاد وسأل:

- أليس هذا كله جميلاً؟

دمعت عيناها آنذاك وسالت:

- ما هو الشيء الجميل؟

أجاب:

- بسمة أبي خليل المستمرة وطيبة النادل وصوت فيروز وأنا وأنت هنا في هذه الصالة، في هذه الليلة المجنونة نتشاطر الأذى والطعام، ونراقب الماء يسح على زجاج الواجهة ونسمع إيقاعه. وهذا السلام الذي يرين على المكان الآن.

قالت:

- كنت قد أرى رأيك لو حصل هذا في ليلة أخرى، ولكنني الآن لا أرى سوى القبيح يخرج من كل فج. جرحك وجرحي أبلغ من أن تؤثر فيه كل هذا الطيبات.

رفع واحداً من الكأسين وقدّم لها الآخر فاعتذرت. رفع الكأس إلى فمه وجرعه جرعة واحدة. عانى قليلاً ثم انفرج وقال:

- أنت جميلة.

قالت:

- لا تنظر إلى جمال وجهي بل إنظر إلى قبح نفسي.

جرع الكأس الآخر دفعة واحدة وأحس بلذعته ثم توهج وقال:

- لكم أود أن أرقص الدبكة الآن على لحن فيروز.

تساءلت :

- أتجيد الدبكة؟

أجاب بفيض من الحبور:

- إننا مشهورون في بلدتي بإجادة الدبكة.

قالت:

- هيا افعل.

نهض وتقدم إلى وسط الصالة ثم انحنى ورفع جذعه ودفع المناضد والمقاعد وباعد بينها فحصل على فسحة مناسبة. قال:

- الا تشاركينني؟

ما خيبت ظنه ونزعت معطفها ثم اقتربت منه وشبكت يدها بيده ثم شرعا في الرقص وراحا يضربان الأرض بقوة واتساق. في هذه الاثناء جاء النادل بالطعام ووضع الطعام على المائدة ثم وقف يراقبهما وما لبث أن شبك يده بيد دلال وشاركهما الرقص.

لعشر دقائق رقص الجميع على إيقاع عنيف، في نزق شعوري بليغ وكان المطر ينهمر في إيقاع أكثر ضراوة. توقفت دلال وسحبت يدها من يدي جلال والنادل فتوقف الاثنان. نظر الجميع بعضهم إلى بعض جذلين ثم تفرقوا. اختفى النادل من الصالة وأخذ الاثنان مقعدهما.

ود جلال لو يقبل على الطعام بشهية، غير أنه بعد أن ازدرد عدة لقمات لاحظ انصراف دلال عن الطعام، فقد شهيته وغبطته وصار يتناول طعامه ببطء، بدافع الجوع ليس إلا. سايرته بالدافع ذاته وعلى النحو ذاته من البطء. لقد دخلت في نوبة ذهول وسلبت منها نشوة اللحظة.

فكر حينئذ بعمق جرحها وشدة مصابها واستعرض الأحداث المتعاقبة بين مغامرتين ومفاجأتين فظّتين ألحقت بهما من الأذى ما ألحقت. كان وقتاً متخماً بالأحداث والعواطف العذبة والمؤلمة.

أكان مر بكل ذلك لو لم تجيء إليه وتطرق بابه. الآن لا يستطيع أن يتكهن بدافعها بين مجموعة من الدوافع المتباينة التي أفصحت عنها. لا يستطيع ولا يكترث. الآن يدرك أنه شاركها مشاركة تامة في كل فعل. رفع رأسه وتأملها. كانت لا تزال في تيه ذهولها. إنها حالة استثنائية في ضعفها وقوة شكيمتها. إنها ضحية مواضعات ومواصفات خاطئة بالتمام، ضحية مكونات ما كان لها إلا أن تتمخض عن مأساة. إنها تحمل إرث عمان الاجتماعي والاقتصادي المشوهين وتنوء بثقله وهي طاهرة ونقية ولكنها ناقمة، قوية وضعيفة، قادرة على إيتان أي فعل واختراق كل حاجز والتصدي لكل صعب، وضعيفة حتى لتؤذيها كلمة خاطئة أو ملاحظة في غير محلها. إنها تغضب وتستكين في لحظة، وهي تجذبه إليها جذباً لا يملك دفعه ثم تنفصل عنه انفصالاً لا يملك حياله إلا الصمت والترقب.

أطفئت أضواء الصالة باستثناء الركن الذي يحتلانه إيذاناً بوقت إغلاق المطعم. نظر إليها ثم إلى الطعام الذي أكلا أقله وقال:

- إنهم يطلبون إلينا الانصراف بطريقة مهذبة. إنها الحادية عشرة.

هزت رأسها كسيفة وتركت لقمة كانت ستدفعها إلى فيها ثم أخذت أرغفة الخبز ووضعتها في حقيبتها ونهضت، ترك نقوداً على المائدة ونهض. وقف تحت مظلة المطعم بانتظار أن تفتح باب السيارة. راقبها وهي تسير منتصبة الجذع حانية الرأس. تساءل إن كانت صعوبة هذه الليلة ستمر دون رجعة، وإن كانا سيتحدثان عنها فيما بعد ككارثة لن تتكرر.

كانت السماء ما تزال ترسل مطراً مدراراً وقد التمع برق حال جلوسه في السيارة وتلاه الرعد. أصغيا إلى هديره ثم قالت:

- شكرا. كان العشاء في هذا المطعم أفضل ما حصلت عليه منذ وقت طويل.

سره هذا الانفراج وخال أنها تجاوزت محنتها المشتركة وأن الحديث سيتواصل الآن بينهما ويأخذ منحى آخر، أكثر بساطة ويسراً. قال:

- ولكنك ما أكلت. كنت شاردة ذاهلة.

ردت:

- ولا أنت، أكلت أيضاً.

قال:

-أكلت بقدر حاجتي.

كانت المياه الغامرة تتدفق باتجاههما وتجعل قيادة السيارة أمراً بالغ الصعوبة. تأففت وعلقت:

– ألا تمهلنا هذه الليلة قليلاً؟ ألا تعطينا فترة راحة؟ ما أخشاه هو أن يبتل موزع الكهرباء ويتعطل.

قال:

-ماذا. مفاجئة أخرى وكارثة جديدة.

هزت رأسها وعقبت:

– كل شيء محتمل هذه الليلة.

كانت تبذل جهداً غير اعتيادي في زحفها للوصول نحو الدوار الثاني وما عاد يكترث لمشهد المطر والبنايات والأشجار المغتسلة به، ذلك المشهد الرائع، وانتفى ذلك اللمعان البهيج في خضم موجة المياه الغامرة المتدفقة بقوة. وحين بلغا الدوار الثاني بعد ذلك الجهد العسير أمكن لها أن ترخي جذعها وتتنفس الصعداء وأمكن لجلال أن يفسح نظره في المدى الأرحب الآن، محصلاً ما فاته من افتتان بهذا الجمال الثر لمدينة اغتسلت بالمطر. قالت دلال فجأة:

– غريبة.

التفت إليها متسائلاً.

قالت:

– الحياة. المطر يتساقط والمياه تأخذ طريقها نحو المنحدر غير عابئة بأي شيء، تأخذ في طريقها كل ما يعيقها وتملك حمله ثم تقذفه في أي مكان، وأنا أقاوم من أجل البقاء ساعة أو بضع ساعات أو سنوات هذا لا يهم. ثمة تناقض وصراع لا يعرف الكلل. أتعرف أنني كرهت أمي أثناء مرضها وكنت أستعجل موتها من أجل راحتي أنا وليس راحتها، والآن وقد ماتت يشتد علي الحزن.

عقب:

– ليس الأمر غريباً، فللأشياء منطقها وللإنسان منطقه وهذا ما يخلق صراعاً مستمراً،

ومن خلال هذا الصراع تطور الإنسان وامتلك قدرة على صد هجمات الطبيعة وإخضاعها لإرادته. أما عن موت أمك فكان ثمة مفارقة بين جسدك اليافع وجسدها الذاوي، بين دفق الحياة فيك وإنطفاء الحياة فيها. من حقك أن تحزني لأنها ليست أية امرأة تموت، فهي أمك، ولكن الأمر انتهى الآن. فكري بنفسك.

انتقلت على نحو مفاجيء إلى موضوع آخر لا يتصل بهذا الموضوع من قريب أو بعيد، فقد سألته:

- أصدقاؤك الذين كانوا قبلك في المطعم. هل هم حزبيون؟

التفت إليها ليتأكد إن كانت جادة في سؤالها، فما كشف أمراً، غير أنه أجاب على أية حال:

- لا استطيع الإجابة على هذا السؤال حتى لو كنت أعرف. اعذريني.

ما راقها الجواب فقد كتمت حديثاً كادت تهم به.

وضعت غياراً ثم قادت السيارة، فكر أنه أخطأ، حين لاحظ انصرافها عن مواصلة الحديث.

قال:

- اعذريني مرة ثانية. لماذا طرحت عليّ السؤال؟

أجابت:

- ببساطة لأن كفتك وكفة أصدقائك رجحت لدي هذه الليلة. لأنك وما تمثل إلى جانبي هذه الليلة، وأتساءل ما هو الشيء الخطر فيك وفي أصدقائك؟لماذا أنتم مهددون بالسجن عشر سنوات بينما أبو هويمل يجول حراً طليقاً ويعيث فساداً. إنني أنحاز الليلة إليكم ولكنني أحب أن أعرف أين خطركم. أنا أحب الخطر، ولا أحب الأنسان المدجن، انظر ماذا تفعلون، تجلسون في أماكن لطيفة وتتبادلون أحاديث لطيفة وتذهبون إلى السجن. لماذا كل هذه اللطائف إذا كان المصير هو السجن. لماذا لا تتركون الأماكن اللطيفة وتعيشون في القاع. هناك بين الرعاع.

ما عقب على ما قالت، فقد وجد فيما ألمحت إليه بعض الصواب وخصوصاً فيما يتعلق به، فهو لا يزعم أنه مثقل بهموم الناس. إنه ببساطة لا يعرف الناس. إنه يعيش بين الأفكار وحسب، وحين تعرض لأول تجربة حياتية، حين تعرف على واحدة من الناس العاديين تكشف له وهمه، وهذا ينصرف أيضاً على أصدقائه.

قالت:

– أنت صامت لماذا؟ أنا أعرف أن ما قلته لا يبهجك. أنا أعرف أنك تود لو تنفرد بنفسك وتستمتع بما تستمتع به. إنني سيئة المزاج وأبحث عن معركة وأنت مسالم ووديع وتحب أن ترى الأشياء الجميلة.

قال:

– إنني راض تماماً وليس لدي نية للانفراد بنفسي. إنك توجهين دفتي هذه الليلة لما هو صواب، لرؤية أعمق، لمعرفة أخرى منبعها واقع الناس، لهذا أنا صامت.

التفت نحو الدور الثالث وصارت على بداية الشارع المؤدي إلى رأس العين وصار بوسعها كشف الجبل المطل على رأس العين. كان المشهد فاتناً. كتل أضواء هنا وهناك وجوف معتم وفراغات سوداء. والماء ينحدر باتجاه راس العين ويمتص الأضواء ولمعان الأشجار، لمعان حبات المياه المتلألئة العالقة على الأشجار. كل هذا جميل، غير أنهما يقتربان من المنزل الآن، حيث الجثمان ما زال متروكاً على السرير، وحيث العمة الناحلة، مديدة القامة، قاسية النظرة، تتلوى من الجوع وتصب اللعنة عليهما.

حينما استقرت السيارة أمام المنزل، أشتد عليه الغم وعند هبوطهما الدرج سمع صوت المغني البائس. سأل منزعجاً:

– من هذا؟

قالت بدون مبالاة:

– لا أعرف. هذا يحدث كل ليلة. إنهم يحتفلون. لا أدري ربما مولد أو زواج.

تساءل إلى هذا المدى تصل بالناس العزلة والقطيعة؟أجاب ربما؛ فهذه عمان وليست بلدته.

فتحت الباب وأفسحت الطريق له، فدخل دخوله المعتاد ولكن الكاره في نفس الوقت المكان، إنه مسرح لحدث مأساوي جديد وعلاقة مختلفة ووجه آخر لتعقيدات الحياة.

مضت دلال مباشرة إلى المطبخ وتركته وحيداً في الصالة. لا مطر يغسله الآن، لا لمعان أضواء تبهره ولا هدير مياه يشغله. هنا فقط هذه الجدران الأربعة البيضاء، الملساء، العارية، والجثمان والعمة الجائعة الساخطة على دلال بوجوهها المختلفة وعواطفها المتباينة. إنهم هنا متروكون، منبوذون ولا أحد يسأل عنهم. ثمة من يحتفل بزواج أو مولد وثمة من يموت ولا

أحد يكترث بالآخر. هذا ليس حسناً على الاطلاق، يسقط من يسقط وينجو من ينجو ولا أحد يكترث. الساقط قبل بسقطته والناجي فرح بنجاته. مثل هذا لا يحدث في بلدته الريفية البسيطة المنبسطة المتفتحة على كل الأرجاء والتي يتلاقى الناس فيها على ما ينبت في الأرض وفي الرحم وعلى ما يجعل الحياة تتواصل رغم عسف الطبيعة وجور السماء. يحزن الكل لموت الواحد وينقصون بنقصانه ويحتفل الكل بزواج الواحد ويزيدون بزيادة نسله.

هذه عمان إذا، التي زينها في خياله ونزعت إليها نفسه نزوعاً أقض مضجعه وانتزعه من مسقط رأسه. عمان التي كلما توغل فيها اكتشف المزيد من قسوتها وذاق مرارتها. عمان المدينة الغاشمة المتسلطة ذات التضاريس الحادة التي تجرح وتفرّق، فأضحى أهلها على هذه الشاكلة من القسوة والعزلة والأنانية.

أنى له أن يفهم ما تفعله عمان بأبنائها وكيف تسلبهم إنسانيتهم وشعورهم الجمعي وإدراكهم أنهم بشر، من طينةواحدة، متشابهون، متساون في الحقوق والواجبات، يجمعهم هم واحد ويداهمهم خطر واحد، فلا يعود الواحد يسأل عما يحدث للآخرين ويكتفي بما جنت يداه. هذه عمان ذات الأجناس المختلفة والمختلطة ذات المفاهيم الغريبة، ذات التراكيب الصعبة والنتوءات والتجاويف. مدينة المليون ونصف غريب والذي يولد الطفل فيها وارثاً الخوف والحقد والصلف والأنانية المفرطة والشك ومرض الاستهلاك.

وهذه الأسرة هي الضحية وهذا المكان المجدب هو الشاهد. كم من عائلة تعاني الآن معاناة قد تختلف في تفاصيلها ولكن ليس بشدة ألمها. كم من عائلة الآن تقبض على جمر توترها أو سراب خيبتها، كم من دلال أخرى في هذه الليلة. أبو هويمل يغط في نومه الهادئ الآن. عشرات من أمثاله، ليسوا بالضرورة تجار مخدرات ولكن مصاصو دماء يرفلون بالعز ويحيطون أنفسهم بكل ما هو وثير ويستمتعون بالسهر أو يغطون في سبات عميق.

دورة كاملة دارها وعاد. شاهد خلالها أكثر مما يحتمل وأكثر مما يستطيع هضمه دفعة واحدة. دورة كاملة مر خلالها بأطياف من الناس والحوادث والعواطف والألوان وعاد. وها هو من جديد ينوس في مقعده في مكان شبه خاوٍ وكامد. ولكن فسحة المكان هذه أخف وطأة على النفس من حشر الزنزانة، ومهما بلغ سوء المكان فهو هنا سيد نفسه ومالك قراره. يبقى أو يخرج، تلك هي قضيته الخاصة.

خرجت دلال من المطبخ واتجهت مباشرة إلى الداخل. بعد لحظات عبرت العمة الصالة مسرعة لتدلف إلى المطبخ وتمكث فيه. لدقائق زادت عن العشرة، ترك وحيداً. دلال في الداخل والعمة في المطبخ وهو في الصالة ولكل منهم شأن مختلف. هما في منزلهما وهو الوحيد الطارئ. ماذا لو استمر لعدة أيام أو أسابيع في نفس المكان؟ كيف سيتقبل العيش فيه. ليلة واحدة، تكفيه ليلة واحدة وحسب، ولن تتكرر.

جاءت العمة بعد أن أخذت حاجتها من الطعام وأشبعت نهمها. بحثت بعينيها عن المقعد الطويل فوجدت جلالاً يحتله. حدجته بنظرة وجلست بعيداً عنه. تجاهل نظرتها ووجودها وأخرج علبة تبغه وتناول لفافة ثم أشعلها متمهلاً في حركاته لكسب مزيد من الوقت بالانشغال بما يقيه شر النظر إلى عروق جسدها وجلدها المشوه.

جاءت دلال بعد وقت بدا على قصره أطول مما يجب. جاءت ذاهلة وجلست ثم استغرقت في ذهولها.

باستثناء العاصفة الهوجاء الشرسة التي راحت تضرب نوافذ الصالة بشدة وتطلق عويلها الحاد، كان هدوء عميق وسكينة مضجرة يسودان الصالة ولم يجر أي حوار بينهما منذ دخلا المنزل.

وإذا كان مثل هذا الوضع مبرراً ومقبولاً من فتاة ما زال جثمان والدتها يحتل السرير، فإنه ما كان كذلك لدى جلال الذي تبرم من استمرار عزوف دلال عن الكلام واستغراقها في ذهول.

لقد تجاهل حقيقة أنه ساهم في اللجوء إلى الصمت كمهرب من النظر إلى العمة وحمل العبء لدلال وحدها.

مضى الوقت بطيئاً ثقيل الوطأة. "ماذا بعد؟" تساءل وهو يتفلت من ضيقه ويهم مرة بالنظر إليها، ثم الإشاحة السريعة ومرة بالنظر إلى قطع الأثاث أو الانتباه إلى العاصفة التي أشتد أوارها.

ثقل الصمت كذلك على العمة فانسلت من الصالة أيضاً.

نهض وذرع الغرفة ووقف يستمع إلى صوت العاصفة. أشرأب بعنقه ثم أرخى جذعه واقترب من الباب. نقر عليه بأصابعه ثم استدار وقال:

- لم يأت الدكتور أحمد؟

رفعت رأساً مثقلاً بالأسى وحدقت به ثم قالت:

- سيأتي...

واكتفت.

أغلقت بوجهه نافذة الحديث وتركته ينظر إليها خائباً. انتظر قليلاً. رجى أن ترفع رأسها وتقول شيئاً، غير أنها عادت إلى صمتها وذهولها. قال:

- عجيب أمره.

حدقت به مرة ثانية ثم سألت:

- ما العجيب في أمره؟

ما كان لديه فكرة عما حدا به لمثل هذا التعليق وعما عناه. قال ذلك لمجرد القول. لاستفزازها، ربما لدفعها إلى تبادل الحديث معه، وما أجابها.

حدقت به تحديق المستهجن وسألت:

- ما العجيب في الأمر؟لم تقل لي؟

تاه فكره وهو يبحث عن فكرة يقولها فما وجد ولما طال به الوقت قال:

- كان من المفروض أن يكون هنا.

قالت:

- سيأتي. طال الوقت أم قصر.

استغرب يقينها وسأل:

- أأنت واثقة إلى هذا الحد؟

أجابت:

- نعم.

- أليس لديه ما يقوم به سوى تلبية طلباتك.

امتقع وجهها ثم سألت محتدة:

- هل هذا يعيبه أم يعيبني؟

امتقع وجهه هو الآخر وأدرك أنه أرتكب حماقة أخرى. إنه ما أن يقترب منها حتى يجد نفسه بعيداً عنها وكلما أحسن التصرف عاد وأساء. ماذا يفعل الآن وقد خرج الكلام وأعلن. كيف يرده إلى غمده وكأن شيئاً ما قيل.

قال متلعثماً:

- آسف. ما قصدت هذا.

حدقت به بعينين قاسيتين ممتحنتين وسألت:

-ماذا عنيت.

زاد تلعثمه وأجاب:

- إنها هفوة لسان.

عقبت على إجابته ساخرة:

- هكذا إذن؟

ما راقته سخريتها ولكنه كظم غيظه. قالت:

- لعلمك أنه طبيب ناجح وشخصية اجتماعية مرموقة وله علاقات واسعة وله الفضل الليلة في خروجنا من مأزق الشرطة.

ربما فهم كلامها على وجهه الصحيح أو ربما فسره تفسيراً لا يتفق مع الغاية منه لكنه في كل الأحوال وجد فيه تصغيراً من شأنه إزاء ذلك الطبيب الناجح المرموق. قال:

- لعلمك أيضاً، أنا كنت مدرساً ناجحاً ومرموقاً في بلدتي وإذا كنت جئت إلى عمان هذه المدينة الآثمة وإذا عدت طالباً، فذلك لا ينتقص من مكانتي، أنا لا أسمح لأحد على الإطلاق ولا لك أن يمس مكانتي.

ردت عليه بغضب مماثل:

- أنا لا أمس مكانتك ولكنك تومئ إلى ما ليس يعنيك. ما شأنك أنت. لماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟لقد أخذت أكثر من حقك.

نكس رأسه للحظة ثم رفعه مستشاط الغضب وقال:

- أنت التي سمحت لي بذلك. أنا ما جرؤت على ذلك لو لم توهميني بأنني صديق موثوق. لو لم تحدثيني عن تاريخ عائلتك. وطالما أنه قادم لا محالة، فأنت لست بحاجة إليّ. لقد انتهى دوري. ما عدت بذي فائدة. ما عدت لاعباً في مسرحيتك. شكراً على أية حال لأنك أشركتني

وأعطيتني دوراً. الوداع.

ردت عليه بانفعال:

- الوداع.

اتجه إلى الباب. قالت له حين بلغه وهم بفتحه:

- هل أجد لديك لفافة؟

تحسس جيبه. أخرج علبة لفائفه. استل اللفافة الأخيرة وعاد فقدمها لها وألقى بالعلبة الفارغة على المنضدة. قال:

-كنت أعتقد أننا أصبحنا أصدقاء. أعتذر إليك عن كل ما بدر مني، الوداع.

خطا نحو الباب. خاطبته قبل أن يصل إلى الباب:

- وأنا أعتذر إليك. إنك تتعجل الأمور. كنت سأتحدث إليك عنه لو لم تتسرع. أعطني فرصة أرجوك. عد أرجوك. أنا بحاجة إلى نصحك.

استدار مرة أخرى. رأى في وجهها تعبيراً عن ألم من نوع جديد واستغاثة يصعب عليه تجاهلها. عاد وجلس.

قالت:

- ثمة أمور يخفيها الإنسان عادة، أمور خاصة به ولا تهم غيره ولكن ربما كان عليّ ان أكشف لك عن كل ما بنفسي، أن أنثر بين يديك أسراري. أن أتعرى أمامك تماماً، فلقد بلغت النهاية.

قال:

-لا تقولي ذلك أرجوك. لن أغفر لنفسي إذا سببت لك من الألم ما يدعوك لمثل هذا القول.

قالت:

- ليس أنت، ليس بسببك، أجلس أرجوك.

جلس وتهيأ لكشف جديد. قالت:

- إنه هو - الدكتور أحمد - لقد خذلني هذه الليلة. خذلاناً لن أسامحه عليه.

صمتت ونفثت نفساً من لفافتها وطامنت رأسها ثم رفعته وتابعت:

- كان صديقاً للوالد كما قلت لك. ولا أعرف وجه الشبه بينهما. وما الذي جمعهما، اعتدت

عليه منذ صغري. كنت أنظر إليه كما لو كان عمي وكان يحدثني من هذا المنطلق. كان متزوجاً. توفيت امرأته الأولى. أنجبت له فتاة. وبعد وفاتها بقي بدون زواج سنوات ثم فجأة قرر الزواج من فتاة يعتبر أبوها من أثرى رجال البلد. كانت فتاة مفسدة فلم يستطع العيش معها، فقد أحالت حياته إلى جحيم. كنت أنا قد كبرت وعملت سكرتيرة وكان أبي قد مات. كان يأتي إلى منزلنا مدمراً يشكو لوالدتي همومه، ثم صار يشركني أنا أيضاً في حديثه. قلت له ما يجبرك على العيش معها. طلقها. ففعل. منذ ذلك الوقت أخذ يكثر من زيارتنا ويكثر من الحديث إلي. ومنذ أسبوع أعلن رغبته بالاقتران بي. ما تفاجأت فقد كان في سلوكه معي يعبر عن شعور دفين. كانت زياراته وطريقة حديثه تفصح عن هذه الرغبة وإن كان يتجنب الإشارة إلى ذلك. وحين أعلن رغبته وسألني إذا ما رأيت فيه زوجاً صالحاً، أصابني ما يشبه الوجوم وحين كرر السؤال. قلت له:

– دعني أفكر.

اكتفى مني بذلك الجواب ومضى. صحيح أنني ما فكرت بالأمر بعد ذلك، فقد كان لديّ مشاغلي وهمومي في العمل ثم دخلت والدتي في الغيبوبة ولكنني الآن أخذت قراري. لن أقبل به زوجاً أبداً ولن أثق به مرة أخرى. لقد تأخر بالفعل. أما كان يجب أن يكون هنا الآن. أين يمضي وقته ويتركني؟ لماذا يترك جثمان والدتي هنا؟ إنه يعاقبني لأنني جئت بك إلى المنزل. لقد حدثته عما جرى معك فما عقب، غير أنني على يقين أنه ما سر بوجودك وهو يعاقبني بسبب ذلك الآن.

هبت واقفة وتلامع فصّا الماس في عينيها. قالت:

– أنتم الرجال بلا ضمير، أنتم كتلة من الأنانية وأنا لا أثق بكم ولا أثق بأي رجل على الإطلاق. الليلة سآخذ بثاري من الرجال.

حدق بها، مسته رجفة ثم طامن رأسه.

تحركت بانفعال شديد. خطت خطوات مشوشة. وقالت:

– إذا كان مقدراً لحياتي أن تنتهي فسوف أنتقم قبل ذلك.

– هذه الريح المجنونة لا تعصف في الخارج فقط. إنها تعصف داخلي، تعصف بحياتي.

انهدت فجأة. ألقت بنفسها على مقعد وشرعت في بكاء مرير.

عنَّ في باله آنذاك أن يعرض عليها الزواج، غير أن الفكرة بدت له ساذجة ولا تقوم على أساس سليم، فهو لا زال طالباً في بداية دراسته ولا تتوفر لديه أية ركيزة تؤهله لهذا العرض. سيكون نذلاً آخر لو أشار إلى ذلك؛ لأنه لن يلبث وأن يتراجع عن عرضه غداً أو بعد غد حين ينتهي إشكال هذه الليلة. خاطب نفسه بصوت مسموع وقال أنا السبب في كل هذا الألم الآن.

رفعت رأسها وسألت:

– ماذا قلت؟

نظر إليها. كان أكثر التياعاً من أي وقت مضى. قال:

– إنني ألوم نفسي. إنني لست فقط بدون فائدة بل ألحق الضرر بحياتك.

قالت:

– لا تقل ذلك أرجوك. لن تعرف كم كنت مفيداً لي.

– إذاً كفي عن البكاء.

نهضت وقالت:

– سأكف.

ذهبت إلى الحمام ثم عادت. جلست ثم مالت بجسدها إلى متكأ المقعد وثنت ساقيها فوق المقعد وقالت:

– حدثني عن نفسك عن بلدتك. حدثني أرجوك.

قال:

– لقد حدثتك عن نفسي.

– حدثني عن بلدتك. كيف يقضي الناس أوقاتهم هناك؟ ماذا يفعلون في ليلة كهذه مثلاً؟

قال باختصار من أرغم على الكلام:

– يتجمعون في المنزل، يتبادلون القصص ويحتسون الشاي. ينتهي السهر وينفض الجمع دون قلق أو أوهام.

– أيفعل ذلك الشيوخ والشباب؟

أجاب بنعم، ثم أخذت هيئته مظهراً أكثر استجابة لفكره ومشاعره، وقال بلهجة فيها كثير

من الاختلاف:

- قد يحلو لشاب يشابهني في اختلافي أن يحلم بحياة أكثر بهاء وبهجة في مكان آخر، فينفرد بنفسه ويبني في خياله مدينة أخرى، سكانها من أبطال الروايات، يجترحون الأعاجيب وهو لا يدري أيَّ كذبة اقترف وأي وهم جلب إلى نفسه. فما الحياة التي ينشدها إلا من صنع خياله وما الحياة في بقاع أخرى بمختلفة عن حياته في بلدته، إلا من حيث الإيقاع والشكل ومقدار الوجع. وما البشر هنا وهناك إلى دمى هشة، تتشكل وفق ظروفها. الناس هنا وهناك ضعاف، يجوعون ويتوجعون، يثيرهم الجنس فيمارسونه لا عن حب بل لأجل الاستمرار ويقبلون على الطعام بالدافع ذاته.

سألته وقد اتضح لها من لهجته الأسيانة أنه إنما يتحدث عن نفسه:

- لم يتغير عليك شيء إذاً؟

قال:

- في الحقيقة لا.

قالت:

- أأنت آسف لأنك تركت بلدتك ولم تجد في عمان شيئاً مختلفاً؟

قال:

- بل وجدت.

تخضب وجهها بحمرة خفيفة، كأنما تكهنت بما سيقول. سألت:

- ماذا وجدت؟

قال:

- أنت.

أطرق وفكر ملياً ثم تابع بصوت لا تعوزه الثقة وإن جاء مثقلاً بالأسى:

- أنت الاختلاف الكبير، الجميل، المحير، لا يشابهك أحد، لا في عمان ولا في بلدتي.

اعتدلت في جلستها، فأنزلت ساقيها إلى الأرض واتكأت بمرفقيها على ركبتيها ثم حنت رأسها وأسندت ذقنها إلى راحتيها المفتوحتين، فبدت مثل زهرة ورقاء. كان ذلك تكويناً آخر بالغ الروعة والدلالة.

سألته:

- بأي شيء أختلف عن غيري؟

فكر قليلاً وقال:

- بكل شيء.

ظلت تحدق به وقالت:

- مثلاً؟

اضطرب قليلاً، فقد وجد نفسه مرة أخرى منساقاً إلى إبداء إعجابه بها وربما قاده الكلام لو استمر فيه إلى عرض الزواج عليها، فليس لإعجابه معنى إذا لم يقترن بموقف عملي يؤكد صدق ما يقول.

قال بعد أن طال تحديقها فيه:

- قدرتك الهائلة على الإيحاء.

اتسعت حدقتا عينيها، فأدرك أنه أثار فضولها. تابع:

- أنت تستطيعين أن تجعلي الآخر يفكر بما تريدين منه أن يفكر به. لقد جعلتني أرى فكري السياسي ضبابياً. لقد أوصلت إلي الحقيقة بأبسط ما يكون.

قالت:

- فقط هذا ما تراه بي؟

قال على استحياء:

- أنت جميلة. يلذ للانسان أن ينظر إليك.

- ألست آسفاً لأنك عرفتني؟

قال:

- على العكس تماما. لولا أن المتوفاة هي أمك وهذه فاجعة، لأشدت بالمناسبة التي جمعتني بك، إن من يتاح له قضاء ليلة معك لا يأسف.

اربد وجهها لهذا التصريح الذي يحمل دلالات مختلفة. فسألت بلهجة ساخرة:

- لماذا؟

فوجئ بسؤالها المتشكك فارتبك واكفهر وقال بلعثمة واضحة:

- لا لشيء سيء.

قالت:

- ماذا يدور في خلدك إذاً، قل ذلك بصراحة.

نهض وسار بضع خطوات وكأنه على وشك الخروج غاضباً ولكنه توقف وقال:

- قد أكون أخطأت التعبير ولكن هل تعتقدين أنني تقبلت منك كل هذا لأن في نفسي غرضاً خبيثاً؟ إنك مخطئة إذ يتساوى لديك الإنسان الجيد بالخبيث. وما دمت تشكين في مقاصدي فلم تتشبثين بي؟ لم لم تتركيني أذهب؟

قالت:

- اذهب إذا شئت. أنا لا أشك بك ولكنني أريد أن أعرف ماذا تظن بي؟وماذا تظن بفتاة تأتي بشاب لا تعرفه إلى منزلها. أنت نبيل وشهم ولكن من حقي أن أعرف.

أولاها ظهره، ووقف يصغي إلى صوت الريح ويفكر بحجم معاناتها. كانت ريحاً هوجاء تدفع الإنسان المنفرد إلى الجنون، فكيف إذا كان رفيقه جثمان. قال:

- أنت لم تأت بي. أنا عرضت خدماتي عليك واكتسبت ثقتك. وأنا لا أعتبر وجودي معك إساءة إليك. ألست واثقة مما تفعلين؟

قالت:

- لقد قدمت لي مساعدة لا أنكرها ولكنني أفضل لو لم ألتق بك، لأنك نبيل وطيب ولأنني في أتعس أحوالي وأخشى أن أتسبب لك بأذى.

استدار آنذاك ونظر إليها، كانت ما زالت تنظر إلى الزاوية فأتاحت له التفاتتها تلك فرصة أن يتأملها جيداً. حاول سبر أغوارها والتكهن بما يخامرها، إنها فعلاً في أتعس أحوالها. إنها تحتاجه وتشك به وبنفسها. إنها تعاني ألم موت أمها وضباب مستقبلها وفساد الناس حولها وفوق هذا كله، هذه العاصفة الجائحة التي ما تنفك تضرب الأشياء بشدة وتطلق عويلها الحاد. لقد تحمل منها ومعها الكثير فليبذل مزيداً من الصبر والآناة.

قال:

– في الأساس، أنت نبيلة وطيبة ولن تكوني مؤذية حتى لو رغبت في ذلك، حتى لو توفرت لديك الإرادة لذلك، ثم ما هي الأذية التي لا تنفكين ترددينها على مسامعي؟ أي شيء يدور في خلدك؟

قالت بقليل من الانفعال:

– لا أعرف، فالليلة طويلة تتسع لكل الاحتمالات.

حدق فيها، حاول أن يلتقط ذلك الذي تخشى حدوثه، فلم يجد إلا مسحة من الكآبة زادتها نعومة. ومع ذلك فثمة شيء غامض ومحير يوحي بأن شيئاً ما قد يحدث ويقلب كل المعادلات. لا يستطيع الزعم إذن، أن كل شيء على ما يرام وأن الوقت وإن امتد سيكون امتداداً لهذه الحال، فكم تقلب عليه الحال ورأى ما لم يحسب له حساباً وما لم يخطر له ببال. وهذه الريح اللعينة ما شأنها الليلة وما سر عنفوانها وأي شر يمكن أن يأتي منها؟

ابتعد بضع خطوات ثم أغمض عينيه وترك نفسه نهباً لصوت الريح والتساؤلات. إن كل ما يحدث هذه الليلة غريب وعصيّ على الفهم وربما عصي على فهمه هو فقط، هوالساذج، ابن البلدة النائية، الواضحة المعالم والتراكيب والسهلة والبسيطة، حيث السلام عميم والهدوء رخي. أما هنا في عمان التي يجهلها فالأمر يختلف على ما ظهر له. لقد عاش حتى الآن في شبه عزلة عن الناس، مكتفياً ببضعة أصدقاء وساتر من الكتب، لا يعرف من الحياة إلا ما تقوله له الكتب، فإذا كانت الكتب مملة بكل شيء، فمن أين جاءت دلال وكيف تكونت على هذا النحو؟إنها ابنة هذه المدينة وحصيلة تعقيدها. هي ابنة عمان ذات المخالب. إنها نموذج صعب من صعوبة عمان ولذلك اتسعت مداركها وتوضحت رؤاها. إنها تمتلك جسداً جميلاً وروحاً معذبة، فأيهما أبقى وأيهما أفعل وأيهما يأخذ، وأيهما يترك. وما الذي تسعى إليه؟ قليل من الأمان وقليل من الرفق، هذا ما تسعى إليه وهو القليل الذي يملكه. ماذا كان سيحدث لو لم تعثر به وبقيت وحيدة؟ كيف كانت ستحتمل جهامة هذه الليلة وكيف كانت ستسكت غضبها وهياجها. إنه لا يملك أن يلومها على تشبثها به؛ فهي في أمس الحاجة لمن يواسيها، وهو نبيل وطيب القلب، ومثله أهل للثقة، ويتوجب عليه أن يبقى على هذه الثقة. قال في نفسه: "تلك المسكينة". فتح عينيه آنذاك واستدار ليراها. كانت مشرئبة العنق تحدق في السقف، ذاهلة أو مشوشة الفكر لا يعرف، غير أنها بديعة الجمال، يلذ المرء أن ينظر إليها. ومع ذلك فإن التعامل

معها محفوف بالصعاب وهو لا يخشى الصعاب. إنه وارث قوة أبيه، لا يهاب ولا تلين له قناة وهو عازم على المضي معها حتى يهون أمرها وينكشف له سرها. وجد نفسه يهتف بأسمها وحين التفتت إليه معبرة عن دهشة صغيرة. قال:

- مرحباً.

وحين ظلت دهشتها على حالها، أردف:

- أنا إلى جانبك.

قالت:

- شكراً.

ثم عادت إلى ما كانت عليه.

"هذا فقط" - قال لنفسه - ثم خطا نحو مقعده وجلس، ثم حدق في السقف هو الآخر.

قالت في شبه همس:

- اسمع. إنها الريح. ألا توحي لك بشيء؟

قال:

- كأنها تبحث عن طريدة.

قالت:

- هذا ما أعتقده. إنني شديدة الخوف.

التفت إليها آنذاك. هيّىء له أنها تلك الطريدة، فما راقه ما قال وهاله جوابها، فانقبض صدره وعزم على حمايتها ودرء الخطر عنها. ناداها في شبه همس، مشفقاً عليها. ثم قال:

- لا تخشي شيئاً. أنا إلى جانبك.

قالت:

- حدثني أرجوك حتى أصرف انتباهي عن هذه الريح المشؤومة.

قال:

-لم يعد لدي ما يقال:

نهضت واتجهت إلى حيث يجلس على ذلك المقعد الطويل وشاركته الجلوس في خطوة بدت

له أنها تحمل أكثر من معنى، تحمل الشعور بالألفة والثقة والحاجة، فداخلته طمأنينة كبيرة دفعته لأن يرخي جذعه ويهنأ باقترابه منها، ليس ذلك الاقتراب الجسدي فقط، بل الروحي كذلك. بدت له في تلك اللحظة فتاة مستضعفة، رقيقة عذبة وما عادت ذات الفتاة المتقلبة الأجواء، المتغيرة الأهواء والتي تتقد عيناها من الغضب، تمسك مسدساً وتعلن استعدادها للقتل، ولا الفتاة التي تقود سيارتها بسرعة طائشة، فلا يعود يفصلها عن الموت إلا خيط رفيع، إنها تلك الفتاة الوديعة المتألمة التي ما أن تنفلت من حزنها حتى تدخل فيه، والتي تحب وتكره وتتوجع وتغامر وتلقي بملابسها الداخلية في حوض الاستحمام وتدخل في معطفها.

طال غيابها. عنَّ في باله أن يضمها. أحاطها بذراعه. نظرت إليه وابتسمت ثم نهضت وقالت:

– هل تحب أن ترى صور العائلة.

قال:

– أحب أي شيء عدا هذا السكون؟

حدجته بنظرة معاتبة بسبب هذا الحزن غير المبرر، ابتعدت ثم عادت وبيدها حافظة الصور. جلست لصيقة به ووضعت حافظة الصور على فخذيها. أسبلت يديها وأراحت كفيها على الحافظة. قالت:

– هذه الحافظة تخص صوري.

قال:

– لا أظن صوراً أخرى تعنيني.

كانت مجموعة صورها منتقاة باختيار عفوي من بين مئات الصور كما قالت وتشكل تسجيلاً متتابعاً لحياتها بدءاً من الأيام الأولى لولادتها وحتى تخرجها في المدرسة.

كانت تشبه في الأيام الأولى لولادتها جميع الأطفال، لا يميزها عنهم سوى السرير المتأنق والآرائك الوثيرة التي تحيط بها، غير أن الصور اللاحقة وبعد أن تقدمت في العمر أشهراً، أظهرت تفردها بجمال يتفتح له القلب بيسر، تعرف على شخصية الأب فوجده مفتوناً برجولته، مغرماً بالحياة، مقبلاً عليها وظهرت الأم نموذجاً رائعاً للأم الحانية والزوجة المتفتتنة بزوجها وطفليها. تتابعت الصور التي تظهرها في تدرج عمرها فرآها وهي تنمو وتكتمل وتنضج وتصبح

أجمل وأروع إلى أن استطال عودها واستقام وشمخ. كان ينظر إلى الصور باهتمام. أما هي، فكانت تجهش في البكاء وهي تشير إلى صور والدتها وتقول:

– انظر كم هي جميلة! انظر. أنا وهي في حديقة الحيوانات. هذه كعكة عيد الميلاد صنعتها بنفسها.

حاول أن يكف عن مشاهدة الصور التي أهاجت عواطفها. إلا أنها كفكفت دموعها وجاهدت كي تبتسم وقالت:

– ألا تريد أن ترى المزيد؟ هل اكتفيت؟

قال:

– لا، ولكن بشرط أن تكفي عن البكاء.

شاهد معها صور العائلة في عمان ولبنان وأوروبا، في الطرقات والردهات وقاعات الفنادق، أعلى الجبال وشواطئ البحار.

إنها عائلة جميلة وسعيدة موسرة، تملك السيارات والدراجات والكريستال وقطع العاج والسجاد الفاخر. ما كذبت في حديثها عن ثراء أسرتها وما زادت، فالصور تنطق بكل هذا الثراء والحياة الحافلة بكل ما يطيب للنفس، أدرك انهيار أسرتها على هذا النحو المفاجئ والحاد والذي أنهى سنوات طويلة من حياة الرغد وبحبوحة العيش، وانتهى بها لأن تقبل العيش في منزل سيئ التهوية والإضاءة، وأن تكدح لإعالة والدتها التي أنهكها المرض وتقلب الحال، ثم خلو حياتها من الأصدقاء، باستثناء طبيب يكبرها بعشرين عاماً وشاب عاثر الحظ، التقته مصادفة، ينوء بجهله وقلة تجربته وأحلامه ولا يملك أن يعوضها عن خسارتها الفادحة.

كانا يلتصقان ويتلامسان ويتباعدان ثم فجأة اعتراها شحوب شديد، فأغلقت الحافظة. ونظر إليها ثم أشاح محاذراً أن يقول كلمة أو يأتي بحركة فيجرح مشاعرها. قالت:

– كان ذلك الماضي أشبه بكذبة كبيرة.

انعطفت في حديثها انعطافة حادة تستدعي الدهشة والاستغراب:

– سأقتله.

رفع رأسه مستفهماً، جاهلاً بما دار في خلدها في تلك اللحظة. وقفت وسارت بضع خطوات وقالت بصوت متهدج:

- ما كان أخي بهذا السوء لولاه. كان يمكن أن يكون أخي إلى جانبي الآن.

تابعها وهي تتحرك بانفعال. أدرك قسوة افتقادها شقيقها. قال:

- أنا إلى جانبك.

نظرت إليه بعينين قاسيتين، تنكران عليه هذا الوئام وهذه الألفة التي جمعتهما معاً منذ ساعات. قالت بتبرم:

- ولكنك لست أخي.

طامن رأسه متجنباً الرد عليها. ذهبت إلى غرفة النوم ثم عادت تحمل المسدس في يدها. بدا أنها خرجت عن طورها تماماً، تلامعت عيناها واضطربت حركتها. راقبها متهيباً، كانت تتحرك بلا ضابط أو هدف وأخيراً وقفت في الفراغ بين الباب الخارجي والمقاعد وأسندت رأسها إلى الجدار.

قالت:

- والدكتور أحمد لم يأت كذلك. لم يأت هذا الأناني المتغطرس.

فقال:

- اهدئي دلال. أنا معك ورهن إشارتك.

اقتربت منه حتى صارت بمواجهته. سألته:

- أتأتي معي؟

- بكل تأكيد.

ازداد التماع عينيها. قالت:

- تقرع باب أبي هويمل وحينما يخرج أقتله.

امتقع وجهه. إذ لاحت له جادة فيما تطلب منه. قال:

- لن تقتلي أحداً. لست قاتلة.

قالت:

- بل سأقتله. لن أتقبل الحياة طالما أنه على قيد الحياة.

قال:

– ولن تتقبلي حياتك إن أنت قتلت. كيف يمكن أن تزهقي حياة إنسان ثم...

قاطعته:

– إنه ليس إنساناً. إنَّه وحش مفترس. ينبغي أن يزال من الوجود فلا يعود يسبب أذى لإنسان. أنت لا تعرف. أنت سادر في أحلامك وأوهامك. سأقتله وستساعدني أنت بذلك. اقرع الباب عليه، اطرقه بقبضة يدك وقدمك. وحينما يخرج أكون بانتظاره.

انكمش على نفسه وقال:

– ما شأني أنا. أنا لا أساعد في القتل.

وجهت المسدس نحوه وقالت:

–بل ستفعل. أنهض. سنذهب الآن.

وقف متخاذلاً مرتجف الأوصال. نظر إلى الباب، يحسب كم من الوقت يحتاج لبلوغه، غير أنها انهدمت على حين غرة ووضعت المسدس على المنضدة وألقت بنفسها على المقعد وأجهشت في البكاء. جلس هو الآخر. نظر إليها بمزيج من مشاعر الألم والرثاء والخوف. فكر أنها محقة حين تغضب وتحقد؛ فما من أحد يعيش حياة سائغة، حافلة بكل ما هو بهيج ويتقبل خرابها ببساطة، شعر بعاطفة نحوها، فدنا منها وأحاطها بذراعه فاستكانت. وقالت:

– ستحقد عليّ دون شك؟

قال:

– لن أحقد عليك أبداً. إنك أجمل وأروع إنسانة عرفتها في حياتي.

مال عليها وقبلها على وجنتيها وفتن بالحمرة التي شاعت في وجهها فقبلها مرة أخرى. نهضت مستفزة وقالت بصوت أبح، غريب، يبعث القشعريرة في النفس:

– ستتأذى كثيراً إذا تماديت.

بهت تماماً، فقد جازف بتقبيلها ولم يحسب حساباً لردة فعلها هذه. خفض رأسه وقال:

– أعتذر إليك. لقد تماديت فعلاً.

جلست على مقعد آخر غير الذي كانت تشاركه الجلوس عليه. سألته:

– لماذا فعلت ذلك؟

امتقع وجهه ولم يجب.

قالت:

– لا تفعل ذلك ثانية.

قال:

– شعرت بحب غامر نحوك. اعذريني فأنا لست سيئاً.

قالت:

–أنا لا أتهمك بالسوء. ولكن من الأفضل أن تبتعد عني. ستتأذى كثيراً إذا تابعت ما أنت عليه، ولا أريد أن يلحق بك أذى مني.

قال:

– أنت تبالغين، فأنت أكثر رقة مما تظنين وما السوء الذي تتحدثين عنه سوى تظلمات. لك الحق أن تتظلمي.

قالت:

– وما أدراك؟كيف تحكم عليّ؟ إنك لا تعرفني جيداً. لم ترني سوى هذه الليلة ويستهويك وجودي معك وحيدة.

نهض وقال:

– خير لي أن أنسحب.

تابعته وهو يتجه نحو الباب. توقف عند الباب. استدار وقال:

– أنا لم أختر أن أقضي الليلة معك. أنت اخترت لي هذا. إنه تدبيرك أنت.

التمعت عيناها آنذاك التماعاً زاد في قسوته عما كان وقالت:

– ما العيب في ذلك؟ماذا تظن؟ ماذا خيل لك؟

أمسك بيد الباب وقال:

– أنا لا أقصد شيئاً. إنني أدافع عن نفسي فقط. لقد أحببتك حباً صادقاً بدون ابتذال.

قالت بلهجة آمرة:

– عد مكانك.

التفت إليها. قالت:

– سأقتلك إذا خرجت.

قال متوسلاً:

- أتركيني أرجوك. فهذا أفضل لكلينا.

قالت:

- عد إلى مكانك أرجوك. إنني بأمس الحاجة إليك. اسمع... إنها الريح من جديد. لقد انطلقت الشياطين من عقالها. إنها تتلبسني وتؤثر في عقلي وحواسي.

تسمر في مكانه عاجزاً عن اتخاذ قرار ثم قال:

- اتركي المسدس.

قالت:

- عد أولاً.

قال:

- اتركي المسدس أولاً.

انحنت ووضعت المسدس على منضدة الوسط ثم انتصبت واقفة ونظرت إليه بانخذال آملة أن يستجيب لرجائها. محبطاً ومحيراً، حاول أن يبحث في ذهنه المشوش عن تفسير لهذا كله، فما وجد غير متاهة لا منفذ لها. جلس وحنى رأسه ثم رفعه ووجدها تقف في مكانها ذاهلة تماماً، فقال:

- دلال، لماذا؟

نظرت إليه ثم اتجهت إلى مقعد وجلست. قالت وهي تشيح بوجهها عنه:

- لا أعرف.

ثم تابعت:

- أخفض بصرك، لأنني سأقول لك شيئاً يهز ضميرك.

أطاع، فخفض رأسه واستعد. قالت:

- كنت في الثانية عشرة من عمري آنذاك...

رفع رأسه ونظر إليها، فإذا بها تتألم، فقد تقطب جبينها وظهر الانفعال على حركة يديها.

- سألتني المدرسة وهي امرأة أمريكية شديدة القسوة، إن كنت أنجزت وظيفتي المنزلية، فتذكرت آنذاك أنني نسيت أن احضر دفتري. قلت "نعم مس" ولكنني نسيت الدفتر في المنزل،

فغضبت غضباً شديداً وقالت: أذهبي وأحضري الدفتر. خرجت وكان الجو عاصفاً والريح تعول تماماً مثل عويلها هذه الليلة. ثم تساقط المطر وأنا في الطريق، وعندما بلغت المنزل، شاهدني فاتخذ مظهر الرجل العطوف وقال، حرام. أنت بردانة. أدخلي قليلاً، خفت منه رغم لهجته الودودة فابتعدت عنه، غير أنه أمسك بي بشدة وجذبني نحوه ثم دفعني إلى داخل المنزل ولم يكن أحد سواه هناك. طلب إلي أن أنزع ملابسي فرفضت واستغثت بأبي وأمي بأعلى صوت، اندفع نحوي ونزع معطفي ثم مزق ردائي وهمّ بتقبيلي فعضضته في وجنته، صرخ من الألم ورفع جذعه. كدت أفلت منه وأهرب ولكنه عاد وشدني بقوة ونزع ملابسي الداخلية. يا إلهي كم كان ذلك أمراً مرعباً وبشعاً؛ لم يستطع أن يأتيني من الأمام لأنني كنت أدافع عن نفسي بساقي وساعدي فقلبني على بطني وفعلها من الخلف وأنا أصرخ من شدة الألم. وحين انتهى ابتعد عني فانزاح هذا الثقل الرهيب. قفزت رغم ألمي الشديد وأخذت معطفي وتركت بقية ملابسي وصعدت إلى منزلي. كان يمسك أنفاسه ويحدق بها عاجزاً عن التفوه بأي كلام. قالت:

– أتعرف من يكون هذا المجرم؟ أدار بخلدك من يبعث بي كرهاً لا ينتزعه إلا القتل؟

هب واقفاً وقال:

– أهو أبو هويمل؟ سأذيقه الهوان.

قالت:

– هو بعينه. هو الشر الذي ينبغي أن يزال من الوجود. أتستكثر عليّ رغبتي بقتله؟أتتهمني باختلال العقل حين أرغب إلى هذا الحد بالانتقام.

قال مندفعاً:

– لا. أنت محقة تماماً.

قالت:

– ولكنك رفضت أن تصحبني إلى منزله.

قال:

– أنت محقة في حقدك ولكن لن تكوني محقة إذا قتلت. يجب أن يكون عقابه من نوع آخر.

ألم يعاقب؟

قالت:

– لقد عوقب. قضى في السجن خمس سنوات. ولكن ما الفائدة؟ لقد عاد إلى شروره، فهو يدير مقهى لتوزيع الحشيش ولعب القمار، وعاد لينتقم من والدي وقد فعل، فقد نجح في شراء منزلنا عن طريق المزاد العلني وعرف كيف يصل إلى خالد ويجتذبه ويسكنه الشقة ونجح في السيطرة عليه.

خفض رأسه وعجز عن ابتكار فكرة صالحة يسعف بها الحال فصمت.

قالت:

– لهذا السبب أنا أكره الذكورة وأخاف الجنس وتصيبني رعدة كلما أبدى أحد الأشخاص رغبة في مغازلتي. أفهمت الآن؟ أعذرني أرجوك.

سأل :

– هل يعرف الدكتور أحمد هذه القصة؟

قالت:

– بالطبع لا... أتراها قصة صالحة للنشر؟

نهض منفعلاً فاقداً السيطرة على جهازه العصبي، فتحرك بدون انتظام إلى الأمام ثم يميناً ثم يساراً فإلى الخلف وإلى الأمام وكانت الريح تزداد هياجاً وتزيد في اضطرابه وكانت دلال تراقبه وتدرك ما أصابه فلم تطلب منه الجلوس، رغم أن حركته المنتظمة أرهقتها. ظل يتحرك بلا انتظام ويتوقف ثم يتحرك إلى أن كلّ. فتقدم منها وهو لا يعرف ماذا يريد منها. وجدها ساهمة فقال:

– لو أن همومك توزعت على قبيلة لما احتملت ما احتملت.

رفعت رأسها ونظرت إليه. كانت نظرتها تعكس تاريخاً من الهوان.

قالت:

– هل تلومني إذا عشت فقط لمجرد الرغبة في الانتقام؟

قال:

– تعيشين لمجرد الرغبة في الانتقام. هذا لا يجوز. يجب أن تعيشي من أجل العيش نفسه.

من أجل مذاقه الجميل. فكري بمستقبلك الآن. إن ما حدث حدث وانتهى ولم يعد له وجود إلا في الذاكرة.

قالت:

- انتهى بالنسبة إليك. لأنه لم يحدث معك. أما أنا فقد عشت تلك اللحظات الأكثر قسوة والأكثر همجية. وماذا يوجد في العالم الآن؟ مجرد شرور. الشر في كل مكان، تجده أينما تلتفت، وفي كل أمر ولدى كل شخص. الشر يتحكم فينا ويوجه خطانا. لن تبقى حياتك سائغة هكذا. ستكتشف هذا عاجلاً أم آجلاً. ستعرف الألم. أؤكد لك ذلك.

نهضت وصارت قبالته وجهاً لوجه ورأى ذلك اللمعان المخيف يتراقص في عينيها. قالت:

- ابتعد عن طريقي أرجوك. أنا...

عند ذلك الحد الملتبس، الصعب الذي تجاوز توقعات جلال، بعد منتصف الليل بقليل، رن جرس الباب، فوضع رنينه حداً لما كانت ستصل إليه الأمور. تراجعت إلى الخلف ثم انسحبت من الصالة إلى غرفتها وتلبث جلال في مكانه راجف الجسد مشدوهاً ثم فتح الباب. دخل الدكتور أحمد وكان بالغ الإعياء والاستياء. زائغ البصر. ألقى بنفسه على أول مقعد صادفه.

ما كان مجيئه على هذه الهيئة مبعث طمأنينة، فقد بدا مهزوماً آخر سينضم إلى حلبة، كل من يقف عليها مهزوم. لاحظ الدكتور أحمد بعد أن استقر على مقعده اضطراب جلال ورجفة جسده فتكهن بأن حادثاً أكثر سوءاً قد يكون حدث في غيبته. سأل:

- أين دلال؟

أجابه:

- دخلت لتوها. إنها في حالة لا توصف من الغضب والانفعال. بيدها مسدس دكتور. بيدها مسدس. أخشى أن تقتل نفسها.

هب الدكتور أحمد واقفاً وأسرع إلى الداخل. كانت دلال قد تركت المسدس على السرير والتصقت بالجدار تضربه بقبضة يدها وتبكي.

اطمأن باله لمرأى المسدس وخامرته فكرة أن يلتقط المسدس أولاً وقبل كل شيء، فتقدم نحو السرير ولكنها أحست بوجوده فالتفتت. توقف في مكانه وقال:

- مساء الخير.

ما ردت التحية عليه بل حدجته بنظرة قاسية وقالت:

- لماذا جئت.

خفض رأسه وأجاب بخفوت:

- من واجبي أن أجيء.

قالت:

- ماذا تريد؟

بذات الصوت الخافت أجاب:

- جئت لأطمئن عليك.

قالت:

- أنا بأفضل حال. عد من حيث جئت. لا أريد أحداً. لا أريد رأفة من أحد.

بلغ به التأثر مداه، فما مسك نفسه عن البكاء، فبكى وهو في مكانه خافض الرأس. ما سبق أن رأت منه مثل هذا من قبل، وما اعتقدت أنه قادر عليه، فقد بدا لها على الدوام، ذلك القوي الواثق من نفسه على غلظة لا يستهان بها ورقة قلما تظهر منه.

كان الأمر على صعوبته محتملاً، غير أن دخول العمة في تلك اللحظة أثار غضب دلال. فقالت لها بحدة:

- مالك مثل الشيطان. ما أن تغيبي حتى تظهري من جديد. اذهبي إلى غرفتك. غيبي عن وجهي.

ارتعبت العمة واندفعت مسرعة إلى غرفتها. اغتنمت دلال الفرصة وأخذت المسدس عن السرير وأخفته داخل حقيبة يدها ثم خرجت إلى الصالة. شاهدت جلال ما يزال واقفاً. فما كلمته ولا طلبت منه الجلوس أو الانصراف جلست وضمت يديها إلى صدرها وبدت كتمثال خلا من الحياة.

مكث الدكتور وقتاً آخر في الغرفة حتى ذرف ما لديه من دموع ثم رفع رأسه وفكر أن يأخذ المسدس عن السرير فما وجده فأسرع إلى الصالة. رأى دلال تجلس صامتة ذاهلة وجلال يقف في مكانه. اقترب منه وربت على كتفه وقال:

- لم لا تجلس؟

جلس هو أولاً ثم استجاب جلال وجلس إلى جانبه. فقد كانت تلك اللمسة كافية للتآلف بينهما.

اجتمعوا على صمت متفق عليه دون إعلان وتفرقوا في أفكارهم فلكل منهم همه الخاص.

جاءت العمة، مصممة على الدفاع عن حقها في أن تجد سلوى ما، كانت قد دثرت عري أطرافها برداء سابغ. فما نهاها أحد. جلست على المقعد الطويل والتزمت صمتها المعتاد.

راحت تحدق بهم واحداً واحداً ثم تنبهت إلى وجود حافظة الصور إلى جانبها فأخذت الحافظة خلسة وذهبت إلى غرفتها.

قال الدكتور أحمد لجلال بصوت خفيض:

- لقد أخفت المسدس.

رد عليه:

- لا بد أنها أعادته لحقيبة يدها. كان معها طوال الوقت.

قال:

- للأسف لا أستطيع فتح حقيبة فتاة.

رد عليه:

- لا يجوز ترك المسدس في متناول يدها. أشهرت المسدس في وجهي وطلبت إلي مساعدتها في قتل شخص.

- هل سمته؟

-نعم إنه الشخص الذي كان خالد يستأجر شقه منه، تلك الشقة التي أسكنها أنا.

- معك حق. أنا أعرف أنها تحقد عليه لأنه السبب في فساد خالد.

يبدو أن دلال التقطت بعض الكلمات، فقالت:

- تتحدثان عني؟

قال الدكتور أحمد:

- كنا نتساءل إذا كان الوقت ملائماً لنقل جثمان أمك إلى غرفة الموتى.

قالت:

- ألا يمكن تركها هنا؟

رد عليها:

- لا، الغرفة شديدة الدفء. سيتعفن جسدها. أنت لا تحبين أن ينبعث من جسدها رائحة كريهة.

قالت باستسلام:

- افعل ما تراه مناسباً.

نهض وسار نحو غرفة النوم ليستعمل الهاتف.

عاد بعد قليل وقال:

- أجد صعوبة في الاتصال. هل تذهبين معي إلى المستشفى؟

ردت:

- لن أخرج ثانية في هذه الليلة المشؤومة.

عاد مرة أخرى وأجرى اتصالاً حقق غرضه. فعاد. قال:

- ستأتي سيارة نقل الموتى.

أدركت آنذاك جدية الأمر فصرخت وقالت:

- أمي... أمي...

ثم اندفعت إلى الغرفة وألقت بجسدها على السرير وأحاطت الجثمان بذراعيها وهي تبكي. لحق بها الدكتور أحمد، ولما وجدها على هذا الحال اطمأن قليلاً. فقد ظنها ستخرج المسدس وترتكب حماقة، فتركها وعاد.

سأله جلال:

- ماذا جد عليك دكتور؟ إنك في حالة يرثى لها.

رفع جذعه وحدق في سقف الغرفة، وقال:

- إنها لحماقة كبرى. إنها كارثة. كانت الليلة أكثر صعوبة عليّ في حياتي كلها لا لأنني خسرت مبلغاً كبيراً ولكن لأنني اكتشفت ضعفي. لقد كانت هذه الليلة موعدي الأسبوعي للعب الميسر. أنا لا أذهب إلى ذلك المنزل إلا مرة في الأسبوع حين أكون قضيت مع ابنتي وقتاً كافياً. لي ابنة وحيدة. لطيفة تحب أن أقضي معها أطول وقت ممكن. في أيام الأسبوع الأخرى حين أنشغل عنها طوال النهار لا أتركها قبل أن تذهب للنوم. عندما أتوجه إلى حيث أعرف أن

مجموعة أخرى من الأصدقاء تتجمع. هناك نجلس للطعام والشراب وتبادل الأحاديث. هم لا يلتقون يوم الجمعة لا يتركون منازلهم أبداً يوم الجمعة أما أنا، أنا بدون زوجة الآن أعيش وحيداً مع ابنتي، أذهب للعب "البوكر". كنت أخسر أحياناً وأربح أحياناً أخرى، ولا أعطي للأمر أهمية خاصة، كنت أعتقد أنني أملك حريتي وأنني قادر على ترك اللعب متى شئت، غير أنَّ ما حدث أن الجأني أمر ما لاختبار إرادتي. ما احتجت مرة للانصراف قبل الآخرين، حتى أدرك زيف يقيني. لقد اتضح لي هذه الليلة حجم غواية الميسر وطغيانه. إنها الوحدة اللعينة القاسية التي دفعتني إلى مقارفة اللعب. لقد تكشف لي الليلة سوء وحدتي.

صمت قليلاً ثم اعتدل في جلسته وحدق في جلال ثم أخرج علبة تبغه وعرض على جلال واحدة، فنهض وتناول منه اللفافة وانتظر حتى أشعلها له وعاد. فكر أن يقول له إنه يعرف هذه التفاصيل عن حياته، باستثناء لعب الميسر ولكنه آثر تجنب مثل هذه الملاحظة. إنها ليلة الكشف العظيم.

تابع :

– في ليالي الميسر لا يقدم العشاء إلا في وقت متأخر. فلا أحد يرغب في إضاعة الوقت. قلت لنفسي أشاركهم ساعة ثم أعود. فأخرجت مبلغاً صغيراً. لعبت وذهني منصرف عن اللعب إلى مأساة دلال. فأنا صديق العائلة منذ زمن طويل وأعرفها مذ كانت طفلة. خسرت ما أخرجته من نقود في دقائق معدودة ثم أخرجت مبلغاً آخر وخسرته بمثل سرعة خسارتي الأولى ثم توالت خسارتي. وعندما اتصلت دلال من مركز الشرطة وأعلمتني أنها محتجزة هناك. اتصلت بواحد من المجموعة الأولى وهو عميد سابق في سلك الشرطة وكان خارج المنزل. فقلت أنتظر مجيئه ثم أذهب إليه وهو سيتولى الأمر. فأخرجت آخر ما لدي من نقود وصرت أغامر بمبالغ أكبر واتصل بنفس الوقت وأسال عن العميد حتى وجدته. وبضربة واحدة خسرت كامل المبلغ ثم نهضت وأنا أشعر بمرارة، ليس بسبب خسارتي فحسب بل بسبب عجزي عن ترك اللعب قبل ذلك. ذهبت إلى منزل العميد وأجرى ذلك الاتصال الذي أدى إلى تركِكم أحراراً. كان يجب آنذاك أن آتي مباشرة هنا، ولكنني كنت أحمل دفتر الشيكات ووجدت نفسي منجذباً بقوة إلى ذلك المكان، حيث يدور اللعب. لعبت من جديد بعد أن حصلت على مبلغ من الرابح مقابل شيك وخسرت المبلغ أيضاً.

نهضت آنذاك وألقيت نظرة أخيرة على الأشخاص فرأيتهم وحوشاً كاسرة يفترسون المال. ما اكترث أحد منهم بنهوضي. اعتقدوا ربما أنني سأتنحى جانباً لبعض الوقت ثم أعاود اللعب، غير أنني سرت مباشرة نحو الباب وخرجت حاملاً معي خيبتي والمرارة وضياعي وشعوراً بفقدان الاتزان وأكثر من ذلك شعوري بأنني أذنبت ذنباً قد لا تصفح عني معه دلال. كنت قد عرضت عليها الزواج وفي هذه الليلة أدركت أن ليس من سبيل أمامي إلا الاقتران بدلال وبدء حياة جديدة نظيفة. ولكنني قضيت على هذا الأمل أيضاً.

صمت قليلاً ثم نظر إلى جلال برجاء وسأل:

- أتراها تغفر لي؟

أجابه:

- أنا ما عرفتها سوى هذه الليلة ولكن لكل ما بدر منها أرى أنها عطوفة، حنونة، كثيرة الصفح. ستصفح عنك دون شك.

قال:

- أشعر بجوع. هل ثمة ما يؤكل؟

أجابه:

- أعتقد ذلك، فقد أكلت العمة قبل قليل. لا بد أن تجد شيئاً في المطبخ.

نهض وذهب إلى المطبخ وصار جلال وحده. أطفأ لفافته وفكر أن يغادر الآن لئلا يعيقهما عن تبادل الأحاديث. ولكن كيف التوصل إلى ذلك؟أية حجة يمكن أن يقنع دلال بها؟

حتى الآن كان يعيش على ضفاف عمان، ساهياً، لاهياً، قانعاً بعزلته. أما وقد دخل لجتها فكم حصد في ليلة واحدة؟كم رأى من أهوال وبؤس وشرور وآثام. أثمة المزيد أم سيتوقف تدفق الغرائب عليه مع مجيء الدكتور أحمد؟

عاد الدكتور أحمد. كان قد اغتنم خلوته في المطبخ وذرف مزيداً من الدموع وما كان ذلك بخاف، توجه إلى الغرفة واطمأن باله على دلال التي كانت لا تزال تحيط الجثمان بذراعها ثم عاد وجلس. قال:

- ما زالت بذات الوضع، تحيط الجثمان بذراعها، تتشبث به.

عقب جلال:

– مسكينة. ما سمعت عن أحد من الناس توالت عليه الكوارث وثقلت عليه الأحمال بهذا القدر.

وجه الدكتور أحمد سؤالاً أربك جلالاً وجعله يفكر فيما يجوز له أو لا يجوز التصريح به. قال:

– أتسمح لي أن أسألك. على أي أساس بنيت رأيك هذا؟

أجاب:

– من واقع الحال. على قلة ما سمعت وقلة ما شاهدت.

ظل يحدق به غير مكتف بجوابه. فتابع:

– صحيح أنني لم ألتقها سوى هذه الليلة، غير أن الوقت على قصره كان متخماً بالأحداث والمشاعر إلى حد يفوق الوصف، عندما جاءتني تسأل عن أخيها كانت تحتفظ بمشاعرها. ما أظهرت سوى أنفة وصلفاً أثارا استيائي. لكنها انهارت بعد أن تأكدت أن أخاها ترك مكانه وأنني حللت محله، انهارت وفقدت تماسكها وأظهرت ما في داخلها من أسى وقلق. قالت إنَّ أمها تموت وهي بحاجة ماسة إلى أخيها، ورجتني أن أسأل صاحب الملك إن كان يعرف عنه شيئاً وقد فعلت، فقد كانت بأمس الحاجة إلى عون. كانت شديدة الاضطراب. لقد أشار صاحب الملك بشكل غامض إلى تلك الأماكن سيئة السمعة التي يمكن أن يتواجد فيها، فابديت استعدادي لمزيد من العون في أن أذهب معها إلى تلك الأماكن لأسأل عنه هناك، فما كان بإمكاني أن أترك فتاة نبيلة موجوعة تذهب هناك. وفي الطريق إلى هناك وَجَدَتْ أن واجبها يقضي بتفسير هذا الغموض فيما يتعلق بأخيها، فحدثتني عن انهيار أسرتها وفساد أخيها وأدركت آنذاك أنها وحدها التي تحملت نتائج هذا الانهيار وحين دخلت المنزل، تأكدت بنفسي ووجدت أي عبء تحمل على كاهلها وكيف يطوقها البؤس، لماذا تسألني؟ هل أخطأت التعبير؟

أجاب:

– أبداً. إنه سؤال خطر ببالي دون قصد.

– ولكنك لا تقرني على رأيي فيما يبدو.

أجاب:

– إذا كنت أنا لا أقرك فمن ذا غيري يقرك. لقد شاهدت خلال حقبة طويلة من الزمن

ما يجعلني أضعها ﱎ مصاف الندرة من البشر الذين حملوا من الهموم ما لاطاقة لغيرهم بحمله.

التزما الصمت بعد تلك المحادثة القصيرة، فما كان أي منهما معنياً بالآخر إلا بقدر ما يتصل الأمر بدلال، وقد قال كل منهما ما أمكن التصريح به واكتفى، وتوجب الصمت حتى لا يفرط الواحد منهما بأكثر مما يقتضيه الحال.

مضى الوقت بطيئاً ثقيلاً عل النفس وكل منهما يعاني صدمة خاصة به، تستدعي منه الانصراف عن الآخر والتفكير ببواعث تلك الصدمة.

وفيما هما على هذه الحال، سمعا وقع أقدام ﱎ الممر، فهب الدكتور أحمد واقفاً وقال:

- لقد جاؤوا.

توجه إلى الباب وفتحه، فدخل ممرضان يرتدي كل منهما واقياً أبيض وقفازين ويحملان نقالة. طلب إليهما بتأدب أن يجلسا وأستأذنهما ثم توجه إلى الداخل.

كانت دلال قد أخذتها سنة من نوم. ربت على كتفها وناداها باسمها، ففتحت عينيها فزعة.

قال:

- لقد جاؤوا لأخذ الجثمان.

ما جلس الممرضان بل اقتربا من المدفأة يستعينان بها على البرودة التي تسللت إلى أطرافهما. علق جلال:

- البرد شديد ﱎ الخارج.

أجاب أحدهما:

- لقد بدأ الثلج يتساقط.

قال الآخر:

- يا لها من ليلة! لقد كثر الموت. هذا سادس جثمان ننقله الليلة.

عقب الآخر:

- هذا إضافة إلى حوادث الطرق.

جاء الدكتور أحمد دامعاً ثم تبعته العمة تحيط دلال بذراعها. كانت الاثنتان تبكيان فدمعت عينا جلال كذلك. سار الدكتور أحمد مع الممرضين إلى الداخل ودفعت العمة دلال إلى المقعد الطويل وجلستا.

حمل الممرضان الجثمان على النقالة. اجتازا الصالة بخطى شبه عسكرية، يتبعهما الدكتور أحمد. توثب الجميع ثم اندفعت دلال نحو الجثمان. غير أن الدكتور منعها، أسرع جلال نحو الباب وفتحه، فخرجا. تزاحم الثلاثة على الباب في وداع الجثمان الذي جلل بملاءة بيضاء. كان موكباً من البياض يبتعد. وكان الثلج يتساقط مثل فراشات بيضاء. سمعوا هدير محرك السيارة ثم انطلقت بالجثمان. دفع الدكتور أحمد دلال إلى الداخل ثم ارتد جلال وأغلق الباب. لقد انتهى فصل من فصول الليلة الآن.

خلد الجميع إلى صمت وساد الصالة سكون مهيب.

في غمرة ذلك السكون، تثاقل جفنا جلال شيئاً فشيئاً ثم استولى النوم عليه ونهضت العمة واتجهت إلى غرفتها.

قالت دلال:

–مسكين. لقد كل. لقد تعرض هذه الليلة لأسوأ ما يمكن أن يحدث له في حياته كلها.

عقب الدكتور أحمد:

– لا أحد مسكيناً. لا بد أن في نفسه غرضاً. وثقت به أكثر مما يجب.

نهضت آنذاك وقالت:

– أسمع. أنت لا يحق لك قول ذلك. لا يحق لك توجيه هذا الكلام لي.

بهت تماماً فما كان ينتظر مثل ذلك الرد، غير أنه سرعان ما تمالك نفسه وقال:

– إذا غضبت بسبب عدم مجيئي إلى المخفر فوراً، فإنني أعتذر إليك مجدداً، كان يجب أن أعثر على العميد أولاً.

قاطعته وقالت:

– ليس بسبب ذلك، بل بسبب ما قلته الآن. أن تمس إنساناً لا ذنب له سوى أنه دفع إلى مساعدتي ونال جزاء مساعدته، أذى وسيئات فهذا ما يمسني أنا ويظهر عدم تقتك بي في الوقت ذاته. أنت تعرف أنني لست سلعة سهلة. أنت تعرف ذلك أكثر من غيرك وأنت تعرف

أنني لا أقبل الإهانة.

ثم، وكأن عاصفاً زلزل كيانها - ارتعش جسدها والتمع فصا الماس في عينيها وقالت:

- لن أحتفظ الليلة بشيء في نفسي ولن أكتم سراً، ما نفع الكتمان الآن، ما عاد للسر أهمية، ما عاد لحياتي أية أهمية. أنتم الذين تنعمون بالعيش الهنيء، احفظوا أسراركم واكتموا عيوبكم واتركوني.

تحاشى النظر إليها وطامن رأسه ثم قال بصوت واهن:

- أعتذر إليك. كان ما قلت خطأ.

قالت:

- إنك تخطيء ثم تعتذر. هل يتساوى الخطأ والاعتذار؟

-ماذا يفيد الاعتذار بعد القول الجارح؟ماذا تفيد إعادة النصل إلى غمده بعد الجرح. هل يزيل ألم الجرح أو يشفى؟

جلست وانصرفت عنه وتركته يفكر بخطيئته التي أضيفت إلى أخطاء سابقة، وما أدرك كنه كلامها في حينه ولا أثار ريبته.

نهضت بعد قليل وطلبت منه لفافة. أخذتها وأشعلتها وتوجهت إلى النافذة، كانت الريح تصاحب العاصفة الثلجية. ما كانت ترى الثلج ولكنها كانت تسمع صوت الريح. تلبثت هناك إلى أن أنهت لفافتها ثم عادت ووضعت عقب اللفافة داخل المنفضة، وضغطت عليها بقوة ثم توجهت إلى مكانها وجلست.

بعد الواحدة بقليل. سألته:

- أين كنت؟

رفع رأسه ونظر إليها. كان أديم وجهها قد صفا وأخضلت عيناها قال:

- سأكون هذه الليلة صريحاً. لن أكتم سراً ولن أخفي عيباً، فأنا على حافة الانهيار.

أفاق جلال من النوم وفتح عينيه مشدوهاً، فقد كان يحلم في لحظة صحوه، ظل معلقاً بين الحلم والحقيقة، فما عرف الوقت ولا المكان ثم استكمل صحوه وسمع صوت الدكتور أحمد فاستعاد حضوره.

قال الدكتور أحمد:

- كنت في سهرة ميسر. لعبت "بوكر" الليلة وخسرت نقودي. لقد كذبت عليك وأنني لأخجل من نفسي. ما كنت قادراً على مقاومة تلك الغواية. قلت أقضي شبقي ساعة وأعود إليك. وما كنا نتوقعه حصل وليس بإمكاني إعادة المرحومة إلى الحياة. قلت أشبع نهمي وأعود. فعلت مثلما يفعل والدك. أعرف أنَّ هذا سيذكرك به وسيعيد لك ذكرى مؤلمة، وأعرف أنك ستشمئزين من سلوكي ولكنني عاهدتك على الصراحة. أنا خجل للغاية.

عقبت:

- ما الفرق بينك وبين خالد إذاً.

أجاب:

- لا تذهبي إلى هذا الحد أرجوك. ثمة اختلاف.

قاطعته وقالت:

- الفرق أنك مقامر مع أكابر القوم وفي صالات حسنة الإضاءة فارهة، وخالد يقامر في أماكن سيئة الإضاءة... نتنة.

قال:

-أشاطرك الرأي بأن ما يجري هنا وهناك بنفس السوء وإن اختلف المكان، غير أن ذلك لا يمثل سيرة حياتي، أنا أذهب إلى هناك مرة في الأسبوع وليس من زمن بعيد. حدث ذلك بعد طلاقي بأشهر ولم أفكر بعاقبة ذلك. ما أحوجني شيء للتفكير بسوء ما أفعل. أما هذه الليلة فكانت اختباراً حقيقياً. أدركت سقم وسفاهة ما نقوم به. احتقرت نفسي والآخرين. لا تزيدي الأمر سوءاً علي أرجوك.

قالت:

- سوء على سوء وشر على شر هذا هو حصاد الحياة.

التفتت ورأت جلال يحدق في سقف الغرفة ناجياً بنفسه من هذا السوء. خاطبته:

- وأنت أيضاً ليس أفضل. أنت تعزل نفسك عن العالم فقط، ولكنك عاجلاً أم آجلاً ستشترك بهذه اللعبة القذرة.. لعبة الحياة وستجد أنك في السباق إلى الفوز بالمغانم ستتحول إلى وحش.

رد عليها:
-شكراً على ثقتك.

قالت:
- لماذا تدعي أنك حمل وديع. ألم ترتكب الآثام؟
نهض وخطا ثم صار في وسط الصالة وقال:
- بلى. لقد اقترفت الكثير من السيئات غير المنظورة. لقد تواردت علي هذه الليلة مندددة بي.
اتجه نحو الباب وفتحه ثم أطل وقال:
- ها أن الثلج يتساقط وسيكسو الأرض ويخفي عيوبها.
أغلق الباب وعاد، ثم خاطبها:
- دعي العيوب والآثام في مخابئها وناشدي فينا الخير. لقد انقضى يوم الجمعة على شره، وأسدل الثلج الستار على ما قد تم. اسمحي لنفسك - ولو لمرة واحدة - أن تري شيئاً جميلاً.

فتن الدكتور أحمد بهذا القول، فنهض هو الآخر واتجه نحو الباب وفتحه ثم خرج وسار في الممر. كانت الأرض لزجة فحاذر في سيره ثم ارتقى الدرج ووقف يراقب ما لا يحصى من نتف الثلج وهي تتساقط.

قال جلال:
- ليس القمار هو الذي أشغله. كان يتصل بمنزل العميد طيلة الوقت. لقد حدثني بألم شديد عن ذلك. لو رأيته حين دخل لرأفت به.
نهضت دون اكتراث ونهض. اتجها إلى الباب ثم خرجا وسارا في الممر ثم صعدا الدرج ووقفا إلى جانب الدكتور أحمد. التفت إليهما وقال:
- مارأيكما بجولة في سيارتي إنها قوية وتستطيع أن تشق طريقها بدون صعوبة.
وافقاه وسار الثلاثة نحو السيارة. أخذ الدكتور أحمد مجلسه خلف المقود، وجلست دلال إلى جانبه وجلس جلال على المقعد الخلفي. أدار محرك السيارة وانطلق ببطء. وضع شريطاً في مسجلة السيارة، فانهمرت إيقاعات البيانو.

اعتقد جلال أنهم جميعاً وضعوا حداً لالام هذه الليلة، وأن الثلج الأبيض الذي كسا عمان شفى تلك الندوب، فاغتبط وأرخى جذعه وتابع تساقط الثلج وفكر أن ما حدث معه هذه الليلة كان درساً بليغاً يساعده على نبذ رذيلة من رذائله، وليبدأ صفحة جديدة مع مطلع النهار. رأى في هذا البياض الذي يجلل المدينة فتحاً لمسار سليم وحياة مغايرة. أما دلال فقد مسها بله شديد وهي تشاهد نتف الثلج تتساقط بغزارة وتعيق الرؤية. استكانت دون يأس أو رجاء، وعزفت عن مجاراة الاثنين في تعليقات مبتسرة، متناثرة، جاءت في سياق التفاعل مع هذا الحدث الكوني. كانت قد بلغت ذروة انفعالها واستقرت الآن على هذا الهدوء الأبلة. لقد كمنت ذكريات الماضي كموناً عفوياً، غير أن تباشير غد جديد أفضل قد تفتحت.

اجتاز الدكتور أحمد شوارع عديدة وحاذى ساحات بيضاء عديدة، وهبط وعلا والثلج يتساقط وايقاعات البيانو تتوالى ومساحتا الزجاج تدفعان الثلج عنه بلا هوادة.

شعرت دلال بالخواء فلم تعد تراقب الثلج وأغمضت عينيها. تملكها النعاس فغفت. رأت أمها في المنام. رأتها بمنامة بيضاء فضفاضة. اقتربت منها ومدت يدها نحوها وقالت:

- تعالي دلال.

قالت:

- أمي أتركيني أرجوك. فأنا متعبة بحاجة لقليل من النوم.

ردت عليها:

- لا.. لا تعالي.

ثم اقتربت منها وهمت بلمسها، فقالت برجاء:

- أمي لا تلمسيني. دعيني أنام.

ردت عليها:

- تعالي ننام معاً.

قالت:

-ولكنك ميتة أمي.

أجابتها:

- لا... لقد نهضت من الموت. انظري.

نظرت وبدا لها كذب التي تخاطبها، فهي ليست أمها وإن كانت تشبهها، هذه الشبيهة غريبة النظرات ولها نابان. صرخت وقالت:

- أنت لست أمي. ابتعدي عني...

ابتعدت المرأة فتنفست الصعداء.

أفاقت بعد هذا الحلم ورأت كل ذلك البياض فازداد شعورها بالخواء.

مضى من الوقت أكثر من ساعة فاتخذ الدكتور أحمد قراراً بالعودة.

سأل:

- يكفي؟

أجاب جلال:

- يكفي.

أما دلال التي كانت ما تزال تعاني من غرابة حلم منامها فما عقبت.

في طريق العودة تذكر الدكتورأحمد وهو يراقب جهد المساحتين لدفع الثلج عن الزجاج ويصغي إلى موسيقى شايكوفسكي، مشهداً سينمائياً من فيلم شاهده منذ زمن طويل مأخوذ عن مسرحية يونانية قديمة، فقال:

- يذكرني هذا بمشهد سينمائي. كان بطل الفيلم قد قرر الانتحار في يوم مثلج، فقاد سيارته بسرعة دون أن يشغل المساحتين، وراح يصغي لباخ والثلج يتزاحم على زجاج السيارة حتى غطاه بطبقة كثيفة فما عاد يرى شيئاً ثم تهاوت السيارة من أعلى إلى أسفل واد.

قالت دلال:

- الآن. افعل الآن مثلما فعل.

ومدت يدها لتوقف المساحتين عن الحركة، فأمسك يدها وأبعدها.

قالت غاضبة:

- لماذا ذكرت القصة إذاً. لماذا تحبب الموت إلي بهذه الطريقة. لماذا.. ما الذي دفعك لتروي هذه القصة؟

أجاب:

- إنها مجرد مشهد سينمائي خطر ببالي. لم أقصد أن أثير لديك شيئاً.

خاب ظن جلال وأدرك أن ألم هذه الليلة ما انتهى. وأدرك الدكتور أحمد أنه جازف برواية

القصة في هذه الليلة، فانكمش وتابع قيادة السيارة إلى أن بلغ المنزل.

عاد الجميع إلى المنزل. كانت الساعة بلغت الثالثة تماماً. تفرقوا في الداخل، أخذ كل من الدكتور أحمد وجلال مقعداً ودخلت دلال إلى غرفة النوم. ارتعشت حين دخلت.

لقد فقدت هذه الغرفة كائناً عزيزاً وغدت خواء محضاً. ما زال الموت عالقاً فيها وها هو يثير في أوصالها رعدة وبرودة. لم تعرف ماذا تفعل هنا. ما أحبت الجلوس ولا الاستلقاء على السرير ولا الوقوف.

إن الموت ليدنو منها كثيراً، إنه مفزع. جاءها رسوله في المنام على هيئة امرأة مراوغة لها أنياب. إنه ماثل أمام عينيها الآن وسط ذلك البياض. الجدران بيضاء وملاءة السرير بيضاء والثلج الذي كسا المدينة أبيض. هذا البياض كله أليس كثيراً هذه الليلة؟ وهي في معطفها الأسود وسط هذا البياض البارد الذي يحاصر الروح ويسلبها الرغبة في العيش. هل الموت كامن في البياض الذي يحيط بها أم السواد الذي تتسربل به. إنها وحيدة وسط كل هذا البياض وداخل هذا السواد. وحيدة لا يجمعها إلى كائن آخر جامع. لا يجمعها إلى الدكتور أحمد جامع ولا يجمعها إلى جلال جامع ولا يجمعها إلى العمة جامع. أية حصيلة حياة هذه. وماذا عن الغد. هل ستحتمل غداً آخر. هل ستحتمل وحدتها وضيقها بالآخرين وأحقادها. كان يجب أن تقتل أبا هويمل هذا المساء ثم تقتل نفسها. لماذا ما فعلت ذلك. أي رجاء في غد آمن. توجهت إلى حقيبة يدها. فتحتها وأمسكت بالمسدس. أصابتها رعدة فتركت المسدس وأغلقت الحقيبة وخرجت من الغرفة إلى الصالة.

كانت الصالة على الكثير من العلات المنظورة وغير المنظورة مكاناً أقل إجحافاً فيما يتعلق بدلال، فتقبلت الجلوس، غير أنها نأت بنفسها عنهما.

كان الدكتور أحمد مبتئساً ابتئاساً شديداً، فما رغب في حوار لن يعبر بالضرورة إلا عن حالة بؤسه، وما رغب في إشراك جلال وهو الشاب الأصغر سناً والذي ما عرفه من قبل، والذي قد لا يراه مرة أخرى، في همومه. طامن رأسه وأذعن لموجات من الألم توالت عليه. لقد أدرك منذ بعض الوقت سراب وهمه، فهو لن يصل إلى السلطة ولا تسمح طبيعته بذلك. كما أنه عجز عن مجاراة أصحاب المال والنفوذ، ولهذا ارتضى معاشرة من هم دون ذلك ،وقنع بأسلوبهم الساخر الذي يتناول كل شيء وكل إنسان، وأَمِلَ في الزواج وبدء حياة جديدة مع دلال مطهرة من كل رجس ومن كل طمع.

ووجد جلال نفسه يفكر به. استعاد حضوره في أول الليل، غلظة ملامحه وجهامة جسده وذلك المعطف الذي يكسبه وقاراً منفراً. استعاد حضوره حين عاد مرة أخرى، منهكاً كسير الخاطر زائغ البصر، وهو الآن يجلس مخذولاً لا يسعفه أحد. إنه ينتمي إلى جيل فقد هويته وإلى شريحة متذبذبة ولكنها لا تعرف سماحة النفس.

وهو إن جالسه في هذا المكان البائس وإن أشركه في رحلة ثلجية، فقد فعل ذلك مضطراً لان هدفه الفوز بدلال، فهي تملك كل المقومات لتجعله يفعل أي شيء للفوز بها. قرر هو الآخر أن يتجنب أي حوار معه.

أخرج الدكتور أحمد علبة تبغه وقبل أن يتناول لفافة، نهض واتجه إلى دلال التي جلست على طرف المقعد الطويل، وقدم لها علبة التبغ فاخذت لفافة، أشعلها لها وجلس إلى جانبها. رغب في محادثتها، غير أن الحديث تعذر عليه بعد صمت طويل قال:

- يرحمها الله. كانت امرأة فاضلة.

ما أعطت قوله أية أهمية، فمثل هذا الكلام لا يرد إلا من غريب أو شخص لا يقصد العبارة بذاتها، بل بما قد تفتح مجالاً لحديث آخر حتى لو دار في السياق ذاته. تابع:

- كانت عزيزة النفس، كريمة.

أهملت ملاحظته هذه أيضاً.

تابع:

- لها ذوق أهل لبنان. لكم كانت أنيقة، لطيفة المعشر ومائدتها شهية.

ما عادت تحتمل. قالت:

- أرجوك دكتور إنك تؤلمني. ألا تعرف ذلك؟

قال:

- ليس الأمر بيدي. لقد كانت عزيزة علي وكذلك كان أبوك.

قالت:

- أرجوك تحدث في موضوع آخر.

قال:

- إنني أفكر بك، هل ستبقين وحيدة؟

قالت:

- أنا دائما وحيدة حتى مع وجود أمي.

قال:

- أنا لا أقصد هذا النوع من الوحدة، فأنا أشعر بالوحدة حتى وأنا محاط بالأصدقاء. أنا أتحدث عن الوحدة بمعناها المادي والاجتماعي، حين لا تجدين حتى من تتحدثين إليه.

ردت عليه:

- عمتي ما زالت موجودة.

سأل باستغراب

- عمتك؟!؟

أجابت:

- نعم عمتي.

قال:

- كنت سترسلينها إلى مأوى العجزة. أليس كذلك؟

ردت:

-وقد أفعل ذلك. لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث. لقد نفضت يدي من العالم. قد أتقبل أي شيء أو لا أتقبل شيئاً على الإطلاق.

تأكد له الآن أن عرض الزواج مرفوض وأن الوقت غير مناسب لمفاتحتها في الموضوع.

نهض وقال:

- استأذن الآن. اشعر بإرهاق شديد. سآتي في النهار لأتكفل بمراسيم الدفن.

نهض وسار بضع خطوات ثم التفت إلى جلال، وقال:
- دعني آخذك في طريقي ولنترك دلال تأخذ قسطاً من الراحة، فالنهار سيكون متعباً.
قال جلال:
- أنا باق.
نظر إليه بحنق. كانت نظرته الحانقة سبباً في حنق مماثل، فسأله مغتاظاً:
- لماذا تنظر إلي هكذا؟
أجاب:
-لأنه من غير المعقول أن تبقى. دلال بحاجة إلى راحة.

قالت دلال:
- إذا كنت أنت لا تستطيع أن تحتمل قضاء ليلة واحدة معي في أسوا أوقاتي. فلماذا لا تتركه وشأنه؟ لماذا تريد منه هو الآخر أن يتخلى عني؟

أجاب:
- أنا لا أتخلى عنك. أنا أريد لك الراحة.
نهضت مستفزة وقالت:
- أية راحة هذه التي تتحدث عنها. أراحتك أنت أم راحتي أنا؟هل تعرف ماذا سيحدث لي إذا خلوت بنفسي هل تعر ف ما ينتظرني في غرفة النوم. ؟ إن الموت ما زال يخيم هناك ولا أستطيع احتماله. اذهب أنت واتركه طالما أنه قادر على احتمال رفقتي على ما فيها من سوء.

قال:
- أنت محقة. لن أذهب أنا كذلك.
عدل عن الذهاب وجلس وظلت هي واقفة ثم توجهت إلى النافذة وتلبثت هناك. نهض هو الآخر وسار صوب النافذة وقال:
- أما كان مشهد الثلج رائعاً ؟ يصعب أن نراه من هنا.
ما أجابت.

قال:

- أظنُّ أنه سيستمر في التساقط.

بقيت على صمتها.
- أليس لديك ما تقولينه؟ أنت تمتنعين عن الحديث وتزيدين الأمر سوءاً.
ما أجابت.

قال:
- لم كل هذا الصمت. أنت إنما تعاقبينني.
اخرجها إلحاحه عن طورها. ابتعدت عنه ووقفت في وسط الغرفة وقالت:
- إنك تدفعني إلى الحديث وأنا لست في حال تسمح لي بمجاراتك. لقد كنت دائماً أنت المتحدث وأنا المستمعة. فما حدث الليلة؟. إنني أنز ألماً لكل ما جرى لي في حياتي ولما جرى هذه الليلة. إنني لا أرى إلا خرائب حياتي وفجاءات القدر القاسية، وأنت ما ساعدتني أبداً. كنت تحدثني عن فساد العالم وكأنني لا أراه. كنت تقنعني أن لا خير في الناس وكأنني كنت أرى الخير فيهم. كنت تأتيني لتلقى بهمومك علي ثم تشعر بالراحة وتمضي إلى سهرة مع اصدقائك أو تعود إلى منزلك الوثير، حسن الإضاءة والتهوية والتدفئة وفي الصباح تأتيك الخادمة بالقهوة والعصير. أية مفارقة هذه؟أنت تفتح لي الجرح وتبرأ من ضيقك. لقد عرضت علي الزواج هذا صحيح، لأنك تريد أن تزيد إلى أشيائك الجميلة زوجة جميلة ولكنك لا تعرف أي قبح داخل هذا الجمال.

نزعت معطفها وقالت:
- هذا الجسد الذي يفتنك بجماله. إنه يمتلئ قبحاً في الداخل.
ما عادت قادرة على امتلاك زمام نفسها. أخذ جسدها يرتعش وعيناها تقدحان شرراً. أدرك جلال أنها ترتكب حماقة الآن فتوجس شراً.

تابعت :
- لقد قرعت أجراس الإنذار.
نهرها الدكتور أحمد قائلاً:
- أنت سيئة المزاج فقط. كفي عن هذا الهراء.

ردت عليه:

- لا توجه إلي أوامر فلست محظيتك. أنا سيئة المزاج، هذا صحيح، فهل كنت تتوقع مني أن أكون حسنة المزاج. أنا في قمة السوء الآن، ولا أتلقى توجيهات إلا من سيدي الشر. الآن قل سيدي الشر ماذا أفعل. أنا في خدمتك الآن. التفتت إلى جلال وقالت:

- أما حذرتك من شر نفسي من قبل، لماذا لم تذهب حين عزمت على الذهاب. الآن أقول لك اذهب ولا تعد.

أدرك جلال أن الدكتور أحمد ما سبق وأن رآها على هذه الحال، وإلا لحاذر كثيراً وتفادى أن يثيرها. قال:

- وعدتك أن أبقى مهما رأيت منك.

ردت عليه:

- ستندم إذاً. ستندم كثيراً.

ثم اندفعت إلى غرفة النوم. ما كانت تعرف لماذا عادت إلى غرفة النوم، فليس فيها إلا ظلال الموت السوداء تحط على ملاءة بيضاء. ما جاءت طلباً للخلوة ولا الاضطجاع على السرير. كانت مشوشة الذهن. نهباً لنداءات خفية غامضة. كان كل ما أساءها في حياتها، كل ما تأذت منه يتعاظم الآن، فيعزز لديها مشاعر الإحباط والخط، تحركت بانفعال وضربت الحائط بكفيها، لا سلام لنفسي إلا بالموت. ولكن الموت مخيف، ساعدني يا ربي.

قال جلال:

- لهذا أنا باق. سترتكب حماقة دكتور. أنا واثق من ذلك. أنا كنت هنا طيلة الوقت ورأيت منها ما يثير الفزع حقاً. دعنا نفعل شيئاً. يجب أن نمنعها دكتور. يجب أن نحصل على المسدس.

نهض وسار باتجاه الغرفة. لحق به الدكتور أحمد. سمعت وقع أقدامهما تقترب، فاستشاط غضبها أكثر وازدادت حمى انفعالاتها. أغلقت الباب بالمفتاح وعالت كما عالت مع الريح من قبل. قرع جلال الباب وقال:

- دلال افتحي الباب أرجوك. أنا شريك ليلتك. أريد أن أتحدث إليك.

ردت عليه:

- ابق مكانك أفضل لك.

خاطبها الدكتور أحمد ورجاها أن تفتح الباب.

قالت:

- وأنت أيضاً ابق مكانك. لا أريد أياً منكما. لا أريد أحداً. اتركاني وشأني.

حاول جلال فتح الباب فوجده مغلقا بالمفتاح. التفت إلى الدكتور أحمد وسأله:

- هل نكسر الباب؟

أجابه:

- لا.. سيدفعها ذلك إلى فعل، قد لا تفعله لو تركت لحالها. دعنا نتحدث إليها فقط. نشاغلها في الحديث.

رد عليه:

- أما كفاك ما فعل حديثك بها.

طأطأ رأسه وقال:

- جرب حظك أنت. أنتما في سن الشباب وتملكان مفاتيح مشتركة.

رد عليه:

- أنت بهذا غلطان. فقد قفزت فوق مرحلة الشباب.

حملت الكرسي من فرط غضبها وهياجها وألقت به على الأرض. سمعا الصوت. تساءلا:

- ترى ماذا تفعل؟

سمعاها تقول:

- أضرب، ضربك الموت، تضرب امي ياجبان. تسكر في الخارج وتضرب أمي، وأنت تضربني يا تافه... أرحمني أرجوك.

صرخت بصوت عال:

- عمتي.

اندفعت نحو الباب وضربته بقبضي يديها. ونادت :

- عمتي - أين أنت. الآن تختبئين أيتها الخبيثة. إنني بحاجتك الآن.

قال جلال:

- إنها تسأل عن العمة. اقرع بابها يا دكتور وجيء بها. خلاصنا في العمة الآن.

استجاب دون تردد وذهب إلى غرفة العمة وطرق بابها ثم فتحه وهز جسدها، وقال:

- أفيقي.

فتحت عينيها فزعة.

قال:

- دلال في حالة انفعال شديد. إنها تستغيث بك.

هبت واقفة.

- أنها تغلق باب الغرفة وتستغيث بك. لم نستطع فعل شيء.

اندفعت إلى الغرفة، فتراجع الاثنان إلى الصالة. نادتها:

- دلال أنا عمتك افتحي الباب.

ردت عليها:

- انتظري قليلاً. سأعلن الحرب.

قالت:

- شافاك الله يا ابنتي. أية حرب هذه.

فتحت دلال حقيبتها. أخرجت المسدس ووضعته على السرير. أخرجت عطرها وألقت به على الارض، ففرقع وتناثر الزجاج، أخرجت القداحة الذهبية وألقت بها إلى الجدار ثم أخرجت أحمر الشفاه، ورست خطوطاً على وجهها، كما يفعل محاربو الهنود الحمر. أخذت المسدس وفتحت الباب، فزعت العمة إذ رأتها بهذه الهيئة وبيدها المسدس. قالت دلال:

-عمتي. أبو هويمل ما زال حياً. أتذكرين حين هجمت على منزله ونهشت لحمة بأظافرك. كان يجب أن تقتليه آنذاك. إنه ما زال حياً. فلنذهب ونقتله.

قالت العمة:

- بودي أن أقضم لحمه. ولكن ليس الآن يا ابنتي. أنت مجهدة.

ردت عليها:

- لا.. لست متعبة سوف أشفي غليلي هذه الليلة. أنا وأنت وصلنا نهاية الطريق، لم يعد لنا مكان في هذا العالم. هذا العالم ليس لنا، دعينا ننتهي من كل ذلك قبل أن يطلع الصباح.

تشبثت بها العمة وبكت. قالت:

- سلامة عقلك. الله يبعد الشر عنك. اهدئي يا ابنتي

دفعتها بقوة فسقطت على الأرض. تركتها واندفعت إلى الصالة. فوجئا باندفاعها إلى الصالة بهذه الهيئة التي تعبر عن فقدان الرشد، وترقبا مبهورين ما يمكن أن تسفر عنه هذه الاندفاعة المجنونة. ضحكت ضحكة هستيرية وقالت:

- أتريان كم أنا دميمة. هذا أنا على حقيقتي. لماذا أنتما مرعوبان. ألم تريا هندياً أحمر من قبل. ألم تعرفا ماذا حل بالهنود الحمر؟أليس من حق الهندي الأحمر أن يقاتل أعداءه؟

ما جرؤ أي منهما على النطق. فقالت غاضبة.

- أجيبا. لماذا خرستما فجأة؟

قال جلال:

- أريحينا بربك وأريحي نفسك.

ردت عليه:

- ألم أحذرك. أنت طلبت البقاء.

تحاملت العمة على نفسها ولحقت به. قالت دلال :

- أين هو الجنرال أبو هويمل. سأقضي عليه.

ثم توجهت إلى الدكتور أحمد:

- أنت من معسكره. اذهب وجئني به.

صوبت المسدس نحوه وقالت:

- هيا الآن.

فقد الدكتور أحمد صلابته وبدا كقط مذعور.

خاطبها جلال بهدوء.

- أهدئي دلال. الدكتور أحمد في معسكرك. إنه يحبك ويتمنى لك الخير.

قالت:

- لا احد يحب الآخر في هذا العالم. حتى أنت لا تعرف الحب، أنت تخدع نفسك بالقراءة وتخاف أن تتصل بالناس. ما نفع أفكارك إذا كنت لا تستطيع أن تحب وتكره. ما نفعك. أنت بدون جدوى.

اختلط الأمر على جلال، فما عاد يميز بين الحقيقة والمسرح، ولا عاد يعرف إن كانت هذه رغبة منها في أداء دور مسرحي يترك أثره الواضح فيهما أم ضرباً من الجنون مسها فما عادت تعرف ما تريد.

قال:

- انسي أمري. أنا أوافقك الرأي على كل ما يتصل بي. لقد كنت غائباً غياباً شبه كامل حتى جئتني أنت وأريتني ما كانت ذاهلاً عنه. أما هو فلا يستحق منك هذا الاتهام. كان الوحيد الذي ما تخلى عنكم بعد وفاة الوالد.. أنت قلت لي ذلك.

قالت:

- هو مسؤول عما حدث لي الليلة. كان يعرف أن أمي تموت، ومع ذلك ماذا فعل ليخفف عني. جالس ابنته ثم ذهب ليقامر. ربما ما كنت أخرج للبحث عن خالد لو كان معي، ما كنت جئتك إذاً ولما ذهبنا إلى تلك الأماكن المزرية، وما كنا دخلنا مركز الشرطة. هناك تحرك غضبي، هناك تذكرت ما فعله أبو هويمل بي. لقد جاهدت لكتم غضبي. أنت أيضاً يجب أن تتأثر. أنت أيضاً هندي أحمر. دعنا نذهب أنا وأنت. أنا أقتل أبا هويمل وأنت تقتل المحقق.

أجاب:

- إذا كان لا بد من ذلك فلنترك الأمر إلى وضح النهار. يجب أن نعد خطة محكمة. أهدئي الآن ودعينا نفكر بعقل بارد.

قالت:

- إنك إنما تريد كسب الوقت.

انتهز الدكتور أحمد فرصة هذا الحديث، فنهض وتقدم باتجاهها. نهرته فوقف في مكانه. تراجعت واسندت ظهرها إلى الجدار وقالت:

- لاتحاول ثانية.

ثم رفعت المسدس إلى صدغها وقالت:

- أعنّي يا رب.

هتف الدكتور أحمد.

- لا دلال... لا... لاتفعلي. أقتليني أنا أولاً. لقد أخطأت بحقك. أنت مصيبة بكل ما قلته. لقد جعلتني أدرك الآن وأرى دمامة نفسي.

ثم أنهار وانتابته لحظة بكاء، ثم قال:

- أنت عزيزة عندي، أنت مثل ابنتي، صدقيني.

أبعدت المسدس عن صدغها وقالت:

- أنت تبكي. لقد بكيت مرتين هذه الليلة. بكيت من أجلي. أنت تملك عاطفة إذاً، انهض أرجوك.

قال:

- اتركي المسدس أولاً.

قالت:

- لا أستطيع.

سأل برجاء:

- لماذا ؟

- لأن الشيطان تلبسني.

أعادت المسدس إلى صدغها فهتف:

- لا. دلال.. لا تقتلي نفسك.

قالت:

- من يتحدث عن القتل. أنا لا أقتل. لا أقتل نفسي. لقد دعتني أمي للحاق بها. هذا كل ما في الأمر. قالت إنها تخشى عليّ من بعدها. سوف ألحق بها.

قال:

- أرجوك. أنا أحفظ سر أمك. أنا الذي أحمل نداءها. فقد قالت لي. لماذا لا تتزوج دلال.

سوف تدخل السعادة إلى بيتك وتحميها. ولولا رغبة أمك ما جرؤت على طلب الزواج منك مع أنني كنت مغرماً بك. كنت أفكر بفارق العمر وأخشى مصارحتك بمشاعري، ولذلك ما كنت أعرف ماذا أقول. كنت أشعر بالراحة عندما أزورك. كنت أجيئك متألماً أحياناً وأتحدث عن الشر الذي يسود العالم دون إحساس بالمسؤولية. أنت محقة تماماً. كنت إزاءك أشعر أنني أنا الضعيف وأنت القويّة. أدرك الآن غبائي وإثمي. لقد تخليت عنك في أكثر الأوقات حاجة إلي. أنا شخص أناني لا يحب إلا نفسه، لقد أظهرت لي عيوبي هذه الليلة. لقد رأيت بجلاء ساطع رثاثة نفسي، وهذه مساعدة منك لن أنسى فضلك فيها، أعدك أنني لن أكرر أخطائي.

كانت العمة في هذه الأثناء قد تسللت حتى صارت قريبة منها. وحده جلال كان قد لاحظ تسللها الناجح، لأن دلال والدكتور أحمد انشغلا بتبادل الحديث. لقد علق جلال آمالاً على اقتراب العمة إلى هذا الحد، فقد يمكن لها أن تنجح في الوثوب إليها وانتزاع المسدس إذا ما أبعدت دلال يدها، غير أنها ظلت تضع فوهة المسدس على صدغها.

تابع:

– أنا شخص فاشل. كنت أرزح تحت وطأة فشلي. سأتعظ الآن وأختار أسلوب حياة يناسبني. اقبلي بي زوجاً. أرجوك سترين كم قد تغيرت.

قالت:

– لن أكرر خطأ أمي. لن أمنح حياتي لرجل يرضيني حيناً ثم ينقلب عليّ ويضربني كلما ضاق به الحال أو خسر شيئاً. أنا لا أقبل لنفسي ذلك. لقد انتهى الأمر. أنتم شهود اللحظة الأخيرة، أغمضت عينيها وقالت:

– ساعدني يا رب.

وثبت آنذاك العمة، غير أن دلال كانت قد ضغطت على الزناد، ضغطت على الزناد وأحدثت الطلقة دوياً هائلاً، أحدث الموت دوياً، وتهاوت دلال. ألقت العمة بنفسها فوقها ونهض الدكتور أحمد وجثا. ثم أبعد العمة برفق ووضع رأسه على الصدر وقال لجلال الذي اقترب، قال من خلال دموعه:

–ماذا تفعل يا غبي؟ اذهب فوراً. هذه جريمة وسوف أبلغ الشرطة.

قال جلال:

- لتأت الشرطة. لتأت الشياطين. أنا شريك كامل الشراكة. ولن أبرح هذا المكان.

نهض الدكتور أحمد وأمسك به من كتفه ثم دفعه نحو الباب ودفعه دفعه إلى الخارج ثم أغلق الباب بالمفتاح.

تلبث في مكانه لا يقوى على مبارحة المكان ثم حاول فتح الباب فلم يوفق. طرق الباب بيديه فما استجاب له أحد. نادى بأعلى صوته، غير أن صوته ذهب سدى، فقد دخل الدكتور أحمد غرفة النوم ليتصل بمركز الشرطة.

رأى جلال أن لا فائدة من بقائه، فقد أغلق الباب دونه، وما عاد له دور في الخاتمة المريعة. لقد انتهت اللعبة الصعبة وسقط الممثل البارع عن خشبة المسرح صريعاً. سقط الفارس الشهم الشجاع عن جواده صريعاً. سقطت السوسنة صريعة. صار حراً ولكن ليس كالأحرار، طليقاً، ولكن ليس كالطلقاء. طريقه سالك ولكن لا يعرف كيف يسلكه. تعثر وهو يجتاز الممر، تعثر وسقط، تعثر وهو يصعد الدرج، سقط. بلغ الشارع بعد جهد، مشتت الخاطر فزعاً، خائفاً وحزيناً. صار في المدى الأبيض المفتوح، في المدى البارد المحايد. الثلج يتساقط، يتطاير نتفاً في فضاء رحب شاسع وهو لا يطلق بصره في الفضاء. بصره ما زال عالقاً هناك... أسير المشهد الأخير، المشهد الحاسم الدموي، يرى دلال بفستانها الأحمر بالزهرات السود فوق صدرها وهي تهوي، والعمة تهوي فوقها والدكتور أحمد يهوي ويجثو على الأرض. يرى السوسنة تنقصف وتهوي. يرى شريكة ليلته وهي تمضي وتتركه مشدوهاً. يرى الموت الكامن في طيات معطفها وفي نسيج زهرات ثوبها. كان الموت أول ما صادف وآخر ما فارق. الموت كان على السرير والموت كان داخل دلال. كان برفقة الموت طيلة الوقت. فك الموت إساره وأطلقه، ولكن ليس من الطلقاء. حجم الكارثة كبير ونفسه تنوء تحت ثقلها.

سار لا يدري إلى أين، ليس إلى جهة معينة، ليس إلى مكان معين، لا يريد الاختباء أكثر، لا يريد الاحتماء الآن. سار دون هدف. سار وتعثر وسقط. ارتفعت حرارته وتخاذل جسده وخارت قواه وما توقف. تشبث بالسيارات والأشجار. كان يسمع دوي الرصاصة القاتلة. الرصاصة الآثمة، الرصاصة التي لا تعرف الرحمة. لعن الله الرصاص، لعن الله مخترع الرصاص والبارود والسلاح. دوي الرصاصة يطن في رأسه ودلال جثة هامدة. قتل الرصاص شريكة ليلته، من فتح عينيه على الرعب، من فتح عينيه على الحقائق، من أراه عمان على حقيقتها،

من كشف له السر المكتوم، من كشف له الخديعة وأظهر له الحقيقة.

سار.. ولكن ليس كالسائر، ثقيل الخطو، خائر القوى، بلغ شارع رأس العين وبلغ أول النهار.

انتهت



1955-2005

تأسس البنك الأهلي الأردني، العام 1955، فكان، بذلك، أول مؤسسة مصرفية محلية النشأة في البلاد. وكان تأسيسه بدفع من آليات التطور الاقتصادي النوعي الذي شهدته المملكة الأردنية الهاشمية في عقد الخمسينيات، وانتقل بها من مرحلة الاقتصاد التقليدي إلى الاقتصاد الحديث القائم على الصناعة والتجارة والخدمات.

إلاّ أنّ الدلالة الأرأس لتأسيس البنك الأهلي الأردني، آنذاك – والتي ظلّت تطبعه بطابعها دائماً- كانت تتمثّل في الاستجابة الديناميكية لحاجة المجتمع المحلي إلى استحداث وتطوير مؤسسة مصرفية وثيقة الصلة بمطالبه العيانية وثقافته وأفكاره.

وطوال العقود اللاحقة، حافظ البنك الأهلي الأردني على موقعه الخاص والطليعي في قلب الاقتصاد الوطني، ووضع نفسه، من دون توقّف، في خدمة احتياجاته المتنامية. وكان هذا الخط هو الأساس في توسّع البنك، محلياً وإقليمياً، وفي تراكم قدراته وخبراته وعلاقته وخدماته. وهنا تابع البنك ما سيصبح ميزته الأساسية، وهي تقديم الخدمات المصرفية بأسلوب شخصي، ورعاية مصالح جمهوره، وتفهّم مطالبهم وتلبيتها.

ولذلك، فإنّ جيلاً وراء جيل من رجال الأعمال والمواطنين الأردنين – والكثير من الأشقاء العرب- يعتبرون البنك الأهلي الأردني، مثابة بيتهم الثاني، جذورنا، إذن، راسخة، ومنهم يأتي مضمون شعارنا: "التزام نحو التميّز والتجديد" وهو ما يعني التزامنا بالبحث الدؤوب عن الأفكار والآليات والخدمات الأكثر تجاوباً مع تطوّرات الاقتصاد الأردني والعربي، ومع الاحتياجات المتجدّدة والمتنامية للمؤسسات والأفراد. وكل ذلك في ضوء ارتباطنا الحميم بأصالة انتمائنا الاجتماعي والثقافي.

البرنامج الثقافي

بالقرب من المركز الملكي بعمّان، تنتصب جدارية فسيفسائية هي الأكبر في البلاد، جدارية "عمّان.. بهجة الذكريات". التي تمثّل تحية من البنك الأهلي الأردني إلى التقاليد القديمة لأهم الفنون التشكيلية الأردنية عبر التاريخ: الفسيفساء، وقد أهداها البنك إلى عمّان، عاصمة الثقافة العربية للعام 2003.

يؤمن البنك الأهلي الأردني بالدور الاجتماعي والثقافي للقطاع الخاص الوطني؛ وهو يولي، انطلاقاً من ذلك، اهتماماً كبيراً بدعم النشاط الثقافي الراقي متعدّد الوجوه، بما في ذلك النشر النوعي للدراسات الاجتماعية والتاريخية والفكرية، والأعمال الإبداعية، للمثقفين والأدباء الأردنيين، وكذلك تقديم الدعم الإداري والمالي للهيئات الاجتماعية والثقافية والندوات والمؤتمرات المتخصصة، بالإضافة إلى رعاية الفنون التشكيلية والمسرحية.

ويعتز البنك، خصوصاً، بإنشائه "متحف البنك الأهلي الأردني للنميّات". الأكبر في المنطقة، الذي يضم حوالي 4000 قطعة نقدية و12000 مسكوكة ونميّة، تعرض تاريخ الأردن والعرب عبر العصور.

ولا يستهدف البنك الأهلي الأردني، من وراء نشاطه الثقافي، تشجيع سياسات معيّنة، ولكنّه يرمي إلى تعزيز الثقافة الوطنية وقيم التنوير والعقلانية والإبداع.

منشورات البنك الأهلي الأردني

١- السلط وجوارها (١٨٦٤ – ١٩٢١): د.جورج طريف الداوود، ١٩٩٤.

٢- طيور في سماء الأردن: أرسلان رمضان، ١٩٩٤.

٣- تاريخ القانون: د.منذر الفضل، ١٩٩٥.

٤- إربد وجوارها (١٨٥٠ – ١٩٢٨): د.هند أبو الشعر، ١٩٩٦.

٥- عمّان وجوارها (١٨٦٤ – ١٩٢١): د.نوفان رجا الحمود السواريه، ١٩٩٦.

٦- القدس وجوارها (١٨٠٠ – ١٨٣٠): د.زياد عبد العزيز المدني، ١٩٩٦.

٧- بنك الأعمال/ البنك الأهلي الأردني: د.عبد الله المالكي، ١٩٩٦.

٨- نقش الجص الآرامي من دير علا: د.إدوارد لبينسكي، ترجمة د.عمر الغول، ١٩٩٧.

٩- رهن الدين في التشريع الأردني: نائل علي مساعدة، ١٩٩٧.

١٠- الأردن وسوريا والعراق وتحديات السلام: د.سعد التل، ١٩٩٧.

١١- الخبر الهاشمي في جريدة فلسطين (جزآن): د.زهير غنايم، ١٩٩٧، ١٩٩٨.

١٢- صفحات مطوية في تاريخ الأردن: د.سعد أبو ديّة، ١٩٩٨.

١٣- الفهرس العام لمجموعة بلاغات المالية العامة لسنة ١٩٢٠: د.محمد عدنان البخيت، ١٩٩٨.

١٤- الشرطة المعاصرة وحقوق الإنسان: أحمد صالح العمرات، ١٩٩٨.

١٥- ناحية القدس الشريف في القرن السادس عشر الميلادي (جزآن): د.محمد أحمد سليم اليعقوب، ١٩٩٨، ١٩٩٩.

١٦- ديوان عبد الله اللوزي: عبد الله اللوزي، ٢٠٠٠.

١٧- السلط.. ملامح من الحياة اليومية (جزآن): د.هاني العمد، ٢٠٠٢، ٢٠٠٣.

١٨- غالب هلسا، الأعمال الروائية الكاملة (ثلاث مجلدات): غالب هلسا، ٢٠٠٣.

١٩- مصطفى وهبي التل، مختارات: ناهض حتر، ٢٠٠٣.

٢٠- النخبة الأردنية وقضايا التحديث والديمقراطية: ناهض حتر، ٢٠٠٣.

٢١- الليبرالية الجديدة في مواجهة الديمقراطية: ناهض حتر، ٢٠٠٣.

٢٢- دراسات في تاريخ الأردن الاجتماعي (موسوعة): مجموعة مؤلفين، ٢٠٠٣.

٢٣- سباق العصبية والمصلحة في الثقافة الوطنية الأردنية: سامر خرينو، ٢٠٠٤.

٢٤- الأردن القادم: الممكن والواجب: إبراهيم غرايبة، ٢٠٠٤.

٢٥- بيان الوعي المستريب: إلياس فركوح، ٢٠٠٤.

٢٦- نميّات نحاسية أمويّة جديدة من مجموعة خاصة،مساهمة في إعادة نظر في نميّات بلاد السام: د.نايف القسوس، ٢٠٠٤.

٢٧- أشجار شعثاء باسقة: ياسر قبيلات، ٢٠٠٥.

٢٨- قطر الندى : يوسف الغزو/رواية، ٢٠٠٦.

-٢٩ روكس بن زائد العزيزي فريسة أبي ماضي، ٢٠٠٦

ضمن سلسلة (دراسات):

١- القبيلة والدولة في شرق الأردن: جهاد المحيسن، ٢٠٠٥.

٢- نساء في معترك السياسة: فاطمة الصمادي، ٢٠٠٥.

٣- غالب هلسا مفكراً: مجموعة مؤلفين، ٢٠٠٥.

٤- إشكالية الحركة القومية العربية: سلامة كيلة، ٢٠٠٥.

٥- الأرمن الأردنيون.. الواقع الاجتماعي والهوية: آردا فريج ديركرابديان، ٢٠٠٥.

٦- روكس العزيزي وجهوده في توثيق اعلام الادب والفكر: اسامة شهاب، ٢٠٠٦.

ضمن سلسلة (الأعمال الكاملة):

١- الأعمال الكاملة: هاشم غرايبة، ٢٠٠٥.

٢- الأعمال الكاملة: يوسف ضمرة، ٢٠٠٥.

٣- الأعمال الكاملة: تيسير سبول، ٢٠٠٥.

٤- الأعمال الكاملة: سالم النحاس، ٢٠٠٦.

٥- الأعمال الكاملة: فخري قعوار ٢٠٠٦.

٦- الاعمال الكاملة: فايز محمود ٢٠٠٦.

٧- الاعمال الكاملة: هند ابو الشعر ٢٠٠٦.

٨- مختارات شعرية محمود فضيل التل ٢٠٠٦.